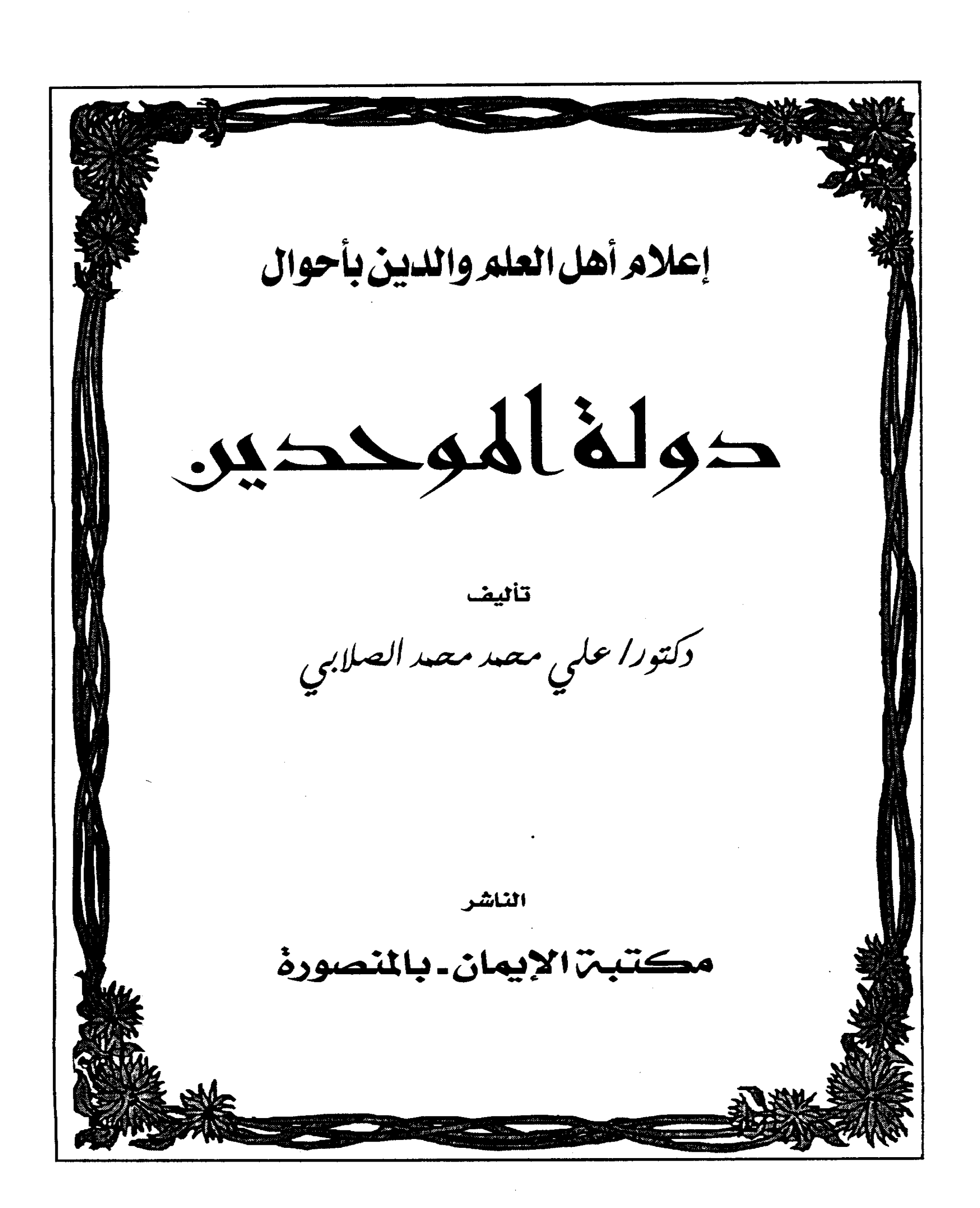


إعلام أهل العلم والدين بأحوال

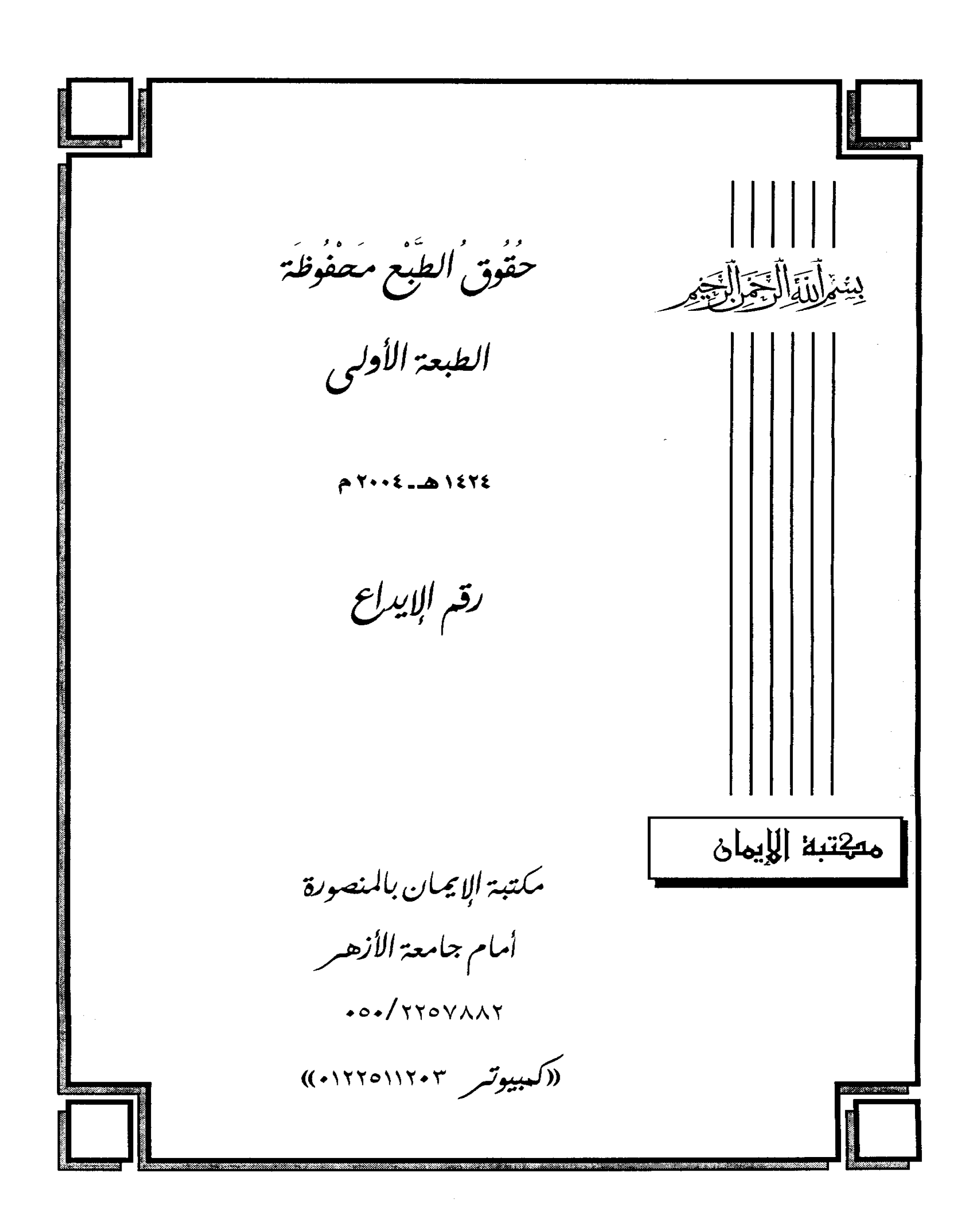
دولة الموحدين

تأليف

دكتور/ علي محمد محمد الصلابي

الناشر

مكتبة الإيمان - بالمنصورة



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع

مكتبة الإيمان

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

«كمبيوتر ٠١٢٢٥١١٢٠٣»



الإهـــداء

- إلى العلماء العاملين.
- والدعـاة المخلصين.
- وطلاب العلم المجتهدين.

أهدي هذا الكتـاب سـائلا المولى عز وجـل بأسمـائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

قال تعـالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحـمده، ونستعينه، ونسـتغفره، ونعوذ بـالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعـمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فـلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَقَّ تُقَـاتِهِ وَلا تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّـسْلِمُـونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد...

يا رب لك الحمـد كما ينبغي لجـلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمـد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتـاب الخامس (صـفحات من التـاريخ الإسلامي فـي الشمال الإفـريقي) يتحـدث عن **دولة الموحـدين**، فيعطي صورة واضحـة عن مؤسس الدولة محمد بن تومرت ،ويوضح عقيدته المنحرفـة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين أعماله الظالمـة والجائرة، ويقف على حقيقـة الصراع مع دولة المرابطين ،ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدمـاء وهتك الأعراض عند الموحدين، ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والأسـباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه، ويشيـر إلى أهمية تحـصين الأمة بعقـائد أهل السنة والجمـاعة حتى تسلم من العـقائد الفاسـدة والدعوات البـاطلة والمناهج المنحرفـة، ويعطي نبذة مخـتصـرة عن سلاطين

الموحدين ابتداءً من عبد المؤمن بن علي الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووحد الشمال الإفريقي بقوة السلاح ،والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبناؤه وأحفاده عليها من بعده، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأراك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام ٥٩١ هـ فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها، ويثني على المجهودات العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السنة والجماعة، ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية، ويذكر الأسباب التي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الأضواء على الثورات التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين ،وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات ،وما هي أسبابها وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الإفريقي.

ويقف وقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين، فيشير إلى السنن الإلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

يتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الإفريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة، وأسباب صمودها ضد النصارى، ودور المرينيين حكام المغرب الأقصى في الوقوف مع مسلمي الأندلس ،ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ،ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس ،ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الإفريقي ،ويتحدث عن أسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم، ثم كيف انتزعه السعديون منهم، ويثني على أعمال السلطان عبد الملك السعدي الذي حقق نصرا عزيزا على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام ٩٨٦هـ والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده، ويمضي

بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على أسباب سقوطها ،ومجيء الأشراف العلويين لحكم المغرب الأقصى.

ويتعرض لدولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ،ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ،ويقف على أسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الأوسط من قبضة الأسبان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في إفريقية وأسباب قيامها ونظام ولاية العهد عندهم، وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ويقف على أسباب سقوط الدولة الحفصية ،وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرروا طرابلس من فرسان القديس يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد ،وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيرا فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفي من هذا الكتاب:

١- بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة، وعقدية فاسدة.

٢- أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السنة والجماعة وتربية أبنائها عليها، حتي يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

٣- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

٤- التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين.

٥- إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور

سليم بعيدة عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

٦ـ كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الإصلاح وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام.

٧ـ بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة هي التي سارت وتسير على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

٨ـ بيان أن الذين كفَّروا المسلمين، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم بأنهم قادة في الفساد والدمار والإجرام.

هذا ، وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: محمد بن تومرت ، ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني: البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت.

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني: عبد المؤمن بن علي وأولاده وأحفاده، ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: عبد المؤمن بن علي.

المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.

المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور.

المبحث الرابع: الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر.

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين، ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مملكة غرناطة.

المبحث الثاني: دولة بني مرين.

المبحث الثالث: دولة بني عبد الواد.

المبحث الرابع: الدولة الحفصية.

ثم الخلاصة.

وأخيرًا، أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب..

إنه ولي ذلك والقادر عليه.

سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي





الفصل الأول

محمد بن تومرت



المبحث الأول

اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

أ ـ اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال: إنه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي، والبعض الآخر يجعل نسبه بربريا صرفا. والبعض الآخر يجعله نسبًا مختلطًا بين البربر والعرب، هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول ﷺ [١].

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته، وإلى تمكنه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك لأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول ﷺ، حيث قال: «وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه، فلا دليل يقوم على بطلانه، لأن الناس مصدقون في أنسابهم»[٢].

---

(١) انظر سقوط دولة الموحدين د. مراجع عقيلة، ص (٣٦).

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة، ص(٢٦).

وقول ابن خلدون فيه نظر، لأن المؤرخين الأثبات والثقات أثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه[١].

ووافق ابن خلدون من المعاصرين الدكتور عبد المجيد النجار[٢] في صحة نسب ابن تومرت إلى بيت النبي ﷺ وادعى أن صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد بن عبد الله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة، وثوب مستعار قصد وراءها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضًا شعارًا لإمامته ورياسته[٣].

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه، أن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة، والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج ما يلي:

١- أنه لم يشتهر بين المؤرخين - لا سيما علماء الأنساب منهم - أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي، وإنما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها، أو بتأثر بدعوة ابن تومرت[٤].

٢- أن هذا الادعاء كان مألوفًا عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لاحظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

٣- ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفًا عند أتباعه إلا بعد أن ادعى ذلك لحاجة في نفسه[٥].

---

(١) انظر الذهبي سير أعمال النبلاء (١٩/ ٥٣٩).

(٢) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، د. عبد المجيد النجار، ص(٥٦).

(٣) انظر: عصر المرابطين والموحدين، ص(٥٥٧).

(٤)من هؤلاء المؤرخين، أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، وابن القطان، وغيرهم.

(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، ص(٥٥٨).

- أما تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة، فمنهم من قال: ٤٧٣هـ[١]، ومنهم من قال: ٤٨٥هـ[٢]، ومنهم من قال: ٤٦٩هـ، ورجح الدكتور عبد المجيد النجار أنه ولد سنة ٤٧٣هـ[٣].

ولم تعط المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة، وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون: «وكان أهل بيته أهل نسك ورباط»[٤]، « كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد ابن تومرت وأخويه عيسى وعبد العزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق، ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة»[٥].

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلم القرآن حفظًا ورسمًا وقراءة على عادة المغاربة ،كما وصفها ابن خلدون في قوله: «أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه. . . إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة»[٦].

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئًا من الفقه، لقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم منذ شبابه، قال ابن خلدون: «وشب محمد هذا قارئًا للعلم، وكان يسمى «آسفوا» ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج في القناديل بالمساجد لملازمتها»[٧].

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين، ص(٣٦).

(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/ ٥٢)

(٣) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، ص(٥٧).

(٤) ابن خلدون ـ العبر: (٦/ ٢٢٦).

(٥، ٦) ابن خلدون ـ المقدمة: (٦٠٥).

(٧) تاريخ ابن خلدون (٦/ ٢٢٦).

ب- رحلته في طلب العلم:

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات ما يفيده في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها.

فبدأت رحلته في عام ٥٠٠هـ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عامًا كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره.

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة[١]، ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين، إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور[٢].

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بحرًا ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري ثم قصد مصر على طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام[٣].

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروسًا وأخذ علمًا من الشيخ أبي بكر الطرطوشي، ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام أداء الفريضة[٤]وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها ما يزيد على عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال والأشاعرة ،وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفًا قال ابن خلدون: (ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علمًا واسعًا)[٥].

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، وإلكيا الهراسي، والمبارك ابن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي.

(١، ٢) البيان المغرب(١/ ٤٣٥).

(٣) انظر: تجربة الإصلاح لابن تومرت، ص(٥٩).

(٤) انظر: ابن خلدون (٦/ ٢٢٦).

(٥) ابن خلدون العبر (٦/ ٢٢٦).

وكان الإمام الغزالي (ت: ٥٥٥) مبرزًا في علم أصول الدين والتصوف ومتبحرًا في علم الكلام ووقع في أغلاط وأخطاء، قال الذهبي عن كتابه الإحياء: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علمًا نافعًا».

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه، قال ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»[١]. فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، وسنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فوا غوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، نعم، ولم ينس الذهبي أن يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»[٢].

وقال الشيخ الطرطوشي[٣] في رسالة له إلى ابن مظفر: «فأما ما ذكرت من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء»، عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم(١٤٠١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٠، ٣٤٦).

(٣) توفي عام ٥٢١هـ .

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤١).

وأما شيخ الإسلام، ابن تيمية فقد أثنى على كتاب الإحياء قائلاً بأن غالبه جيد وأن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه بعض مواد مذمومة وفاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والميعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكر على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا: أمرضه الشفا- يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة- وقال: «وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة وما هو أكثر مما يرد منه»[1].

وقد كان دائمًا يتعرض لآراء الغزالي في أكثر كتبه وينقد ما جاء فيه بأسلوب هادئ علمي ، وغالبًا ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث، وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره[2].

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وأن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد[3]، وإن ابن تومرت تأثر به، وكان ابن تومرت رجلاً متحررًا من الجمود والتقليد ومتنورًا في أطروحته التغييرية.

ولا بد من بيان أن الغزالي كان مضطربًا في منهجه العقدي ، ولم تكن مسائل العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأن ابن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بإلكيا الهراسي (ت ٥٠٤ هـ / ١١١٠م)، فقد كان عالمًا في الفقه والأصول والخلافيات

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢١٠).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٦/ ٥٥)، (١٠/ ٥٥١، ٥٥٢) .

(٣) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، ص(٦١).

والتفسير، وله في التفسير كتاب «أحكام القرآن».

وأما المبارك بن عبد الجبار (ت٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) فقد كان محدثا مكثرًا، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت٥٠٧هـ)، فقد كان عالمًا في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألف في المذهب كتابه «المستظهري»[١]، وكان من شيوخه أيضًا أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢١هـ) الذي أخذ عنه ابن تومرت العلم في الإسكندرية. وكان متميزًا في الفقه، ومتمكنًا في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب «سراج الملوك»، كما كان الطرطوشي مهتمًا بنشر السنة ومحاربة البدعة وألف كتابه «الحوادث والبدع».

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم النقلية والعقلية. فضبط الأصول، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغير ذلك من العلوم[٢]، ورأى عن كثب أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب، وحضر مناقشاتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله[٣].

---

(١) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، ص(٦١).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص(٦٢).

(٣) انظر: سقوط الموحدين، ص(٣٧، ٣٨).



المبحث الثاني

البعد التاريخي عند محمد بن تومرت

نظر ابن تومرت في المدارس الفكرية الرئيسية التي وجدت في بلاد المغرب قبله، وخصوصًا تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي، وأهم تلك الاتجاهات والأفكار التي قامت على أسس قوية تحميها دولة في بلاد المغرب والتي استقى منها ابن تومرت أفكاره وزاد عليها:

١- الاتجاه السني، وتمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها:

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧١- ١٩٣هـ) سنة ١٨٤هـ على ولاية إفريقية، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي على الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الاسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغًا من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب. وقد توالي على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب (٢٩٠- ٢٩٦هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ، وقد عمل الأغالبة - حين مدة حكمهم - على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب، وصقلية، كما عملوا أيضًا على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار[1]. أما دولة المرابطين (٤٥١ - ٥٤١هـ) فقد قامت في جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني،

(١) انظر: الأغالبة.. سياستهم الخارجية، ص(٤٤) للأستاذ محمود إسماعيل.

وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين. وكانت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها: الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وكل أمور الدولة[١]. وكان من مآثرهم العظيمة: جهادهم ضد النصارى في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (٤٨٠هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين، لا سيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩- ٥٤١هـ) سنة ٥٤١هـ[٢]. وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس[٣]. وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين، فإن الدولة الزيرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها، وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦- ٤٥٣هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة، كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم، ثم ما لبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢- ٤٦٧هـ)[٤] وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها

---

(١) انظر: قيام دولة المرابطين لحسن محمود، ص(١٦٦).

(٢) انظر: البيان المغرب (٣/ ٢٣).

(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، ص(٥٤١).

(٤) انظر: ابن خلدون (٦/ ١٥٩).

رافضيًا[١].

ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني «صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي»، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليها سيف السنة ومزيل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث «صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي» وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتها العظام في كتابي الرابع «صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي».

٢ـ الاتجاه الخارجي: وتمثله دولتا المدراريين (١٤٠ـ٣٤٧هـ) والرستميين (١٤٤ـ٢٩٦هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي، والذي كان يدين بالمذهب الصفري - أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج - حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى[٢].

وفي سنة ١٥٥هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لمآخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار (١٥٥ـ١٦٧هـ) [٣]، وقد تولى على عرش الدولة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار (٣٣٢ـ ٣٤٧هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار.

أما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الإباضي، فقد أسسها في بلاد

---

(١) انظر: ابن خلدون (٦/ ١٥٩).

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. أحمد العبادي، ص(٤٦).

(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ص(٥٤٣).

المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم (١٤٤ـ ١٧١هـ) سنة ١٤٤هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له[١].

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية. وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبد الوهاب، رأى آخرون[٢] مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبد الرحمن الأمر فيهم، لكن مسعودًا تنازل لعبد الوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة[٣]. وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها وهو اليقظان بن أبي القيظان (٢٩٢ـ ٢٩٦هـ) وذلك سنة ٢٩٦هـ[٤]، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب، فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة[٥].

٣ـ الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين:

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب، إذ إن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة ٢٩٦هـ.

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة، والرستميين، والمدراريين، والأدارسة فاستطاعت بذلك ـ إلى حد ما ـ أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في

(١) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٥٨٣).

(٢) نفس المصدر السابق: (٢/ ٥٥٢، ٥٥٣).

(٣) انظر الأزهار الرياضية للباروني (٢/ ٩٩٠).

(٤) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٥٦٥).

(٥) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. أحمد العبادي، ص(٤٨).

الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس[١]، كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام ٣٦٢هـ.

٤ ـ الاتجاه الاعتزالي، وتمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ـ٣١٣هـ):

أقام هذه الدولة إدريس بن عبد الله بن الحسن سنة ١٧٢هـ، وذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غربًا إلى تلمسان ووهران شرقًا[٢].

ولما توفي إدريس بن عبد الله سنة ١٧٧هـ بقي الأمر في سلالته حتى قضى على دولتهم العبيديون عام ٣١٣هـ[٣]، وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف[٤]، وقرب نسبهم للرسول (ﷺ) ولكنهم لم يظهروا شيئًا من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدو أن زعماء هذه الدولة ـ لا سيما القدماء منهم - وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصًا من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماسًا لجعله مذهبًا رسميًا لدولتهم[٥].

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع

---

(١) نفس المصدر السابق: ص(٥٥).

(٢) نفس المصدر السابق ص(٥٠).

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٤٨٦).

(٤) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص(٥١).

(٥) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، ص(٥٤٦)ـ العدد السادس.

المذاهب السابقة وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه، ولذلك جاءت الأسس الفكرية لدعوته خليطًا مضطربًا ونسيجًا فكريًا متباينًا.

إن ابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به، لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها. ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط، بل إنه - في الحقيقة - جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة. فهو في دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف، وهو في علمه، متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وآتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ويعقوب بن يوسف : يعتبر رجل السياسة، لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها[١].

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة وأخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتوائم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه - وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى.



(١) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص(٣٨).



المبحث الثالث

مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام ٥١٠هـ[١] شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الإفريقي، واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتحمل المصاعب والمشاق ويشكل خلايا تابعة له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الإسكندرية وأخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقصد طرابلس بحرًا حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية، ثم انتقل إلى المهدية بتونس واتخذ أحد مساجدها مقرًا يدرس به العلم، مركزًا على علم الأصول، وأحدث اضطرابًا في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس، وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو قسنطينة، ثم بجاية التي وصلها سنة ٥١١هـ وأقام بها مدة واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وناظر الفقهاء بها وظهر عليهم[٢].

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي كان متجهًا إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو، فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته، وقد لمح ابن تومرت في عبد المؤمن بن علي علامات الذكاء وصفات النبوغ وملامح الفطنة، وأخبر ابن تومرت تلميذه بحقيقة ما ينوي القيام به[٣]، فبايعه على مؤازرته

(١) روض القرطاس، ص(١٢٠).

(٢)انظر: تجربة الإصلاح في تجربة المهدي ابن تومرت، ص(٦٣).

(٣) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٧٤، ٧٧٥).

في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكره.

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع، فالرواية تقول: إن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، وأن صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر، وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع ب د م و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ويبشر به قبل قدومه.

وكتاب الجفر هذا: يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق (رحمه الله) كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوبًا عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفر الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب، قال (تعالى): ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال (تعالى): ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق (رحمه الله) ، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاق، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعًا وعقلاً أن نقول بثبوته[1].

---

(١) انظر: مجلة المنار (٤/ ٦٠) لمحمد رشيد رضا.

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالمشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتمامًا كبيرًا في هذه الأمور[١].

لقد تقاربت أفكار عبد المؤمن مع شيخه، وخصوصًا ما يتعلق بالخروج على السلطان ،ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذا يعملان معًا من أجل تقويض دولة المرابطين[٢].

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دورًا هامًا في دعوته عبد الله الونشريسي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر، ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه ابن تومرت ذلك ، فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريسي بذلك ،وأتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس[٣].

واستمر ابن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام ٥١٤هـ، وكان خلال هذه المدة ملتزمًا ببرنامجه الذي وضعه لنفسه والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلي التجربة، إضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما أفضى إلى طرده من فاس، فتوجه إلى مراكش[٤] مقر حكم المرابطين. وخلال رحلته إليها كان

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص(١٠١).

(٢) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد، ص(١٠٢).

(٣) انظر: ابن خلكان (٥/٤٨).

(٤) انظر: البيذق أخبار المهدي ابن تومرت، ص(٢١- ٢٦).

ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية(١)، ويدل ذلك على أنه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام ٥١٤هـ في زي الزهاد ، وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاته أو وزرائه، لأنه شاهد في مراكش من المفاسد ما لم يره في مدينة ثانية[٢]، وصدف أن رأى أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها فوبخها فشكته إلى أخيها، ثم توجه ابن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفًا فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب، وخاطب عليًا قائلاً: «الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف»[٣].

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه علي للاطلاع على حقيقة أمره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت بأن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السنة، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه[٤].

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته، فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان على حق اتبع وإن كان على جهل أدب[٥].

---

(١) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد، ص(١٠٣).

(٢) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢٨٢).

(٣، ٤) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد، ص(١٠٣).

(٥) نفس المصدر السابق (١٠٤).

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت، لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من علم، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته. وهي أيضًا وسيلة دعائية ممتازة لدعوته، لأن ما ستسفر عنه ستتناقله الألسن وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة، مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم أعداد جديدة إلى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين علي ،الـغاص بالعلماء والأعيان، قدَّم علماء الدولة المرابطية - الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل - عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يُسَخِّر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمور تباع جهارًا نهارًا، وأن الخنازير تمشي في الشوارع، وأن أموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسؤولية هم حاشية أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه(١).

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز علماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهم بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عنها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجزوا عنه بأسلوب أخَّاذ، يُسَخِّر له كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت(٢).

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخرة وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره، لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين. ولكن وزيري علي بن يوسف ينتان بن

(١) انظر: ابن خلكان (٥/ ٤٦).

(٢) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد، ص(١٠٥).

عمر، وسير بن وربيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك ابن وهيب.

وألح مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله، وقال له: « اجعل عليه كبلاً كي لا تسمع له طبلاً» فوافقه على ذلك[١]. وحال يتنان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: «يا أمير المسلمين هذا وهن في حق الملك أن تلتفت إلى هذا الرجل الضعيف فخل سبيله إنه رجل لا يملك سد جوعه»[٢]. لقد أصابت كلمات الوزير يتنان عزة نفس أمير المؤمنين فاستصغر شأنه وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين[٣].

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراكش وبنى فيها خيمته، وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد، الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قِبَل المناوئين له. كما أن اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات ،فيبث أفكاره بينهم، فمن اقتنع ضمه إليه.

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادئ وبعيد عن الأعين، فيتحدث هناك بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات الآتية:

١- إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر، وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٩، ٥٠).

(٢) انظر: دولة المرابطين، ص(١٠٦).

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٩، ٥٠).

تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك[١].

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين: الأول منهما: هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين، أما الثاني: فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه، وقد نجح في ذلك حيث يذكر البيذق أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها «وكانوا له مثل أعضائه وجسده ،سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به. ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك. . . »[٢].

إن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

ويبدو أن جرأة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة[٣]، حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما إن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدون والأنصار، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل الذكاء والنجابة، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، ومن خلال تتبعنا

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٦).

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، ص(٥٤٩).

(٣) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب، عبد الله علام، ص(٨٥).

لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عددًا من السبل حتى يظهر دعوته للناس، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار، ومن هذه السبل ما يلي:

أ- أنه تدرج في إظهار دعوته، كما ألبسها الصبغة الإصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السنة والجماعة، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم، كما يقول المراكشي[١].

جـ- أنه كان يبالغ في إنكار المنكر على الحكام الذين يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية[٢]، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

د- مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لا يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشًا وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون[٣]، وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجؤون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تنكشف حقائقهم[٤].

يقول ابن العماد: «جره إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور، وارتكاب

---

(١) المعجب، ص(٢٧٠).

(٢) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧).

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت، ص(٢٢).

(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، ص(٥٥٠).

المحظور ودعوى الكذب والزور من أنـه حسني وهو هرغي بربري وأنه معـصوم وهو بالإجماع مخصوم»[١].

٢ـ وكانـت الخطوة الثانيـة التي نهجـها ابن تومـرت في بداية دعوته، أنه جـد في تكوين قاعدة قوية مـؤمنة بالمبادئ التي يدعو إليها، حيث أعد أفـرادها إعدادًا خاصًا، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعـبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهـذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكـن من تكوين خلية في بلاد مصر قـوامها واحد وخمـسون رجلاً[٢]، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميـدان حيث أنشأ حلقات للتدريس كان يبث أفكاره من خلالهـا، ولكي يوصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كـتابًا في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته حيث طالبهم بحفظه[٣].

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشي من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنو رياكل ـ إحدى قبائل صنهاجة ـ فآووه وأجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه[٤]، ولما انتـقل إلى بلاد المغرب الأقـصى وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بـلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلتـه مصمودة فاحتمى بشوكتيهـما من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومـرت من تكوين قاعـدة شعبـية قـوية لدعوته وقـد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفـاهم مع القيادة ،مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها[٥].

---

(١)شذرات الذهب (٤/ ٧٠).

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، ص(٥٤٩).

(٣) ابن القطان نظم الجهات، ص(٤٦).

(٤) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧).

(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، ص(٥٥١).

٣ـ ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت : تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكون قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذا الأمر بالمعروف ستاراً لتحقيق غايته وطريقًا لإظهار مفاسد دولة المرابطين ، فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس[١].

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين ـ لا سيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف- فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة ٥١٥هـ، وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين، وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجدًا يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين[٢].

وشرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس، وبهذا استطاع أن يوجد حاجزًا نفسيًا قويًا بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين،وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين أراد توسيع نفوذه على القبائل المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم ، وأوصاهم باتباع أسلوب

---

(١) البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص(٩).

(٢) انظر: ابن خلدون (٦/ ٢٢٨).

اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجديا في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والمهدية، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم، وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيرًا بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوبًا مناسبًا لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات، وهذا لا يفطن إليه إلا من أوتي حظًا وافرًا من الفطنة والدهاء. ونجح دعاة ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه[١].

ورسَّخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لا تزال إلا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب، ومن يشكّ فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[٢].

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية، قرر أن يعلن أنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيبًا موضحًا لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمون له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مُهَجهم دونه ،ولما كملت بيعته لَقَّبوه المهدي القائم بأمر الله، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام[٣]. وكان تاريخ هذه البيعة على الراجح في جبل إيجليز[٤] في عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل؛ لأنه لا يعقل أن يعلن

(١) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد، ص(١٠٩).

(٢) انظر: الكامل لابن الأثير (٦/ ٥٦٢).

(٣) ابن خلدون (٦/ ٢٢٨).

(٤) انظر: دولة المرابطين، ص(١١١).

مهديته الكاذبة فور وصوله إلى إيجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ما حدث فعلاً ، إذ استمر يُروِّج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط ، وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين، وساعده على نجاحه ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاً عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير[(١)].

لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة، وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

دعني ففي النفس أشياء مخبأة   لألبسن لها درعًا وجلبابًا
كيما أطهر دين الله من دنس   وأوجب الفضل للسادات إيجابًا[(٢)]
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها   ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى[(٣)]

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضًا بالمرابطين، والذين اتهمهم بالتجسيم وهم براء منه، وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاؤه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل إلى تينمل[(٤)] في قلب جبال الأطلس الكبير عام ٥١٨/ ١١٢٤م واتخذه قاعدة لدولته الناشئة، وقد بقي فيها حتى وفاته عام ٥٢٤/ ١١٢٩م[(٥)].

---

(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص (٥٥٤) .

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٥٢).

(٣) انظر: دولة المرابطين، للمؤلف سلامة محمد، ص(١١١).

(٤، ٥) نفس المصدر السابق، ص(١١٢).



المبحث الرابع

الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

إن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ، ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومن أظهر الانحرافات الفكرية فى دعوة ابن تومرت :

أولا : أنه ادعى المهدية وقال بأنه هو المهدى الذى وعد الرسول ﷺ بخروجه فى آخر الزمان ، حيث قال فى خطبته حين مبايعته إمام للموحدين سنة ٥١٥ : (الحمد لله الفاعل لما يريد، القاضى بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً ، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبى ونسبه نسب النبى...)(١)

ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل إنه أكد لهم هذا الاتجاه الفكرى فى مؤلفاته التى طالب أتباعه بحفظها ، والعمل بما جاء بها ، ومما جاء بها عن قضية المهدى قوله: (إن العدل ارتفع ، وإن الجور عم ،إن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وإن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وإن الدجالين استولوا على الدنيا ،وإن الباطل لا يرفعه إلا المهدى ، وإن الحق لا يقوم إلا بالمهدى ، وإن المهدى معلوم فى العرب والعجم والبدو والحضر وإن العلم به ثابت فى كل مكان وفى كل أوان وآن...) (٢) .

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدى ، عدد صفاته بقوله : (إنه فرد زمانه صادق فى قوله ، وإنه يملأها بالعدل - يعنى الأرض» ثم ذكر بعد ذلك المهام التى سيقوم بها المهدى ،حيث بيَّنها بقوله : (وإنه - يعنى المهدى - معصوم فيما دعا إليه من الحق ،لا يجوز عليه الخطأ وإنه لا يكابر ، ولا يضاد ، ولا يدافع ولا يعاند ،

(١) نظم الجمان لابن القطان ص (٧٥) .

(٢) انظر: أعز ما يطلب لابن تومرت ، ص(٢٥٧) .

ولا يخالف ولا ينازع ... وأنه صادق فى قوله ، وإنه يقطع الجبابرة والدجاجلة ، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها ، وإنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...) (١) .

هكذا كان رأى ابن تومرت فى المهدى ، كما يصور ذلك تراثه الفكرى ، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدى بالمغرب الأقصى، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة فى المهدى لم تشر إلى ذلك .

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج فى آخر الزمان رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين ، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة فى عهده نعمة لم تنعمها قط ، وتخرج الأرض نباتها ، وتمطر السماء مطرها ، ويعطى المال بغير عدد .

قال ابن كثير (رحمه الله تعالى) : (فى زمانه تكون الثمار كثيرة ، والزروع غزيرة والمال وافر ، والسلطان قاهر ، والدين قائم ،والعدو راغم ، والخير أيامه دائم) (٢) .

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه .

أ- اسمه وصفته :

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ واسم أبيه كاسم أبى النبى (فيكون اسمه محمد -أو أحمد - بن عبد الله ، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ثم من ولد الحسن بن على رضى الله عنه

قال ابن كثير (رحمه الله) فى المهدى : (وهو محمد بن عبد الله العلوى الفاطمى الحسنى رضى الله عنه) (٣) .

وصفته الواردة (أنه أجلى الجبهة ، أقنى الأنف) (٤) .

ب- مكان خروجه :

---

(١) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص(٢٥٦،٢٥٧) .

(٢) النهاية ، الفتن والملاحم (١/ ٣١) تحقيق د. طه زينى .

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٩) .

(٤) الأجلى : الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين ، والذي انحسر الشعر عن جبهته .

يكون ظهور المهدى من قبل المشرق ، فقد جاء فى الحديث عن ثوبان رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :«يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق ، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم. . . (ثم ذكر شيئا لا أحفظه فقال : . . .)فإذا رأيتموه ، فبايعوه ، ولو حبواً على الثلج ، فإنه خليفة الله المهدى . .». (١) .

قال ابن كثير رحمه الله: (المراد بالكنز المذكور فى هذا السياق كنز الكعبة ، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء ، حتى يكون آخر الزمان ،فيخرج المهدى ، ويكون ظهوره من بلاد المشرق ،لا من سرداب سامراء كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن ، وهم ينتظرون خروجه فى آخر الزمان فإن هذا نوع من الهذيان،وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان ، إذ لا دليل على ذلك ، ولا برهان لا من كتاب ، ولا من سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان . . إلى أن قال: (ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه ، ويقيمون سلطانه ، ويشيدون أركانه ، وتكون رايتهم سوداً (أيضا) وهو زى عليه الوقار) لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها : (العقاب).إلى أن قال : (والمقصود أن المهدى الممدوح الموعود بوجوده فى آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق ، ويبايع له عند البيت ، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث. . .) (٢) .

١- وذكر الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟!» (٣) .

٢- وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي (٢/ ١٣٦٧) .

(٢) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ٣١) .

(٣)صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى (٦/ ٤٩١) مع الفتح حديث رقم (٣٤٤٩).

« لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » إلى أن قال : « فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقول أميرهم : تعالَ صل بنا . فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله بهذه الأمة » (١) .

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين :

أحدهما : أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء يكون المتولى لإمرة المسلمين رجل منهم .

والثاني : أن حضور أميرهم للصلاة ، وصلاته بالمسلمين ، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي بهم يدل على صلاح هذا الأمير وهداه .

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين ، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى : محمد بن عبد الله ، ويقال له : المهدى ، والسنة يفسر بعضها بعضًا .

١- فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(منا الذى يصلى عيسى ابن مريم خلفه) (٢) .

٢- وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم المهدى : تعال صلّ بنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم أمير بعض ، تكرمة من الله لهذه الأمة** » (٣) .

٣- وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**المهدى مني أجلى الجبهة ، أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ،**

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى (٢/ ١٩٣) .

(٢) رواه أبو نعيم في (أخبار المهدي) صححه الألباني (رحمه الله) صحيح الجامع الصغير (٥/ ٧١٧٠) .

(٣) المنار المنيف لابن القيم ، ص(١٤٧، ١٤٨).

يملك سبع سنين ...» [١] .

ولقد تكلم العلماء فى أحاديث المهدى :

١ - قال الشوكانى : (الأحاديث فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر التى أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا ، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر ، وهى متواترة فى جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول ، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدى ، فهى كثيرة أيضا لها حكم الرفع ، إذ لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك ...) [٢] .

٢ - وقال صديق حسن خان : (الأحاديث الواردة فى المهدى على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا ، تبلغ حد التواتر المعنوى ، وهى فى السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد) [٣] .

٣ - وقال الشيخ محمد جعفر الكتانى : (والحاصل أن الأحاديث الواردة فى المهدى المنتظر متواترة ، وكذا الواردة فى الدجال وفى نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام) [٤] .

وأما العلماء الذين صنفوا كتبا فى المهدى بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة كالسنن الأربعة ، والمسانيد ، مسند أحمد ، ومسند البزار ، ومسند أبى يعلى ، ومسند الحارث بن أبى أسامة ، ومستدرك الحاكم ، ومصنف ابن أبى شيبة ، وصحيح ابن خزيمة ، وغيرها من المصنفات [٥] التى ذكرت فيها أحاديث المهدى ،فإن طائفة من العلماء أفردوا فى المهدى المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعا كبيرًا من الأحاديث

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب المهدي (١١/ ٣٧٥) رقم(٤٢٦٥).

(٢) التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح .

(٣) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، ص(١١٢) .

(٤) نظم المتناثر فى الحديث المتواتر ، ص(١٤٧) .

(٥) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر فى المهدى المنتظر ، ص(١٦٦-١٦٨) .

الواردة فيه . ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في« تفسير المنار »وصف أحاديث المهدى بالتناقض والبطلان وأن المهدى ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة ، ثم دخلت كتب أهل السنة [١] ، وممن أنكر أحاديث المهدى صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[٢] محمد فريد وجدى وسار على نفس الخط أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام» .

ويبدو أن هؤلاء الكتّاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدى، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله فى التضعيف والتصحيح ، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدى وطعن فى كثير من أسانيدها : (فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى ، وخروجه آخر الزمان ، وهى - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه) [٣] .

قال يوسف الوابل فى « أشراط الساعة » تعليقا على قول ابن خلدون : (ونقول : لو صح حديث واحد ، لكفى به حجة فى شأن المهدى ، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة) [٤] .

قال الشيخ أحمد شاكر ردًا على ابن خلدون : (إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: الجرح مقدم على التعديل ،ولو اطلع على أقوالهم وفقهها ، ما قال شيئا مما قال ، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدى بما غلب عليه من الرأى السياسى فى عصره) [٥]ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون فى هذا الفصل عن المهدى مليء بالأغاليط فى أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٩٩-٥٠٤) .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين (١٠/ ٤٨٠) .

(٣) مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٤) .

(٤) أشراط الساعة للوابل ، ص(٢٦٧) .

(٥) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (٥/ ١٩٧، ١٩٨) .

من الناسخين ، وإهمال المصححين ، ومـا ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد (رحمهم الله) ليس صوابا وإنما الحجة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والروايات المذكورة فى خروج المهدى صحيحة متواترة تواتراً معنويا وهذا يكفى، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيــات ، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصــحيح من غيره، وصنفوا الكتب فى الموضوعات وبيــان الروايات الضعيفة ، ووضعوا قواعــد دقيقة فى الحكم على الرجال ،حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره فحفظ الله السنة من عبث العابثــين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطــلين وهذا من حفظ الله لهذا الدين .

وإذا كانت هناك روايات موضــوعة فى المهدى تعصبًا فإن ذلك لا يجــعلنا نترك ما صح من الروايات فيه ، والروايات الصحيحة جاء فيــها ذكر صفته واسمه واسـم أبيه، فإذا عين إنسان شخصــاً ، وزعم أنه هو المهدى دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحــة فإن ذلك لا يؤدى إلى إنكار المهدى على ما فى الحديث ،ثم إن المهدى الحــقيقى لا يحتــاج إلى أن يدعو له أحد ، بل يظهــره الله إلى الناس إذا شاء ويعرفونه بعلامــات تدل عليه ،وأما دعوى التعارض فــقد نشأت عن الروايات التى لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة فلا تعارض فيها والحمد لله .

وأيضا فــإن خلاف الشيــعة مع أهل السنة لا يعــتد به ،والحكم العــدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم فلا يجوز أن تكون عمدة يرد بها ما ثبت من حديث الرسول ﷺ [1] .

قال العلامــة ابن القيم فى كلامه عن المهــدى : (وأما الرافضة الإمامــية فلهم قول رابع وهو أن المهدى هو محمد بن الحسن العسكرى المنتظر ، من ولد الحسين بن على لا من ولد الحسن الحاضــر فى الأمصار الغائب عن الأبصــار ، الذى يورث العصا ، ويختم الفضا دخل ســرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خــمسمائة سنة فلم تره

(١) انظر : أشراط الساعة ص(٢٦٧) .

بعد ذلك عين ولم يُحسُّ فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم : اخرج يا مولانا ! اخرج يا مولانا ثم يرجعون بالخيبة والحرمان ، فهذا دأبهم ودأبه ولقد أحسن من قال :

ما آن للسرداب أن تلد الذى	كلمتموه بجهلكم ما آنا ؟
فعلى عقولكم العفاء فإنكم	ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بنى آدم وضحكة يسخر منها كل عاقل...) [١] .

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدى المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعى المهدية أن ابن تومرت فى دعواه بأنه المهدى المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامى الصحيح، لقد جعل ابن تومرت من المهدى عقيدة ألزم بها أتباعه ، وأضاف إلى هذا المعتقد الذى ادعاه لنفسه أمر العصمة ،حيث قال عن نفسه : بأنه المهدى المعصوم ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم دون حرج أو تردد وقد أكد هذا الأمر فى مؤلفاته التى انتشرت بينهم إذ جاء فيها : ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ، ليهدم الباطل ،كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال ولا بد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن وأن يكون معصوماً من الجور ، لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته ... وأن يكون معصوما من الكذب ، لأن الكاذب لا يهدم الكذب بل يثبته وأن يكون معصوما من الباطل ... ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم [٢] .

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال : لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد [٣] . وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبح اتجاها قويا من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية ، وقد تمكن من تأصيل هذا

(١) انظر: المنار المنيف ص(١٥٢،١٥٣) .

(٢) انظر: أعز ما يطلب ص(٢٤٥،٢٤٦) .

(٣) المصدر السابق ص(٢٤٦) .

الأمر عند أتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم ، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاره به[١] .

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج فى إظهار هذا الأمر فى بادئ أمره فبدأ أولاً بالتلميح له ، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدى المعصوم ، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب فى دعواه أنها تتمثل فيه ، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربى الهاشمى ثم بالمهدية ثم بالعصمة ، والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فيم يبلغون عن الله من شرع ، ولم يقولوا بها لسواهم ،حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبى بكر، وعمر ،وعثمان وعلى وغيرهم [٢] .

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان [٣] . كما قالوا : إن الإمام كالنبى يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً ، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان [٤] وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت فى القول بالعصمة لنفسه ، وهذا بلا شك انحراف عقدى خطير لأن من جعل بعد الرسول معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها [٥] .

بل لم يكتفِ بهذا الأمر حيث كان يأمر بقتل كل من يشك فى عصمته، ولكى يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب (أعز ما يطلب) [٦] .

---

(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس .

(٢) انظر : النبوة والأنبياء للصابونى ص(٥٥،٥٦) .

(٣) انظر : الملل والنحل للشهرستانى (١/ ١٩٥) .

(٤) انظر : عقائد الإمامية ، محمد رضا ظافر . ص(٧٢) .

(٥ ، ٦) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص(٥٦٠) .

وأمرهم بقراءته بل حفظه ، وهذا بلا شك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته فى نفوس أصحابه ، ولقد أخطأ الدكتور عبد المجيد النجار عندما قال : وما قال به- أى محمد بن تومرت - من عصمة الإمام يخالف أيضا العصمة عند الشيعة بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغًا فيها للشروط التى يشترطها أهل السنة فى الإمام [١] ولقد ذكرت شروط أهل السنة فى الإمامة فى الكتاب الثانى من (صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى) إن عقيدة العصمة والمهدية التى غرسها ابن تومرت فى أصحابه سهلت له القضاء على خصومه ،ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين .

ثانيا : لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم ، حيث سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر ، وهذا قريب من مذهب المعتزلة[٢] .كما وافقهم فى نفى الصفات عن الله (سبحانه) حيث قال حينما تحدث عن صفات الله : (واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم ، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه ، والشريك ، والنقائض ، والآفاق ، والحدود والجهات ، ولا تجعلوه (سبحانه) فى مكان ولا فى جهة ، فإنه (تعالى) موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله فى جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقًا ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن) [٣] لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة فى الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله (سبحانه) حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابته لله فى الكتاب والسنة ولهذا سمى أصحابه بالموحدين[٤].

لأنهم فى رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله (سبحانه وتعالى) كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم[٥] .

---

(١) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ص(١٢٧) .

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٥٤٨) .

(٣) انظر: أعز ما يطلب ص(٢٠٤) .

(٤) انظر: عقد بيعة بولاية العهد فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ١٢ سنة ١٩٥٠م ص(٤٩) حسين مؤنس .

(٥) انظر: المراكشى المعجب ص(٢٧٦) .

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة فى تأويل بعض صفات الله (سبحانه وتعالى) حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذى حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعرى فى جميع العقائد ، كما ذكر المراكشى أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة فى كثير من المسائل ، حيث كان (جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية . . .) [١] أما المقريزى فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعرى أثناء وجوده فى بلاد العراق ، فلما عاد إلى بلاد المغرب ، وأخذ بتعليم أصحابه علَّمهم المذهب الأشعرى فكان ذلك سببا فى انتشار هذا المذهب فى بلاد المغرب [٢].

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعرى ، بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا فى إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها [٣] .

لقد وظف ابن تومرت المدارس الكلامية فى العقائد لخدمة أهدافه السياسية ،ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة ، واتهمهم بالتجسيم والكفر ، لأنهم فى زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله .

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار فى أعين رعيتهم ، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر ، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكافر . كما أن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق ويكافحون الكفر وطواغيته ، وأن معتقدهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم ، وأن الموت فى سبيل ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة ، فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان ، هما الروح المعنوية العالية

---

(١) المراكشى المعجب ص(٢٧٦)

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص(٥٦٤) .

(٣) انظر: سقوط دولة الموحدين ،ص(٣٩) .

والدافع المادى ، فانطلقوا كالإعصار يحطمون أعداءهم وينشرون مبادئهم [١] .

إن الدكتور عبد المجيد النجار فى كتابه «تجربة الإصلاح فى حركة المهدى ابن تومرت » والذى نشره المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، والذى قدم له الدكتور طه العلوانى يثنى على المنهج العقدى لابن تومرت ويلمز من طرف خفى منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة، حيث يقول: وفى المجال العقائدى حققت دعوة المهدى الهدف المرسوم حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذى كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها . واعتنقوا فهما جديدا يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله (تعالى) فى ذاته وصفاته وأفعاله ، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقته التقرير العقدى لابن تومرت فى أغلبه للمذهب الأشعرى ،وقد قامت رسائله المبسطة الموجزة فى العقيدة ،وخاصة رسالة «المرشدة » بالدور الكبير فى ذلك حيث أصبحت مقرراً للحفظ والدراسة فى كثير من مناطق المغرب على مر الأيام [٢] .

لقد استعمل الموحدون القوة فى فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الإفريقى واقتدوا بالمعتزلة فى زمن المأمون العباسى فى فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

لقد سئل ابن تيمية عن «المرشدة » : كيف كان أصلها وتأليفها ؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟

فقال: الحمد لله رب العالمين أصل هذه أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن تومرت الذى لقب بالمهدى وكان قد ظهر فى المغرب فى أوائل المائة الخامسة من نحو مائتى سنة وكان قد دخل إلى بلاد العراق وتعلم طرفا من العلم وكان فيه طرف من الزهد والعبادة ،ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب إلى قوم من البربر

---

(١) انظر: المصدر السابق ، ص(٣٩، ٤٠) .

(٢) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ص(١٢٨) .

وغيرهم جهالاً لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واستجاز أن يظهر لهم أنواعًا من المخاريق ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواما ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم ويشهدوا له بما طلب منهم مثل أن يشهدوا له بأنه المهدى الذى بشر به رسول الله ﷺ الذى يواطئ اسمه اسمه واسم أبيه وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً وأن من اتبعه أفلح ومن خالفه خسر ونحو ذلك من الكلام، فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره ثم إن أولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه ،وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعا وهى مشهورة عند من يعرف حاله عنه... [1] واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة يقرؤون القرآن والحديث كالصحيحين والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم ،واستحل أيضا أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات الذين فعلوا ذلك مع أهل السنة والجماعة .

ومذهب السلف وأئمتها :أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ،بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات ، فصفاته لا تشبه الصفات .

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٤٧٧) .

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل ، ونفى مجمل ، وأعداء الرسل الجهمية والفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفى مفصل وإثبات مجمل ، فإن الله (سبحانه وتعالى) أخبر فى كتابه بأنه : بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حى قيوم، وأنه عزيز حكيم ، وأنه غفور رحيم ، وأنه سميع بصير ، وأنه يحب المتقين ، والمحسنين والصابرين ، وأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وأنه رضى عن المؤمنين ورضوا عنه ، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم ، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، وأنه كلم موسى تكليمًا ، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد ﷺ كما قال : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] كما قال : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٣٢] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال : فيكشف الحجاب : فينظرون إليه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة** » وقد استفاض عن النبى ﷺ فى الصحاح أنه قال : «**أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ،ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته**» وأن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : «**هل تضامون فى رؤية الشمس صحواً ليس دونها حجاب** » ؟ قالوا : لا ، قال : « **فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر**» فشبه رسول الله ﷺ الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئى بالمرئى ، فإن العباد لا يحيطون بالله علمًا ، ولا تدركه أبصارهم . كما قال (تعالى) : ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام: ١٠٣] .

وقد قال غير واحد من السلف والعلماء : إن (الإدراك) هو الإحاطة ، فالعباد يرون الله (تعالى) عيانا ولا يحيطون به . فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله .

وقال (تعالى) فى النفى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾

[البقرة: ٢٢] وقال (تعالى): ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] وقال (تعالى) : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] فيبين فى هذه الآيات أن الله لا مثيل له ولا ند له ولا مثل له ولا سمى له، فمن قال : إن علم الله كعلمى ،أو قدرته كقدرتى ، أو كلامه مثل كلامى ، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتى ومحبتى ورضائى وغضبى ، أو استواؤه على العرش كاستوائى ، أو نزوله كنزولى ، أو إتيانه كإتيانى ، ونحو ذلك ،فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه تعالى الله عما يقولون وهو ضال خبيث مبطل بل كافر .

ومن قال : إن الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا مشيئة ، ولا سمع ولا بصر ،ولا محبة ولا رضا ، ولا غضب ، ولا استواء ولا إتيان ولا نزول ، فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، وألحد فى أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر ، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفى التشبيه بالمخلوقات، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل ، كما قال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيها .

ومما يبين ذلك : أن الله (تعالى) أخبرنا أن فى الجنة ماءً ولبنًا وخمرًا وعسلاً ولحمًا وفاكهة وحريرًا وذهبًا وفضة وغير ذلك .وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ، فإذا كانت المخلوقات فى الجنة توافق المخلوقات فى الدنيا فى الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق ، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه فى الاسم ؟!

والله (تعالى) قد أخبر أنه سميع بصير ، وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير ، وليس هذا مثل هذا ، وأخبر أنه حى ، وعن بعض عباده أنه حى ، وليس هذا مثل

هذا ،وأخبـر أنه رؤوف رحيم ، وأخـبر عن نبـيه أنه رؤوف رحيم ،وليـس هذا مثل هذا، وأخبـر أنه عليم حليم ، وأخبر عن بعض عبـاده بأنه عليم حليم ، وليس هذا مثل هذا، وسمى نفـسه الملك ، وسمى بعض عبـاده الملك ، وليس هذا مثل هذا . وهذا كثـير فى الكتاب والسنة ، فـكان سلف الأمة وأئمتـها كأئمـة المذاهب مثل أبى حنيفـة ومالك والشـافعى وأحـمد وغيـرهم على هذا :إثبـات بلا تشبيـه و تنزيه بلا تعطيل، لا يقولون بقول أهل التعطيل ، نفاة الصفات ، ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق ، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم . وأما المخالفون للرسل صلوات الله وسلامـه عليهم - من المتفلسفـة وأشباههم -فيـصفون الرب (تعالى) (بالـصفات السلبية) ليس كذا ، ليس كذا ، ولا يصـفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذى يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقًا للمـعدوم فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقـولون : إنه موجود ليس بمعدوم ، فـينافقون يثبـتونه من وجه ، ويجحدونه من وجه آخر ، ويقولون : إنه وجود مطلق ، لا يتميز بصفة .

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجودًا ، فإنه ليس فى الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين ، ولا يتمـيز عن غيره ، وإنما يكون ذلك فيمـا يقدره المرء فى نفسه ، فيقدر أمرا مطلقا ، وإن كان لا حقيقة له فـى الخارج ، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق (سبحانه وتعالى) موجودًا مباينًا لخلقه ، بل إما أن يجعلوه مطلقـا فى ذهن الناس ، أو يجعلوه حـالاً فى المخلوقات ، أو يقـولون : هو وجود المخلوقات ، ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقـات ، وخلقها فلم يدخل فيها فليس فى مخلـوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلـوقاته ، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة واتفق عليـه سلف الأمة وأئمتها ، فـالجهمية المعطلة نفـاة الصفات من المتفلسـفة والمعتزلة وغـيرهم ، الذين امتحنـوا المسلمين - كما تقـدم -كانوا على هذا الضلال ،فلما أظهـر الله (تعالى) أهل السنة والجماعـة ، ونصرهم ، بقى هذا النفى فى نفوس كثـير من أتباعهم ، فصـاروا يظهرون تارة مع الرافضة القـرامطة الباطنية ، وتارة مع الجهمية الاتحادية، وتارة يوافقونهم على أنه وجود مطلق ، ولا يزيدون على

ذلك .

وصاحب « المرشدة » كانت هذه عقيدته، كما صرح بذلك فى كتاب له كبير شرح فيه مذهبه فى ذلك ، ذكر فيه أن وجود الله (تعالى) وجود مطلق كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم .

ولهذا لم يذكر فى (مرشدته) الاعتقاد الذى يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة ، أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وأهل الكلام من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم ، ومشايخ التصوف والزهد ، وعلماء أهل الحديث ، فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله (تعالى) حى عالم بعلم ، قادر بقدرة، كما قال (تعالى) : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى ﴿ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول :

(إذ همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر-ويسميه باسمه-خير لى في دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ،فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به) .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله (تعالى) يرى فى الآخرة ، وأن القرآن كلام الله .

فصاحب (المرشدة) لم يذكر فيها شيء من الإثبات الذى عليه طوائف أهل السنة

والجماعة ، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبى ﷺ ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبى ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبى ﷺ فى أهل الكبائر .

فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة . ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك فى العقائد المختصرة ، بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله، وهو القول بأن الله وجود مطلق ، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم وهو قول قد اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة وأهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطاله .

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات ، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله (تعالى) ثبوتية، وزعم فى أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله ، والكلام الذى ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به ، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم . وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقا ، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها ، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها ،فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً ؟

وما ذكره من النفى يتضمن حقاً وباطلاً فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه ، وقد بسطنا الكلام [1] على ذلك فى كتاب كبير ،وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين ، فإن هذا مما أنكره المسلمون ،إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون ، ولا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد ، و(التوحيد) هو ما بينه الله (تعالى) فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، كقوله (تعالى): ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا

(١) الذى بسط الكلام العلامة ابن تيمية .

عَبَدتُّمْ * لا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١-٦] وقال (تعالى) ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] وقال (تعالى) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفى الصفات توحيدًا ، فمن قال : إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق . أو قال : إن الله يرى فى الآخرة أو قال : (أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك) لم يكن موحدًا عندهم بل يسمونه مشبهًا مجسما ، وصاحب(المرشدة) لقب أصحابه موحدين ، اتباعًا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيدًا ما أنزل الله به من سلطان ، وألحدوا فى التوحيد الذى أنزل الله به القرآن.

وقال أيضا فى قدرة الله (تعالى) : إنه قادر على ما يشاء، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلى الأسوارى وغيره من المتكلمين الذين يقولون : إنه لا يقدر على غير ما فعل ،ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير ، سواء شاءه أو لم يشأه . كما قال (تعالى): ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ٦٥] .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ :أنه لما نزل قوله (تعالى) : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال «أعوذ بوجهك» ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : «هاتان أهون».

قالوا : فهو يقدر عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما ، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها ألا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيجتاحهم ، أو يهلكهم بسنة عامة، وقد قال (تعالى): ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣، ٤] ، فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقال (تعالى):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: ١٣] . وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨] فالله قادر على ذلك ، فلو شاءه ، لفعله بقدرته ، وهو لا يشاؤه .وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبينا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل فى كتاب آخر .

فالعالم الذى يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك ،

فإنــه يعطى كل ذى حق حقـه ، ولا حاجـة لأحد أن يعـدل عمـا جاء فى الكتـاب والسنة، واتفق عليـه سلف الأمة وأئمتـها إلى ما أحـدثه بعض الناس مما قد يتـضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس فى خلاف ذلك ،وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقـتدى ولا يبتدى ،فإن الله (سبحانه) بعث محمـدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شـهيدًا ، وقال له : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨] وقال (تعـالى) : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] والنبى ﷺ علم المسلمين مـا يحتاجون إليـه في دينهم . الكتاب والسنة ، فـإن الله (تعالى) قـال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩] . [١] وهذا رد علمى رصين على «المرشدة» التى وضعها ابن تومرت لأصحـابه يبين للقارئ فسـاد ابن تومرت فى منهج العقائد وبـعده عن القرآن والسنة واعتماده لمناهج المتكلـمين من المعتزلة والأشاعرة ، وكان رد العلامـة ابن تيمية مليئًا بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة ،كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسنة رسـوله ﷺ وطريق السلف الصالح . إن فـحول علماء الكـلام وأئمة هذه المناهج من أمـثال أبى الحـسن الأشعرى (٣٣٠هـ) وأبى حامد الغـزالى (٥٠٥هـ)، والفخـر الرازى (٦٠٦هـ) ، وإمام الحرمـين (٤٧٨هـ) رجعوا إلـى مذهب أهل السنة والجماعة فى آخر حياتهم، ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم :

أ- أبو الحسن الأشـعرى : وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتـزال وشرع فى الرد على باطله ، يقـول فى كتـابه «الإبانة »:(فإن قـال قائل : قـد أنكرتم قول المعـتزلة والقدرية والجهمـية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعـرِّفونا قولكم الذى به تقولون ، وديانتكم التى بها تدينـون ، قيل له : قولنا الذى نقول به ، وديـانتنا التى ندين بها: التمـسك بكتاب ربنا (عز وجل) وسنة نبـينا ﷺ وما روى عن الصحابة والتـابعين ،

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/٤٧٦-٤٩١) .

وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل (نضر الله وجهه) ورفع درجته ، وأجزل مثوبته نحن قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون) [١]

ب - إمام الحرمين الجويني :(لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي ...)[٢] .

جـ- الإمام الغزالي : (إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات محمد ﷺ ،فما زادوا على أدلة القرآن شيئا وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية ، وترتيب المقدمات ، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ، ومنبع التشويش ، ومن لا يقنعه أدلة القرآن ، لا يقمعه إلا السيف والسنان ،فما بعد بيان الله بيان)[٣] .

د- وأما الفخر الرازي : فقد قال في وصيته : (ولقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله (تعالى) ويمنع من التعمق في إيرام المعارضات والمناقضات ... فلهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده ، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله (تعالى) به. . . والذي لم يكن كذلك أقول: ديني متابعة محمد سيد المرسلين...) [٤] .

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته ، والتي أحس فيها بالندم والتوبة :

---

(١) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ، ص(١٧) .

(٢) انظر: الحموية لابن تيمية ، ص(٧) .

(٣)إلجام العوام عن علم الكلام ، ص(٨٩، ٩٠) .

(٤) انظر: القائد لتصحيح العقائد ، ص(٧٤).

نهـاية إقـدام العـقـول عـقـال وأكـثـر سـعى العـالمين ضـلال
وأرواحنا فى وحـشـة مـن جسـومنا وحـاصـل دنيـانـا أذى ووبال
ولم نسـتـفد من بحثنا طول عـمـرنا سوى أن جـمعنا فيه قـيل وقالوا [١]

كذلك قال :

لقـد طفت فى تـلك المعـاهد كلهـا وسـيـرت طرفى بين تـلك المعـالم
فلـم أر إلا واضـعًـا كـف حـائر علـى ذقن أو قـارعًـا سـن نادم [٢]

إن ابن تومرت استخدم فى حربه ضد المرابطين أساليب متعددة ، منها : رميهم ظلمًا وزورًا بالتجسيم ، وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة ، والرافضة أساسًا لعقيدة دولة الموحدين الجديدة ، وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة، لسببين :

١- لأنه هو الذى فتح الباب فى بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامى ، ولم يقتصر الأمر على هذا ،بل تبنى -بصفته إمامًا مطاعًا -هذا الجانب ، فكان لسلطته الدور الأكبر فى انحسار مذهب أهل السنة ، وفشو مذاهب المتكلمين .

٢- تأليفه للمرشدة ، وقد تكلمنا عنها وهى مشتقاة من مذهب الأشاعرة ، ولم يقتصر الأمر على هذا ،بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس ، بحيث تدرس للعوام ، مما جعلها تشتهر بسرعة .

وفيما عدا ذلك فابن تومرت يبدو أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة ، ومذهب الشيعة وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لا يسميه إلا الإمام المعصوم ، وليس قربه من هؤلاء بأقل من قربه من الأشاعرة ، بل أخذ شيئا من الخوارج لا سيما فى التساهل فى الدماء ومقاومة السلطان الجائر ،حتى جعله ضربًا من الجهاد فى سبيل الله ، كما أخذ برأيهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغيرها ، وقد أدرك هذا التأثر علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب [٣] .

(١ ، ٢) انظر : إيثار الحلق على الخلق ، ص(٨) .

(٣) انظر : الدعوة الموحدية لعبد الله علام ، ص(١٥١) .

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب، فهى ليست أشعرية بحتة ، وليست معتزلة تقوم على الأدلة العقلية وحدها ، وليست خارجية ، كما ظنها علماء المرابطين ،وهى أيضا ليست رافضية فى كل اتجاهاتها ، بل هى مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ،و لهذا فأنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية ، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل [١] .

ومما لا شك فيه أن الخليط التومرتى فى الأفكار و العقائد كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، وخصوصا بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسى يحميها، وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب .

وقد تحدث المؤرخ المغربى السلاوى عن هذا الأمر بقوله : (. . . وأما حالهم - يعنى أهل المغرب - فى الأصول والاعتقادات ،فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانيًا ، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة، مقلدين للجمهور من السلف رضى الله عنهم فى الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر . . . واستمر الحال على ذلك مدة ،إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدى الموحدين فى صدر المائة السادسة) [٢].

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ، ولذلك نجده كفَّر من لم يؤمن بما يقول ، ويعتنق ما يدعو إليه ، واستباح دمه حتى لو كان من أتباعه ، كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها ، ولتأصيل هذا المبدأ فى نفوس أصحابه فقد صرح به فى أكثر من مناسبة ، كما ضمنه كتبه التى ألفها لهم، ورسائله التى كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا ، حيث جاء فى إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا (... على إهلاك الحرث والنسل ، والاعتداء على الناس فى أخذ أموالهم وخراب ديارهم ، وفساد بلادهم ، وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل وأخذ أموال اليتامى والأرامل ...) [٣] .

---

(١) انظر: الدعوة الموحدية لعبد الله علام ، ص(١٥١) .

(٢) السلاوى (١/ ١٢٦، ١٢٧) .

(٣) أعز ما يطلب ، ص(٢٦) .

ويذكر المراكشى أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله : (اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدى المعصوم فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم . . .) [١] .

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التى قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين ، فإن القارئ لكتاب (أعز ما يطلب) يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوى الباطلة ضدهم ، بل إنه قد أفرد فصولا خاصة منه لهذا الغرض[٢] .

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدى لها ،حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التى ألصقها بهم ابن تومرت ، وأنها مخالفة للحقيقة ، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية ، بل إنه كثف جهوده فى هذا الميدان، ومما جاء فى إحدى رسائله التى وجهها لهذا الغرض : (واعلموا وفقكم الله -يعنى أتباعه - أن المجسمين والمكابرين وكل ما نسب إلى العلم ، أشد فى الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله) .

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه فى حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية التى أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة ، والدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله على هدى من سنة رسول الله ﷺ ، فقد طعن فى عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لا تجوز طاعتهم ، ولا الولاء لهم ، بل يجب جهادهم ، ولهذا قاتل الموحدون المرابطين ، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم ، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى فى حربه للمرابطين منحى فكريًا عقديًا غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاهًا فكريًا واضحًا عند ابن تومرت وأتباعه المخلصين لدعوته، ومما

---

(١) من هذه الفصول على سبيل المثال (باب فى بيان طوائف الملثمين والمجسمين) .

(٢) المعجب ، ص(٢٨٢) .

لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذى حدده ابن تومرت من دولة المرابطين ، قد أثر على معنوياتها ، ثم على كيانها السياسى ، وذلك لأن كثيرًا من الناس قد تبنوه ، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة ، والسعى إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها [١] .

وتساهل ابن تومرت فى إراقة الدماء دونما مسوغ شرعى ، حيث كان لا يتردد فى ذلك ، حينما يرى أنه يخدم دعوته ، أو يحقق شيئًا من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض ، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت،حيث ألبسه لباسًا دينيًا حتى أصبح اتجاهًا دعويًا واضحًا فى دعوته ، ومن نماذج عمله فى هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ ابن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره فى كل وقت (... ومن لم يحضر أدبه فإن تمادى قتل ، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط بالمرة والمرتين فإن ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قتل، ومن داهن ... قتل) .كما ذكر كل من البيذق[٢] .وابن القطان [٣] ، وغيرهما من المؤرخين [٤] أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك فى ولائه لدعوته ، وقد ذكر لنا البيذق وصفًا لعملية التمييز التى قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ حيث قال : (فأمر بالميز فكان البشير[٥] يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين ، حتى امتاز الخبيث من الطيب ، ورأى الناس الحق عيانًا ، وازداد الذين آمنوا إيمانًا وذاق الظالمون النار ، فظنوا أنهم مواقعوها ، وما لهم عنها من محيص ... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل . .) [٦]

---

(١) انظر : الدولة الموحدية بالمغرب ص (١٨١)

(٢) انظر: أخبار المهدى ، تحقيق عبد الحميد حاجيان ص(٧١-٧٢) .

(٣) نظم الجمان ص(١٠٢-١٠٤) .

(٤) كابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن العماد ، والسلاوى .

(٥) هو أبو عبد الله بن محسن الونشريسى .

(٦) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ص(٥٦٨) .

إن من مقاصد الشريعة الحفاظ على النفوس وهذا المدعى للمهدية اعتدى عليها وأزهق أرواح الناس بالباطل ،وفى فعله هذا انحراف فى شرع الله واقتراف للكبائر والذنوب العظيمة.

وكانت مخادعة ابن تومرت للناس فى قضية التمييز باتفاق مع الونشريسى حيث طلب منه ابن تومرت أن يخفى علمه وحفظه للقرآن ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه .

قال الذهبى : (فلما كان عام تسعة عشر وخمسمائة وخرج يوما فقال : تعلمون أن البشير -يريد الونشريسى - رجل أمى ولا يثبت على دابة ، فقد جعله الله مبشرًا لكم، مطلعًا على أسراركم ، وهو آية لكم ، قد حفظ القرآن ، وتعلم الركوب ، وقال : اقرأ ، فقرأ الختمة فى أربعة أيام ، وركب حصانًا وساقه ، فبهتوا ، وعدوها آية لغباوتهم ، فقام خطيبا ، وتلا : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ، وتلا : ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١] ، فهذا البشير مطلع على الأنفس ، ملهما ، ونبيكم ﷺ يقول : (إن فى هذه الأمة محدثين ، وإن عمر منهم)[١] وقد صحبنا أقواما أطلعه الله على سرهم ، ولا بد من النظر فى أمرهم ، وتيمم العدل فيهم ، ثم نودى فى جبال المصامدة : من كان مطيعا للإمام ، فليأت ، فأقبلوا يهرعون ، فكانوا يعرضون على البشير ، فيخرج قومًا على يمينه ويعدهم من أهل الجنة ، وقومًا على يساره ، فيقول: هؤلاء شاكون فى الأمر ، وكان يؤتى بالرجل منهم ، فيقول : هذا تائب ردوه على اليمين تاب البارحة ، فيعترف بما قال ، واتفقت له فيهم عجائب ، حتى كان يطلق أهل اليسار ، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل ، فلا يفر منهم أحد ، وإذا تجمع منهم عدة ، قتلهم قرابتهم حتى يقتل الأخ أخاه . . .)[٢] .

---

(١) البخارى (٧/ ٤٢) رقم (٣٦٨٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٦) .

قال شعيب الأرناؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله ﷺ : (إن في هذه الأمة محدثين ، وإن عمر منهم) في الونشريسي بأنه ملهم : (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله ، وهو دال على سوء طويته ، وجراءته على الله ورسوله ، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان ، وسار يستلهم منه الحيل الماكرة ، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاء لسيده ابن تومرت الذى اتخذه مطية لأطماعه ، وتحصيل مرامه ، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التى اختص بها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه . .) [١] .

ويبدو أن الذى دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها ، وذلك بسبب ما تحمله من غلو وشطط ، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم ،خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته[٢] .

ولما حل ابن تومرت تينمل ، آواه أهلها وأعلنوا طاعتهم له ، لكنهم كانوا كثيرى العدد وافرى العدة ، وفى منعة بسبب حصانة مدينتهم ، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عددًا كبيرًا من الرجال، حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل [٣] . ولكى لا تحدث هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه ، أو تلقى معارضة عند الناس ، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق ويدعى المعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به ، ويدعو إليه ، فقد ذكر المؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم فى المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكانا للتنفس ، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم ،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٤٦) .

(٢) انظر: الدعوة الموحدية ، لعبد الله علام ص(١٩١، ١٩٢)

(٣) انظر: الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير (٦/٥٦٣) .

وليشهدوا له بما يطلبه منهم ،كأن يشهدوا بأنه المهدى الذى بشر به رسول الله ﷺ، وأنه هو الذى يملأ الأرض قسطًا وعدلاً ، كما ملئت جورًا وظلمًا ، وأن من اتبعه أفلح ، ومن خالفه خسر ، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه ، ويشهدون له بصحة ما يدعو إليه يعظم اعتقادهم فيه ، وتتأكد طاعتهم له ، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التى من أجلها قبروا يستبيح دماءهم حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكى لا يفشوا سره بعد ذلك [١] .

هذه صور وأمثلة للأعمال التى قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها ، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليه ، ولا شك أن هذا العمل يعد فى نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب ،حتى ولو كان المقتول شخصا واحدا ، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله ، بل مهديا معصوما ؟! [٢] .

وإنى لأستغرب من الدكتور عبد المجيد النجار فى تسمية كتابه (تجربة الإصلاح فى حركة المهدى ابن تومرت) وكان الأولى به أن يسميها تجربة الإفساد والتدمير فى حركة المهدى ابن تومرت . ومن العجب أن المعهد العالمى للفكر الإسلامى جعل كتاب الدكتور عبد المجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير ، وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات .

---

(١) انظر : الفتاوى (١١/ ٤٧٧) .

(٢) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ،ص(٥٦٩) . لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس فى مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .



المبحث الخامس

المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولا : المنهج التربوى :

جعل ابن تومـرت منهجـية الأمر بالمـعروف والنهى عن المنكر أصـلا فى دعوته ، ولذلك اجتهـد فى محاربة المنكرات التى انتشرت بين عـوام الناس بكل ما يملك من قوة ، ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلمـاء للتقليل من هيبتهم وإضعافهم، ليتسنى له أن ينشـر عقيـدته المختلطـة ، يؤصل ما يريد من الأحكام والأقـوال على النهج الذى يخدم أهدافه، ولذلك نجده عندما استقر فى منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين :

١- التربية العقدية الروحية :

استـغل ابن تومرت كون أتبـاعه من البدو والأمـيين الذين لا يستطيـعون أن يفهـموا الشريعة من أصولهـا المعتمدة وكتب لهم شيـئا فى العقائد والعبادات بعـضها باللسان البربرى ، وبنى مكانا للعبادة ولتعليم الطلبة على منهجه الذى رسمه وتربيتهم عليه .

قال ابن خلدون : (فنزل على قومـه وذلك سنة خمس عشرة وخمـسمائة ، وبنى رابطة للعبادة ، فـاجتمعت إليه الطلبة والقـبائل يعلمهم المرشدة فى التوحـيد باللسان البربرى) [١] .

والزم أتباعـه بحفظ شيء من القـرآن والحديث النبوى وتعلم المرشـدة واستيـعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام ، وتحـقيق أحكام العبادة ،وكان يوزع أصحابه فى حلقات كل عشرة يكون مسؤولا عليـهم أحد الطلبة النابهين ، ونهج منهج الشدة فى

---

(١) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧، ٢٢٨) .

التعليم والتربية ،وأحدث أحكامًا تبلغ إلى الضـرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون فى حضور الأوقات أو فى حفظ ما يطلب منه حفظه [١] .

وكان هـذا المنهج يسود جـميع أفـراد المجتـمع الجديد ،أمـا من برز فى العلم من أصحابه فألف لهم كتبًا ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلى على العقيدة التى جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة .

واهتم بالجانب الروحى واعتمد فى تربيته لأصـحابه على التزهيد فى متاع الدنيا ، والترغيب فى الآخرة ، والإعداد للجهاد فى سبيل الله طلبًا للشهادة ، ومما خاطب به أتباعـه فى ذلك قوله : (ولا تنازعـوا ولا تغتروا بـالدنيا فإنهـا وكل من عليهـا فان، واحذروا من مكرها وتقلب أحـوالها . . وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستـعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزًا عظيمًا ...) [٢] .

٢- التربية الاجتماعية :

وبعد أن حـرص على بناء الأفراد علمـيًا وروحيًا شـرع فى بناء المجتـمع الجديد على أسس من التعاون والتـناصر والتآخى ، وجعل أهل جبـال أطلس فى تينمل الأنصار، ومن جاءهم من غـيرهم المهاجـرين وقعَّد قـواعد فى هذا المجـتمع للتآخى والتـعاون وإغاثة المظلوم، واحترام الممـتلكات ، حمل عليها الكافة ووضع تعازير قاسـية لعقاب من يتعداها ، وربط المجتمع الجديد بوشائج القربى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاة بينها أوبطريق المـصاهرة المتبادلـة ، وخاطب قيادة مـجتمـعه الجديد بقـوله : (ما فى الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصـابة الذين عنى النبى ﷺ بقوله : «لا يـزال أهل المغــرب ظاهرين» [٣] وأنتم تفتحـون الروم وتقتلون الدجال ، ومنكم الذى يؤم

---

(١) انظر: نظم الجمان لابن القطان ، ص(٢٦،٢٧) .

(٢) ابن تومـرت : رسـالة إلى الموحـدين ، ص(٩) نقـلا عن كـتـاب عبـد المجـيـد النجـار ، ص(١١٦).

(٣) انظر: فتح البارى (١٣/ ٢٩٥) الطبعة السلفية .

بعيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها ، فعظمت فتنة القوم به . .)[1] .

ويصف الأمير عزيز فى كتابه «أخبار القيروان» المجتمع الموحدى :(لهم تودد وأدب وبشاشة ، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولا يخلون يوم من طراد ومثاقفة ونضال . . .)[2] .

ويصف ابن خلكان محمد بن تومرت فيقول : قبره بالجبل معظم ، مات كهلا ، وكان أسمر ربعة ، عظيم الهامة ، حديد النظر مهيبًا ،وآثاره تغنى عن أخباره ، قدم فى الثرى ، وهامة فى الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا ، أغفل المرابطون ربطه وحله ، حتى دب دبيب الفلق فى الغسق ، وكان قوته من غزل أخته رغيفًا بزيت ، أو قليل سمن ، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا ، رأى أصحابه يوما ، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بإحراق جميعه ، وقال: من أراد الدنيا ، فهذا له عندى، ومن كان يبغى الآخرة فجزاؤه عند الله ، وكان يتمثل كثيرًا :

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجت من الدنيا وأنت مجرد[3]

ثانيا: المنهج السياسى :

حرص ابن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ، ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر فى المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ،ويحملهم المسؤولية فى ذلك ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف ، وتوج أمره بنصح أمير المسلمين على بن يوسف ونبهه إلى انتشار المنكرات ووعظه وأغلظ له القول وقال له:(إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لى بها ،غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر

(١ , ٢) انظر سير أعلام النبلاء(١٩/ ٥٤٩) .

(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٥٤) .

وأنت أولى من يفعل ذلك ،فإنك المسؤول عنه ،وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة وقد ظهرت بمملكتك المنكرات ، وفشت البدع ، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه) [١] .

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن (خلع مبايعة على بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه ، وأعلن الجميع بخلعه) [٢] وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد ، وكانت خطته تسير فى سبل ثلاث : حملة نقدية للمرابطين ، وإقامة تنظيم سياسى ، وتعبئة نفسية للأنصار :

١- الحملة النقدية ضد المرابطين :

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين ، ومحاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخًا نهائيًا وترسيخ ولائهم له : (فكل من أطاعهم فى معصية الله وأعانهم على ظلمهم فى سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم ، وكل من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين ، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة وأعانوكم على جهاد الكفرة فخلوا سبيلهم وهم إخوانكم فى دين الله وسنة رسوله، وإن عاندوا الحق وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم) [٣] وشن حربًا نفسية على حكام وأمراء وأتباع المرابطين فى رسالته إليهم: (إلى القوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية والشرذمة الطاغية لمتونة ،أما بعد: قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ، ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم فى عافية ، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ،

(١) تاريخ الدولتين للزركشى، ص(١٢١) .

(٢) نظم الجمان لابن القطان، ص(٢٩) .

(٣) رسالة إلى الأتباع لابن تومرت ، ص(٢) .

ونكدر دياركم ويرجع العامر خاليًا ، والجديد باليًا ، وكتبنا هذا إليكم إعذارًا وإنذارًا، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضا) [١] .

وهكذا شرع ابن تومرت فى توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها جميع الناس من أهل المغرب موالين أو معادين ، وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم ، وتضخيم أخطائهم ، تنفيرًا للنفوس منهم وتمهيداً لنزع ولائهم ثم لمعاداتهم ، وإمعانًا منه فى تهجينهم وتشويه صورتهم اخترع الألقاب المشينة ورماهم بها كـ (المجسمين) و (الزراجنة) تشبيها لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان ، لأنهم بيض الثياب سود القلوب و (الحشم) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم [٢].

٢- التنظيم السياسى :

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسيًا بحيث يضم وينظم ويرتب جميع أفراد الدولة ،حتى يضمن ويعمق ولاءهم للدعوة ويمكن مراقبتهم والإشراف عليهم، ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه فى طبقات متباينة فى عددها ، مختلفة فى واجباتها الملقاة على عاتقها ، وقد بلغت طبقات الموحدين التى صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة، كانت الطبقات الثلاث الأولى أهم هذه الطبقات ، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها ، من مشايخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات ، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية ،وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هى معالجة أمور الموحدين وتسيير دفة الحكم . أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية [٣] وقد جعل الدكتور عبد المجيد النجار هذه الطبقات فى أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التى أنيطت بعهدتها :

---

(١) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموشية لابن الخطيب .

(٢) انظر: نظم الجمان لابن القطان ، ص(٨٥) .

(٣) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص(٤٠) .

الجهاز الأول : جهاز سياسى ، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر : مجلس العشرة ، ومجلس الخمسين ، ومجلس السبعين .

الجهاز الثانى : جهاز علمى ثقافى ويشتمل على طبقة الطلبة ، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم ، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة .

الجهاز الثالث : جهاز عسكرى ، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة والغزاة .

والجهاز الرابع : جهاز شعبى ، يضم مجموعة من القبائل وهى : هرغة ، وأهل تينمل وجدميوه ، وجنفيسة ، وهنتانة ، وأهل القبائل [١] قال ابن الخطيب : (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا فى سفر ولا فى حضر ، لا ينزل كل صنف إلا فى موضعه ، لا يتعداه ، فانضبط مراده) [٢] .

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضمانا للمزيد من النجاح واجتنابًا للعفوية والفوضى ،وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهامًا ثلاثًا: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسى للجماعة الناشئة ، وهى التى تكفل بها الجهاز الأول . ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادئ العقدية التى قامت عليها الدعوة ، وهى التى تكفل بها الجهاز الثانى ، ومهمة دفاعية بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهى التى تكفل بها الجهاز الثالث .

ويبدو أن الجهاز الرابع وضع لحصر الأتباع وإحكام ارتباطهم ، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية ، فيقوم بدور ما نسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة .

وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة فى قوله : (أهل الجماعة للتفاوض والمشورة . . وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقى ، وسائر القبائل لمدافعة العدو) [٣] .

---

(١) انظر: تجربة الإصلاح فى عهد المهدى ابن تومرت ، ص(١٢٠، ١٢١) .

(٢) الحلل الموشية لابن الخطيب ، ص(٨٠) .

(٣) الحلل الموشية لابن الخطيب ، ص(١٢٢) .

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم فى فكر محمد بن تومرت ولذلك أسس بديلا سياسيا اجتماعيا تربويا ليحل محل النظام السياسى والاجتماعى والتربوى فى دولة المرابطين [١] .

لقد أظهر ابن تومرت فى منهجه السياسى ملكة تنظيمية كبرى ، وقبض بيد من حديد على أنصاره ، فأعطى مجلس العشرة سلطانا كبيرا وحكمهم فى الناس ، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل ، وسيطر بواسطتهم على القبائل وجعل الجميع عيونًا له بعضهم على بعض ، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء ، مما جعل ابن تومرت مطلعا على أمور مجتمعه الجديد وأصبح مطاعاً ومرهوباً فى جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقا وتخاف منه خوفًا شديدًا . . . [٢] .

٣-تعبئة الأنصار:

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جدا حيث إنه استهدف دولة عرفت بجهادها فى الصحراء الكبرى وفى إسبانيا ، وكان لها الفضل - بعد الله- فى توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس ،واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة ،ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم أنهم على درب الحق وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد فى تعبئته لأنصاره على :

أ - غرس الثقة فى نفوسهم وبأنهم على الحق :

ولذلك خاطبهم بقوله : (ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله ﷺ : «لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله ، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى ابن مريم ، ولا يزال الأمير فيكم إلى قيام الساعة .). [٣]

وحرص ابن تومرت على رد كل ما يقع فى نفوس أصحابه من الوهن من طعون

(١)انظر: تجربة الإصلاح فى حركة المهدى ابن تومرت ،ص(١٢٢) .

(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ، ص(١٨١) .

(٣) المعجب للمراكشى ص (٢٥٦, ٢٥٧) .

المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التى أصبحوا من أنصارها ، فكان لا يكلّ ولا يمل فى تفنيد كـل ما وجهـه المرابطون من حملة مضـادة ضد دعـوته البدعيـة، وقاد ابن تومرت حـملة دعائية مـضادة ومن ذلك ما خـاطب به أصحابه قـائلا : (واعلموا - وفقكم الله- أن المجـسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم أشـد فى الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى مـا يقولونه ، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسـوله ، وما نسـبوكم إليه من الخـلاف لله والرسول فـذلك خب وغش للمسلمين وخـيانة لله ورسوله ... فانتبهوا - وفـقكم الله - لهذه الحيل التى يحتالون بها على عـيشهم ودنياهم، حـتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسـوله حتى عكسوا الحـقائق وقلبوها وحـرفوا الكلام عن مواضعـه . ونسبوا من دعـا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة إلى الخلاف وسموه مخالفًا ببغيهم ...) [١] .

لقد استطاع ابن تومرت أن يقنع أتباعـه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتى تقيم أمر الله وتجـاهد فى سبيله ، وشـحن بذلك النفوس ، وأقنع العقـول ، وأخذ خطوة أخرى لـتعـزيز مكانته وبسط هيـمنته عـلى أتباعـه وزعم بأنه المهدى المنتظـر والإمام المعصوم .

ب- الثقة بالإمام :

وسلك مسـالك متـعددة من أجل إقناع أصـحابه وأتباعـه بأنه المهدى المعـصوم ، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامـة والتدين والإخلاص ، فزهد فى متاع الدنيا من مأكل وملبس ومسكن ، ثم جـعل ثقة أنصاره به ذات اتجاه عقـدى بحيث تمنع نفوس الأتباع من الـضعف والتراجع أمـام أوامره وتوجـيهاته ، فـأقنعهم بأنه الإمـام المنتظر والمهدى المعـصوم وبأن نسبـه يرجع ضاربًا فى أعمـاقه فى آل البـيت المطهر ، وبذلك استطاع بهذه الـتعاليم المتعلقة بـالإمامة أن يرسخ ثقة أتباعـه به ، وأن يضمن ولاءهم الدائم ، وطاعتهم المطلقة [٢] ، ولم ينس أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء

(١) رسالة إلى الأتباع ، ص(٤) وأيضا الرسالة المنظمة ، ص(١٠٨) .

(٢) تجربة الإصلاح فى حركة ابن تومرت ، ص(١٢٧).

دولة لهم ، فهم معظم سكان المغرب الأقصى ، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه ، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة ،وأقنعهم بأنهم القيادة المثلى لهذه القبائل[١] .

٤- المنهج العسكرى :

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه ، أصدر إنذاره وتهديده إلى المرابطين : (قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ،والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أديتموها كنتم فى عافية ، وإلا فأستعين بالله على قتلكم ...)[٢] .

وكانت هذه الخطوة تمهيدًا منه نحو قتال المرابطين ، وحرصًا على ترسيخ عقيدة الجهاد وحببه لجنوده ، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم ، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة (فالدين الذى جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا يزول ، حتى ينفخ فى الصور ، والسنة التى قاتلوا عليها هى هذه لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، لا عذر أحد فى تركه ولا حجة له عند الله فإنهم سعوا فى هدم الدين وإماتة السنة)[٣] .

ولما بذل ابن تومرت جهده فى إعداد أصحابه إعدادًا عقديًا جعل يعد العدة المادية ، فجعل يجمع المقاتلين متخيرًا الأقوياء الصادقين وتخلصّ من كل من شك فيه فى صفوفه . ومن أعالى جبال الأطلس واصل ابن تومرت حملته الإعلامية التشويهية على المرابطين واصفًا إياهم بأقذع الأوصاف ،فاضطر الأمير على بن يوسف أن يسل الحسام لإخماد تلك الفتنة ، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه ،إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال . واستغل ابن تومرت ذلك

(١) انظر: معالم فى تاريخ المغرب ، د. حسين مؤنس ، ص(١٧٧) .
(٢) الحلل لابن الخطيب ، ص(٨١) .
(٣) الرسالة المنظمة ، ص(١٠٥) .

وجعلهـا منة من الله عليـهم ،وما فعلـه يتنان فى حقـيقـته هروب وخـوف من لقاء الموحدين . وتعـاظم خطر ابن تومرت واستـمر على بن يوسف فى إرسال الحـملات لاستئصـال شأفته، ولكن جميعـها كان مصيرها الفشل والهـزيمة ومن هذه الحملات حملة أبى إسحاق إبراهيم الذى وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قـتال، وتعـقبتـهم القوات الموحديـة وقتلت أعدادًا كـبيرة منـهم وغنموا حملتهم ، وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمـة جيشه ، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلى اللمتونى الذى أضاف هو أيضا هزيمة إلى سجل الهزائم المرابطية على يد الموحـدين [١] ، وكان ابن تومرت يبشر أصـحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فـيقول لهم : (انظروا إلى أعـدائكم ، واعلموا أن كل ما جـاؤوا به من خيل وعـدة ، إنما هو هدية من الله (تعـالى) لكم ، على غـربتكم وفقـركم ، فـأعطاكم وأغناكم) [٢] وكان ينزل فى المعارك بنفسه ،ويبدو أن ابن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية ، فقد تمرس بالقـتال فى الميدان وتعرض فى كثير من الأحـيان إلى السقوط فى خضم المعـركة ،كما تـعرض إلى جراحات السـيوف، وكثـيرًا ما كان يشـير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقى العالية وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء ، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة .

ولكى يكون ابن تومرت وعسكره فى منعة من مباغتة الجيش المرابطى اتخذ عاصمة له مقـرًا منيعًـا هو مدينة تينمل التى قـال ابن الخطيب فى وصف منعتـها : (لا يعلم مـدينة أحصن منهـا ، لا يدخلها الـفارس إلا من شـرقهـا ، وهو الطريق إليهـا في مراكش، المصنوعـة في نفس الجبل ، تحت راكـبها حافـات وفوقه حـافات ، وفيـها مواضع مصنوعة من الخشب ، إذا أزيلت منها خشبة لم ير عليها أحد) [٣] .

لقد كانت لتلك الانتصـارات المتوالية التى حققها المـوحدون أثرها الكبير فى ذيوع

---

(١) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد ، ص(١١٣)

(٢) تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين د. حمدى عبد المنعم ، ص(١٠١) .

(٣) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص (١٢٩).

عقيدة المهدى ، وظن كثير من الناس بأنه ابن تومرت وبذلك كثر أتباعه ، وعظمت ثقته بنفسه وقوته ، فأرسل إلى على بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها تهديد ووعيد ، فيما يلى نصها : (من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله ،محمد بن عبد الله وفقه الله- إلى المغرور بدنياه على بن يوسف ،أما بعد ،فإن ما وجدنا لأكثركم من عهد وإن وجدنا أكثركم لفاسقين ، لم تخشوا عقوبة رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين ، الذين غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعون ، فإذا هم أخسر الأخسرين ، وقد أمرنى الله بإدحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس إلى اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين ، لا تغتروا فإن المسلمين إليكم قادمون ، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله ،وقد جاء فى التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا إله إلا الله وأنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب،وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فيء، وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ،وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن) [1] لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين .

إن الذى يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية فى الأندلس وتعبث بين الفينة والفينة فى أحواز طليطلة وتتجلوزها فى بعض الأحيان نحو الشمال والمشرق والمغرب.

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت فى صنع هذه الهزائم ، منها الاستراتيجية العسكرية التى اتبعها ابن تومرت فى قتاله مع المرابطين ، وقد ساعدته وعورة أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة . كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج لوقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة ،بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها ، وهذا عامل مهم من عوامل

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، ص(١١).

نصر الجيوش ، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدى ،فى الوقت الذى كانت فيه معنويات الجند المرابطى منهارة ، فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف ، فالجندى المرابطى كان فى حيرة ،فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته ، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه ، بعد ما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وأنه هو المهدى . كل هذه الأمور كانت تجعل من الجندى المرابطى مضطرب النفس مترددًا فى إقدامه على قتال ابن تومرت ، ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام [١] .

وازدادت ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيقه تلك الانتصارات ، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول فى طاعته ، وإما القتال ،مهددًا ومتوعدًا من عدم الانقياد له ، ومما جاء فيها : (إلى القوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد : فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ،وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فإن أديتموها كنتم فى عافية وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحوا آثاركم ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خاليًا والجديد باليًا ، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار ، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضا)[٢] .

وتعتبر هذه الرسالة مؤشرا على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم،وقد ارتكزت استراتيجيته فى هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها فى معارك فاصلة .

فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره ،

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص(١١٤) .

(٢) انظر : دولة المرابطين ، ص(١١٥) .

مكبدة إياها خسائر فادحة .

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك فى ولائهم له ، فأوعز فى عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسى - الذى كان يظهر البلاهة بينما هو عالم - أن يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت ، وكان الونشريسى باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ أسماء من شعر أنهم يشكون فى مهدية ابن تومرت ، وكان أيضا ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين فدفعها إلى الونشريسى فحفظها ، وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسى (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علما وحكمة ، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهدية . ثم قال :اعرض عليَّ أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار ، وقد أنزل الله (تعالى) ملائكته إلى البئر التى فى المكان الفلانى يشهدون بصدقى ، وكان المهدى قد وضع فيها رجالا لهذا الغرض ، فسار المهدى وأتباعه إلى تلك البئر ، وبعد أن وقف على رأسها قال : (يا ملائكة الله إن عبد الله الونشريسى قد زعم كيت وكيت) فقال من فيها : صدق ، فصدقه الناس ، ثم أمر بطمر البئر بحجة إنها مقدسة . وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها ،فهل هذا عمل من يخاف الله ويخشى عقابه؟ .

ونادى ابن تومرت فى أهل الجبل للحضور للتمييز ، وأخذ الونشريسى يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول : هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر [١] ، فيقول : هذا من أهل الجنة . ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل : إنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفا ، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره [٢] .

(١) الغمر : هو الغير مجرب .

(٢) انظر : ابن خلكان (٦/ ٥٢، ٥٣) .

وعلم ابن تومرت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين ، فسرهم ذلك وسلاهم على أهلهم ، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم ، وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التى قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف ، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية . فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التى أقامها المرابطون وحصّنوها بالقلاع ، على أى حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعى القبائل إلى تينمل ليحشدهم ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود .

وتوافدت القبائل على ابن تومرت وقد استعدت للقتال وتجمع منهم نحو أربعين ألفا منهم الفرسان والغالب منهم رجالة ، وقدم عليهم الونشريسى ووجههم نحو مراكش فبدؤوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ/١١٢٧م . وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم .

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يوما على أرجح الروايات [١] وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين .

ومن المعارك الحاسمة التى دارت خلال فترة الحصار الموقعة التى خرج فيها أمير المسلمين على بن يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق ، وتشتت شمل جيشه ، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادى أم الربيع .لقد أخذت الغيرة القائد عبد الله بن

(١) انظر: دولة المرابطين ، ص(١١٨) .

همشك الذى كان مع أصحابه الأندلسيين المائة محصورا داخل المدينة ، فخاطب أمير المسلمين قائلا : (ما نعير إلا بالمقام تحت الحصار) . فأوضح إليه أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارى ، فأكد إليه ابن همشك بأنه يعرفهم لوجود نخبة منهم فى الأندلس ، وبين لأمير المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافى من الجند وخاصة الرماة ، وأن البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد ، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاث مائة فارس ليخرج بهم فسمح له. وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده لتتلاءم مع طبيعة المعركة المقبلة ، فرأى أن يقصروا رماحهم ، ثم برز للموحدين ،فما انتصف النهار حتى دخل بثلاث مائة رأس من رؤوس المصامدة ،فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار[1]

وأرسل أمير المسلمين على بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالبًا المدد والعون ، فجاءت إليه النجدات من كل صوب ، وكان أعظمها القادم من سجلماسة بقيادة واليها وانودين بن سير ، وخرج على بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات ، وقدم أبو محمد بن سير قائدا عاما للقوات المرابطية ، وقيل: قدم الزبير ابن على بن يوسف [2] .

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسى منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسنان . فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه ، فرد أمير المسلمين عليهم محذرًا إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة ، وهكذا لم يستجب أى طرف للآخر .

وأخذ الونشريسى القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة . وما هى إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان فى معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب، قتل فيها فى بداية النهار الونشريسى ، فخلفه عبد المؤمن فى قيادة الجيش . ولما رأى المصامدة كثرة

(١) انظر: دولة المرابطين ،ص(١١٩) .

(٢) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ، ص(١٨٨) .

المرابطين وقـوتهم أسندوا ظـهورهم إلى بسـتـان هناك ، والبسـتـان عندهم يسـمى البحيرة[١]، وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ،ففر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربعمائة ما بين فارس وراجل ، وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريسى بين جـثث القتلى فلم يعثروا عليـها ،لأن عبد المؤمن كـان قد وارها فورا فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء [٢] .

وتابع عـبد المؤمن مـع من نجا من القـتل سـيره نحـو تينمل . عندمـا وصل إلى هيلانة[٣] استعاد أنفاسه وحشد جنوده ، وأعاد الكرة على مراكش فهُزم أيضا وقُتل من أتباعه نحو من اثنى عشر ألفا ، فعاد أدراجه مع خمسين رجلا من أتباعه إلى تينمل، وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التى حلت بهم فى البحـيرة ، فسألـه ابن تومرت عن عبد المؤمن ، فـقال : هو حى ، فرد مـعزيا: الأمر باق ، وأوصاهم بعدم الجزع .

واستثمر المرابطون فـوزهم فى البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جـيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم : سير بن ورابيـل ، ومسعود بن وزتيغ ، ويحيى بن سير ، ويحيى بن كـانجان إلى تينمل للقـضاء على الموحدين فى مـعقلهم الحصـين . وتقابل الطرفان بموقع يقـال له : أبكر متاع بنى كـوربيت ، إلا أنة لم يحدث قتال بينهـما . ويعلل البـيـذق[٤] . ذلك بأن المرابطين قـد حلت فى قلوبهم الرهبـة من جمـوع الموحدين التى تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا إلى مراكش.

---

(١) انظر: الكامل فى التاريخ (٦/ ٥٦٥) .

(٢) ابن خلكان (٥/ ٥٣) .

(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش .

(٤) أخبار المهدى ابن تومرت ،ص(٣٩-٤١) .

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت ، فالمهدى مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله؟!

وترتب على هذا السؤال إعادة النظر فى عقيدة المهدى، وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم فى الجنة ، فقد بقيت رواسب الشك فى مهديته تساور نفوسهم . عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته .

فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفسًا فى قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا : (قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التى نلنا بالشهادة ،فجدوا فى قتال عدوكم فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدى صاحبكم حق) ، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة . ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد فى قتال أعدائهم ، وطلب منهم إن كانوا فى شك مما يقول أن يذهبوا معًا إلى قبور قتلاهم فى معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم ، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التى نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين ، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون . ولما وصل رفع صوته فى المقبرة قائلا : يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله (عز وجل). فقالوا : وجدنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر ، إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت . عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدى ، وبدلاً من أن يُخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التى كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم ، لأنه خشى أن يخرجوا فيذيعوا سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه [1] .

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص(١٢٢) .

فهذه صورة مخذية من أعمال ابن تومرت استحل بها الكذب على الناس وخداعهم والتخلص من المخلصين من أتباعه بمجرد أن قضى منهم حاجته ، إن هذه الأعمال فى نظر الإسلام تعد من كبائر الذنوب ،فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله، بل مهديًا معصومًا ؟!

ورأى ابن تومرت فى قرارة نفسه أن الهزائم التى منيت بها قواته ما هى إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التى سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة ، فتفاعلت هذه الأحداث فى نفسه لتورثه المرض الذى أودى بحياته بعد فترة وجيزة .

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤هـ ، ١١٣٠م [١] وتذكر المصادر الموحدية أنه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة ، وأهل الخمسين ، فلما حضروا أخذ يعظهم واعدًا إياهم بالنصر على المرابطين ، ومحذرا إياهم من الفرقة والتناحر ، وأمَّر عليهم عبد المؤمن ، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعا لربه [٢] .

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلما إياهم بأنه راحل إلى ربه فى هذه السنة . ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن على للصلاة وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير ، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينمل .

وعندما توفى ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن على وصلى عليه ، ودفنه سرًا بمسجده كما أوصاه ،وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا فى عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن على [٣] .

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من

(١ ، ٢) انظر : دولة المرابطين ، ص(١٢٢) .

(٣) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨١) .

هزيمة نكراء فى موقعة البحيرة ، ولكنه قد نجح فى ترسيخ دعـوته فى قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته ، وأطاعوه ولو فى قتل أبنائهم ، وهذا ما حصل فعلا فى عملية التمييز التى تقشعـر لهولها الأبدان ،حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة .

لقد كـان ابن تومرت شـخصيـة فريدة فى التاريخ ،لما امـتاز به من صـفات المكر والدهاء واستـغلاله كل الفرص ، واسـتخدامـه كل الأساليب من أجل تحقـيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيمـا ومرشدا روحيا لها ، وليدفع بقبيلته مـصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف .

واجتمعت فى شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع فى شخصية قيادية فى ذلك الوقت . فقد كـان على قسط وافر من العلم ، وقد ساعده ذلك على الاسـتفادة من كل الأفكار المطروحـة فى العـالم الإسلامى ،لينـتقى منهـا مـا يلائم دعوته الجـديدة ويساعد على تقـوية مركزه بين أتباعه . كـما مكنه تكوينه العلمى من أن يرد على أى انتقاض أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم ، فيساعده فى ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخـصوم ، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأمـلى عليها ما يريد فانقادت له مبهورة .

لقد ساعد ابن تومرت فى تحقيق أهدافه سذاجة المجتمع وجهله ، وما عششت فى ذهنه من الأسـاطير والخرافـات حتى عـاد غريبا عـن منهل الإسلام الصافـى ، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهـام هؤلاء أمور دينهم فقد بقى قطاع كبير منه متمسكًا بعلائق الجاهلية ،مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت ، فأملى عليهم تعالـيمه البـعيـدة كل البعـد عن منهج أهل السنة والجمـاعة ،فـتقبلوهـا دون نقد أو تمحيص، وقـدموا أرواحهم دفاعًا عـنها بعد أن أوهمهم أنه المهـدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد ما ملئت جورًا .

ومن افتراءات ابن تومرت :أنه ادعى أنه مأمور بنوع من الوحى والإلهام ،وأنه من لم يؤمن بمهديته فهو كافر ، وألف عـقيدة أوجب حفظها على أتباعه [1] ، وأحـدث

(١) انظر: دولة المرابطين ، ص(١٢٤) .

فى أذان الصبح (أصبح ولله الحمد) ، وتطاول وادعى أنه يعلم الغيب [١] .

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها ، لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية بهدم عقيدته بمعاول الحق والحجج والبراهين، وقد بينت ذلك[٢].

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته أن ما كاد يمضى على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلنا فى مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدى ابن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع ، كما أسقطه من السكة ومن الخطبة ، وقال : لا ندعوه بالمهدى ، وكتب بذلك إلى الآفاق [٣]. وبناء على هذا الإعلان حذف اسم (المهدى) من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ (القرآن حجة الله) فى المركز ، وفى الهامش نقش اسم (خليفة الموحدين المأمون) [٤] إن عقيدة أهل السنة والجماعة الضاربة فى أعماق أهالى الشمال الإفريقى حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧] .

إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين ، تلك الدولة التى قامت على تعاليم الإسلام النقية ، واتخذت من جهاد النصارى فى الأندلس هدفًا أسمى لوجودها ، فما أفزعهم من مقر حكمهم فى مراكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق ألفونسو السادس وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون .

---

(١) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ، ص(٢١٦) .

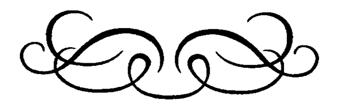
(٢) انظر: الفتاوى (١١/ ٤٩٢) .

(٣) انظر: دولة المرابطين ، ص(١٢٥) .

(٤) مسكوكات المرابطين والموحدين فى شمال إفريقيا والأندلس ، ص(١٩١) رسالة ماجستير .

ولكن ما إن بدأت ثورة ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس فى الأندلس ، فأخذ أمير المسلميـن يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشـفين بن على لمـقارعـة الموحدين ، وأدى ذلك إلى ازديـاد ضغط النصـارى على المسلمين فى الأندلس ، وبدؤوا يلتـهمون المدن الأندلسية الواحـدة بعد الأخرى، فى هذا الوقت استطاع ابن تومرت - بواسطة المؤمنين بمهديته - أن يطيح بدولة المرابطين، فـأثلج ذلك قلوب النصـارى الذين أدركـوا أن الخـلاص من الوجـود الإسـلامى فى الأندلس أضحى وشيكا[1] .

إن رجال الإصـلاح فى تاريخنا الإسلامى هم الذين سـاروا على منهج أهل السنة والجمـاعة فى العقائـد والعبادات والأخلاق والمعـاملات ، أما الذين كـذبوا وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ، وكفروا المسلمين، الأوْلَى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد ، وإنها لمغالـطة تاريخية وخيانة للأمانة العلمية عندمـا نضفى على المفسدين ثوب الإصلاح ونجعلهم من زعـماء الأمة ومن قادتها العظام . إن حـركات الإصلاح فى التاريخ الإسـلامى هى التى التزمت بكتـاب ربها وسنة نبـيها ، واسـتوعبت فـقه التمكين وأخذت بأسبابه ، وحرصت على تنفيذ شروطه ،جديرة بالدراسة الواعية من أجل إخراج فقـه للعاملين فى مجال الدعـوة الإسلامية ، وإنها لكفـيلة بربط الحاضر بالماضى وجديرة بإثراء واقعنا بفقه بناء الدول وأسباب النهوض وعوامل السقوط وكيفية الأخذ بأسباب النجاح واتقاء المزالق .



(١) انظر: دولة المرابطين ، ص(١٢٦) لقد استفدت من كتـاب «تجربة الإصلاح فى حركة المهدى ابن تومرت »للأستاذ / عبد المجيد النجار ، ودولة المرابطين للأستاذ سلامة محمد الهرفى فى مبـحث المنهج التربوى والسـياسى والعسكرى عند ابن تومـرت ،وغيرهـما من المراجع وهذا للأمانة العلمية .



الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده



المبحث الأول

عبد المؤمن بن علي

أولا : اسمه ونسبه :

عبد المؤمن بن على بن علوى ، سلطان المغرب الذى يلقب بأمير المؤمنين ، الكومى ، القيسى ، المغربى .

ولد بأعمال تلمسان ، وكان أبوه يصنع الفخار [١] .

قيل: إنه قال - أعنى عبد المؤمن : إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، ولكومية علينا حق الولادة ، والمنشأ فيهم ، وهم أخوالى [٢] .

وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت ، قالوا : قسيمه فى النسب الكريم ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربعمائة [٣].

وصفه الذهبى فقال : (وكان أبيض جميلا ذا جسم عمم [٤] ، تعلوه حمرة ، أسود الشعر ، معتدل القامة ، جهورى الصوت ، فصيحًا ،جزل المنطق ، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة ، وكان فى كبره شيخًا وقورًا، أبيض الشعر ، كث اللحية،واضح بياض الأسنان ،وكان عظيم الهامة ، طويل القعدة شثن الكف ، أشهل العين).

(١ ، ٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٦) .

(٣) نفس المصدر السابق (٢٠/ ٣٦٧) .

(٤) عظم الخلق فى الناس وغيرهم .

أ- لقاؤه بمحمد بن تومرت :

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتانى صادف عبد المؤمن، فحدثه ووانسه ، وقال : إلى أين تسافر ؟ قال : أطلب العلم . قال : قد وجدت طلبتك . ففقهه ، وصحبه ، وأحبه ، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النُّبل (١) . وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط

السن ضاحكة والكف مانحة ... والنفس واسعة والوجه منبسط (٢)

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه : صاحبكم هذا غلاب الدول ، لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ،ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة ، وعلمه ودربه ،وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن فى كل ما يقول ،وأن يقتدوا به فى كل ما يفعله ، وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطرى بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب ، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكى تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة فى عالم المغرب والأندلس (٣) .

ب- بيعته :

بايع أصحاب ابن تومرت المقربين عبد المؤمن بن على فى شهر رمضان ٥٢٤هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة :الخاصة ، لأن موت ابن تومرت ظل فى طى الخفاء أكثر من سنتين ،ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة ، قيل :فى ٢٠ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ وقيل ٥٢٦ وذلك بجامع تينمل . وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم ، لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٧،٣٦٣) .

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٣) .

(٣) انظر: موسوعة المغرب العربى للغنيمى (٣/ ٢٠٣ ، ٢٠٤) .

وتقديمه إياه فى الصلاة ، وإلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته [١] ، وقد ذكر الذهبى خطبة ابن تومرت قبل وفاته أشار فيها إلى تولية عبد المؤمن من بعده (استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة : عمر أرتاج وعمر إينتى ، وعبد الله بن سليمان ، فحمد الله ، ثم قال: إن الله (سبحانه)، وله الحمد منَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصكم بحقيقة توحيده ، وقيض لكم من ألفاكم ضلالا لا تهتدون، وعميا لا تبصرون ،قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، فهداكم الله به ونصركم ، وجمعكم بعد الفرقة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ،ذلك بما كسبت أيديهم ، فجددوا لله خالص نياتكم ، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكى بهم سعيكم ، واحذروا الفرقة وكونوا يدا واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم ، وإن لم تفعلوا شملكم الذل ، واحتقرتكم العامة وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ،وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا ،بعد أن بلوناه فرأيناه ثبتًا فى دينه، متبصراً فى أمره ، وهو هذا - وأشار إلى عبد المؤمن -فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه ،فإن بدل ففى الموحدين بركة وخير ، والأمر أمر الله يقلده من يشاء . فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت)[٢] .

وقال ابن خلكان :[٣] ما استخلفه بل أشار إليه ، وما قاله الذهبى نقله عن عبد الواحد المراكشى [٤] .

كما أن هناك سببًا آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن، ألا وهو أن عبد المؤمن كومى وليس من المصامدة ،وهذا يجعل حدًا لتطلع زعماء القبائل إلى هذه

(١) انظر: تاريخ الإسلام د. حسن ابراهيم (٤/ ٢٠٨) .

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٩) .

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٣٩) .

(٤) انظر : المعجب ص (٢٨٥-٢٨٧) .

الخلافة ،وبالتالى ستقضى على الخلافات التى كان وقوعها محتملا بين قبائل المصامدة فى سبيل الزعامة.

وما أن أعلنت طبقة الجماعة وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبد المؤمن بن على حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ،ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها، ولذلك لم يستطع بادئ الأمر أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبت فى حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن ،وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد فى قرارات الحكم ،بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال عبد المؤمن ويتجرؤون عليه ،وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن ، لما جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس فى المكان المخصص له ،فما كان منه إلا أن غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له فثار بأخى عبد المؤمن الخليفة وقتله . ولما غضب عبد المؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه وقف الموحدون فى وجهه ومنعوه من ذلك [١] .

ويروى البيذق هذا الحادث ضمن أخبار سنة ست وثلاثين وخمسمائة (٥٣٦هـ) فيقول : (وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد ،وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء . وأنزله فى موضع محمد بن أبى بكر بن بيكيت . فتغابر إبراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبى بكر بن بيكيت . فقتله محمد بن أبى بكر بن بيكيت . فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكاك وقالا له : ألم يقل المهدى : بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من فى الدنيا . فصمت عند ذلك الخليفة. .)[٢]

لقد أسرَّها عبد المؤمن فى نفسه وشرع فى أخذ الخطوات التى آلت للقضاء على نظام الطبقات الذى وضعه ابن تومرت ، ووضع نظامًا جديدًا يكرِّس الولاء لشخصه وأسرته – وسنرى ذلك بإذن الله – ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقادًا راسخًا فى

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٥١ ، ٥٢) .

(٢) أخبار المهدى للبيذق ، ص(٩٣) .

عصمة ابن تومرت ومهديته ،وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءا من هدفه ؟!.

لقد كان الظلم فى تعاليم ابن تومرت واضحا ،فهذا خليفة الموحدين يقتل أخاه ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة ، وكل من فى الأرض عبيد له ، لا شك أن ذلك الحديث أثر فى عبد المؤمن بن على .

ثانيا : قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب :

فى ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن على قيادة الموحدين ،وكانت مهمته عسيرة وصعبة ، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيدًا للمعركة المقبلة الفاصلة ، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته فى رأب الصدع ، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين ، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين ، فكانت أولى غزواته كخليفة – على حد ما رواه ابن أبى زرع – موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياما ثم ارتحل عنها[1] ، غير أن ابن القطان [2] وابن خلدون يتفقان على أن أولى غزواته هى غزوته لتادلة فى وادى درعة ، وفيها خرج عبد المؤمن من تينمل فى شهر ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ فى جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، فسار أولاً نحو حصن تازاجورت،وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط وقيل: يحيى بن مريم الزرجانى [3] فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين ، وهو رقم مبالغ فيه ، فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل ، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية فى المغرب،

(١ –٣) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدى عبد المنعم ، ص(١١١) .

فضلا عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى فى الأندلس .

رحل عبد المؤمن عن تازاجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والى الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينمل ، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد بمن كان فى تلمسان من أسرى الموحدين ، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليها ، كما استولى فى نفس العام ٥٢٦هـ على حصن هزرجة ، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته ، ومنها سار إلى بلدة جثجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها ، ثم سار إلى بلدة أجلاحال ، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته فى يوم العيد ، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاث مائة رجل ، وفى نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة ، افتتحه الشيخ أبو حفص عمر ابن يحيى الهنتاني أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ،ومعه بعض وجوه الموحدين ، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت فى إحدى غزواته ، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه ، وفي هذا العام أيضا افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين ، وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين ، كما كانت تقوم على حراسته حامية من هزرجة قوامها مائتان وخمسمائة راجل، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجؤوا إلى الحيلة، فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطؤوا معهم على فتحه ، فاقتحموه ليلا ، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطى واليه المرابطى ومن معه من المرابطين ، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينمل حيث ركبت على باب الفخارين [١] ، ثم عاد عبد المؤمن إلى تينمل ، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة ، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم فى نفوس بعض منافسى عبد المؤمن ، وأن الرغبة فى القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال تلح فى نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن ،وأعنى بهم أصحاب ابن تومرت العشرة ،وتتلخص هذه الحادثة فى إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن على أثناء

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ، ص(١١٣ ,١١٤) .

غيابه عن تينمل غازيًا ، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين على بن يوسف الذى لم يتردد فى إعلان رضاه عن ابن ملوية ، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينمل ،فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه، ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينمل ، غير أن عبد الله ابن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين فى تينمل ، جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذى قطعوه لابن تومرت ، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة وفى الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكى أحد أهل خمسين ومعه غلامه ، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه ، وحملا جثته إلى تينمل حيث صلبت ، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها [1] .

كان الموحدون يتعاملون مع المرابطين على كونهم كفار، ولذلك أحلوا أموالهم واغتصبوا نساءهم ، وهذا فيه مخالفة صريحة لأحكام الإسلام، فقد بين الخليفة الراشد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أحكام القتال بين المسلمين وما يعرف بأحكام البغاة ،فلا يجوز فيه أخذ الأموال ولا سبى النساء ولا متابعة المدبر ولا الإجهاز على الجريح .

إن أخذ الغنائم وسبى الحرائر يكون عند قتال المسلمين للكفار ،أما بين المسلمين فهناك أحكام البغاة وهى معروفة فى كتب الفقهاء والمذاهب السنية .

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعا للزعامة ،وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة وخصوصا وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور مارسه ابن تومرت بدون مسوغ شرعى ،ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين على بن يوسف .

وفى عام ٥٢٦هـ حدث أمر عظيم يحمل فى طياته مغزى عظيمًا ومبشرًا بقرب أفول عهد المرابطين فقد انضم القائد المرابطى المشهور الفلاكى [2] ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين ، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية وكان فى بداية أمره شقيًا وقاطع

---

(١) المصدر السابق ، ص(١١٤) .

(٢) انظر : دولة المرابطين ، ص(١٢٧) .

طريق ،ثم تاب فعفى عنه والى إشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجالة ، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف ،الذى قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين ، فجد فى محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين ، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين ، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة فى منطقة السوس ، ويفعل بها مثلما كان يفعل فى الحصون الموحدية من قبل ، وظل فى خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين . وفى عام ٥٢٨هـ قتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ،واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين فى بلاد السوس .

وفى عام ٥٢٩هـ سار عبد المؤمن لغزو بنى بيغز ،وظل عبد المؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوما ، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينمل واستمر الصراع من عام ٥٣١هـ إلى ٥٣٢هـ، وفى هذا العام ٥٣٢هـ تحرك عبد المؤمن من تينمل إلى جبل غياثة فعسكر بجرائدة على مقربة من المقرمدة عند وادى أبى حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبى بكر بن تيفلويت ،فعسكرت بالقرب من محلة سير، وفى نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلف فارس يتقدمهم يحيى بن فانو، غير أن زيرى بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين ،وراسل عبد المؤمن بن على وطلب منه عسكرًا لمهاجمة عسكر المغرب الذى يقوده عبد الله بن يحيى بن أبى بكر فأمده بقوة موحدية أغار بها على محلات عسكر المغرب ، وألحق بهم خسائر فادحة . وفى نفس الوقت توفى القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتى الموالى للمرابطين ، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفى الذى واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجدة ، وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير بن على بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة فوضع له سير ألفى فارس فى طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة

تحركات عبد المؤمن ، وفى أثناء ذلك راسل زيرى بن ماخوخ ذويه من زناته واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين فى المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين ، فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيرى بن ماخوخ ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة [١] .

وفى عام ٥٣٣هـ تحرك عبد المؤمن بن على من تينمل ، ونزل فى بلد ملول من منانة فى أراضى حاحة ، فزحف إليه الأمير تاشفين بن على بن يوسف ولى عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين ، ونزل تاشفين بقواته فى تاحكوط فى حاحة ،وكان على بن يوسف قد قتل عددًا من أعيان قبيلة منانة ، وكان ذلك سببا فى دخولها فى طاعة الموحدين ، ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات فأقام عبد المؤمن فى بنى ملول شهرا وثلاثة أيام ، وهو يشن عليهم الغارات ، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بنى وجدزران ثم إلى بنى ثوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن على بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم فى طاعة الموحدين ،ثم سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان ، فتبعه تاشفين بن على فى قواته وسد عليه الطريق ،فنشبت فى أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين هُزم فيها تاشفين وتكررت هزيمته ثلاث مرات ،إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد، وفى هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مددًا لتاشفين ،ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أى بعد هزيمة تاشفين ، فطمعوا فى انتزاع الغنائم من الموحدين ،فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن فى مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذابا للقوة المرابطية التى كانت من قبيلة جزولة ،وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول ، نجحت خطة عبد المؤمن بن على نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ،فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فلما توسطوا مواضع الكمائن ، دقت الطبول فجأة فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوها عن

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ، ص(١١٧) .

آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم ،وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة .

وفى عام ٥٣٤هـ خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين ،وانضمت إليهم فرقة بقيادة الروبرتير وتمكن المرابطون من حصارهم فى موقع يقال له: تيزعور ما يقرب من شهرين وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة، حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم ، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت فى بدايتها كفة المرابطين ، ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحًا .

وفى عام ٥٣٥هـ (١١٤٠-١١٤١م) ، خرج الجيش المرابطى من مراكش بقيادة الروبرتير فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن على فى مكان يسمى أمسيميصى يقع فى أرض كدميوه شمال تينمل وقيل : إن اللقاء حدث بجبل خدميره، ولا يذكر البيذق ، نشوب معركة بين الجانبين ، وإنما يؤكد أن كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتى المرابطين والموحدين وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحًا إلى مراكش . ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى أكظرور ، فهُزم المرابطون ، وارتد الروبرتير فى فلوله جريحًا إلى مراكش وعاد عبد المؤمن إلى تينمل [(١)] .

واصل عبد المؤمن بن على صراعه ضد المرابطين ، فخرج فى قواته نفس العام ٥٣٥هـ وحاصر حصن تينلين ، وكان يدافع عنه واليه المرابطى يركين بن وبدرن ، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام ، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس ، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين فى السوس من بينها إيرمناد ، وتاسلولت وتيونوين وإيجلى وغيرها ، وفى نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيغايين الموحدية ، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش . أما عبد المؤمن

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ، ص(١٢٠) .

فقد عاد من غزوته فى أرض السوس وكان من جملة سباياه فيها (تما كونت) ابنة يتنان ابن عمر أحد وزراء على بن يوسف التى رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها ، وذكرته بشفاعة أبيها يتنان بن عمر فى ابن تومرت ، عندما كان ماراً بمراكش ، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به ،فلم يتردد عبد المؤمن فى قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات ،فأعجب على بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينمل .

رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التى أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين، مستهدفا القضاء عليها وإسقاطها ، وشرع فى تنفيذ تلك الخطة فى بداية ٥٣٥هـ ،ويورد البيذق - وكان شاهدا عيانا لأحداث هذه الفترة - وصفا دقيقا لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين، فيذكر أنه خرج من تينمل فى حشود ضخمة متجها نحو الشمال الشرقى فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف إلى أشبار، وتقع جنوب شرقى مراكش، ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين ابن على فى إثره وأنه نزل بأشبار ، وتابع سيره نحو دمنات مرورا ببلدة يمللو القريبة منها ،ثم تابع الموحدون زحفهم نحو (واويزغت) دون أن يشتبكوا مع المرابطين فى معركة حاسمة، باستثناء موقعة محلية حدثت فى تيزى، ودارت فيها الدائرة على المرابطين ثم تقدم الموحدون إلى داى،فولى حاكمها المرابطى على بن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين، وواصل الموحدون زحفهم صوب (تازاكارت) ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت فى أيديهم وتبعتها قلعة واوما ، ثم أزرو التى تقاعس حاكمها فى الدفاع عنها فدخلها الموحدون ، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته،وجه منها عددا من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة ، وفى نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين إلى تينمل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن . وهكذا دخل أهل فازاز جميعًا فى طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة فى أزرو حيث تزوج من إحدى نسائها ، واصل عبد المؤمن زحفه

فخـرج من أزرو حيث اعترضـته قوة مرابطيـة على طريق مكناسة ، ففـتك بها وأباد معظمها واستولى على كميـات كبيرة من المؤن والعتاد ، ثم هاجم قواعد المرابطين فى غريث الواقعة جنوبى أزرو ، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبى أزرو ، وعندئذ اتجه نحـو سجلماسـة ، فبادر واليـها أبو بكر بن صـارة بالدخول فى طاعة الموحدين .

وفى أوائل عام ٥٣٦هـ قـامت سرية موحـدية على رأسهـا عبد الرحـمن بن زكو بمهاجمة مدينة صـفروى واقتحمتها ، وتابع ابن زكو زحفـه إلى الشمال الشرقى نحو الفلاج الواقعة شـمال شرقى صفروى . وفى هذه الأثناء غادر تاشـفين بن على مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به ، ثم بعث الروبرتير فى قوة إلى الفلاج لاستنقاذها ، فخرج إلـيه الموحدون بقيـادة يحيى آغوال ، فنشبت بينهـما معركـة عنيفة هُزم فـيها الموحدون وقُتل قـائدهم يحيى ، واحتز رأسه وأُرسل إلى فـاس ، ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقـعة شرقى فاس وضربوا محلتهم على سفح جـبل عفرا ، بينما عسكر المرابطون فى موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا ، ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان شتـاء قاسيا تعرضت فيه المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتيـة وسيول مدمـرة اكتسحت السهـول والقرى والوديان ،وقاسى بسبـبها العـسكران أيما عناء وشـدة ، إلا أن وقـعهـا على المرابطين كـان أشد وأنكى حـيث تساقطت الخيـام ، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض ، وغرقت الدور وهلك عدد كـبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلة الأقوات والوقود فى كل من المعسكرين، وبلغ سعر الشعـير فى معسكر الموحدين - وفقا لقـول البيذق- ثلاثة دنانير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفـين دينارا للرطل ،ومع حلول فصل الربيع استـأنف الموحدون زحفـهم ،فكان أول موضع قـصده عبـد المؤمن هو قلعة الولجـة من حصـون المنطقة المعروفة باسم لكاى وتقع إلى الشمال الشرقى من فاس .

وفى نفس الوقت تقدم تاشفين بن على ومعه الروبرتير فى إثر الموحدين ، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاى إلى أرض بنى غـمارة من بطون صنهاجة ،وكـانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا فى طاعتـهم . وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى

أرض بنى تاودا ونزلوا بها وأصبح العسكران كفرسَى رهان ،كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون ، ثم خـرج الروبرتير واشتـبك مع الموحدين فى مـعركة عنيـفة فى موضع يقال له: (تازغـدرا) أسفرت عن قتل عدد من القـوتين ، ارتد الروبرتير على إثرها إلى بنى تاودا ،بينما سار الموحدون إلـى (تاغزوت) ومنها إلى بنى مزكلدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى إيجن .

وفى إيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن على أزناج أحـد جماعة العشرة ،فلما شعر بدنو أجله وعظ أشيـاخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبـر والتمسك والإخلاص لمبادئ ابـن تومرت ، وطاعة عـبد المؤمن ، ثم توفى فـى مساء نفس اليـوم ودفن فى مـوضع يسـمى (بجـدار نمضى) ، ثم واصل الموحـدون سـيـرهم فى الريف مـرورا بتامقريـت ووادى لو أرض بنى سعيد ، ومن ورائهم الروبرتير يتعـقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان ، فى الوقت الذى وصلت فيه قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطلة على البـحـر المتـوسط ، ومكنت نفـوذها فى تلك النواحـى ، وواصلت من هنالك تقدمهـا إلى ثغر المزمة ومنهـا إلى جبل تمسامان ، حـيـث وجه عبد المؤمن قـائده عبد الرحمن بن زكو فى قوة من الموحدين لغزو مليلة ، فاقتحمها وظفر بغنائم وفيرة ، ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كومية ، قبـيلة عبد المؤمن ،ومنها واصل تقدمهم شرقـا إلى تاجرا مـسقط رأس عـبد المؤمن ،وفى هذه البلـدة وجه عبـد المؤمن ثلاث حملات : الأولى بقـيادة عبد الرحـمن بن زكو ، وجهتهـا ثغر وهران ، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه ،والثانية بقيادة الشيخ أبى إبراهيم إسماعيل ، وكانت وجهتها قبـائل بنى وانوان ،والثالثـة بقيـادة يوسف بن واندوين وسارت إلى جبـل مديونة من أحواز تلمـسان ، فـخرج إليهـا المرابطون من تلمسـان بقيادة أبى بـكر بن الجوهر ، ومحمـد بن يحيى بن فانو ، ونشبت بين الفـريقين معركة عنـيفة فى وادى الزينون ، انهزم فـيها المرابطون وقـتل القائدان ابن الجوهر وابن فـانو ، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصـاراتهم على قوى المرابطين ، وإن كانت كلـفتهم كثـيرًا طوال حياة أمـير المسلمين على بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيـبته فى نفوس المرابطين ، ثم جاءت

وفاته سنة ٥٣٧هـ بداية لنهاية دولة المرابطين [١] .

وتولى الحكم بعه تاشفين الذى كان متفرغا فى حياة والده لقتال الموحدين ، ولذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشؤون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين فى الأندلس ، ومما زاد الأمر سوءا أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية فى ذلك الوقت ، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية فى عام (٥٣٨هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطى بقيادة على بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء .

وفى هذا الوقت أيضا حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانضمت مسوفة إلى الموحدين ، وفى عام ٥٣٩هـ ، ١١٤٤م تمكن عبد المؤمن بن على من قتل القائد المرابطى الروبرتير ودخل تلمسان . وفى ٢٧رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران ، وفى ١٤ذى القعدة ٥٤٠هـ دخل الموحدون فاس ، وفى ١٨ شوال تمكنوا من دخول مراكش[٢] .

وهكذا نجح الموحدون فى إسقاط دولة المرابطين بعد سلسة طويلة من الصراع المرير استخدم فيها الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض .

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين ، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات ، فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين . كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم، وقد صور صاحب الحلل الموشية[٣] ذلك بقوله : (وتأججت نار الفتنة بالمغرب ، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب وغلت الأسعار وتوالت الفتن ، وعم الجدب وقلت المجابى وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين،ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدوة ونقل إليها كثير من أسلحتها

---

(١)انظر : تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين ، ص(١٢٢- ١٢٤) .

(٢) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٨٣-٧٨٦) .

(٣) مؤلفه مجهول .

وعـددها ،فكان ذلك أعظم فـسـاد حل بالأندلس واخـتل عليـهم، وألح النصـارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن ،حتى تغلبوا على كثير من بلادها ، وكان الإسلام بها عزيزًا والكفر مقهورًا والجزية مـرتفعـة منذ ملكهـا يوسف بن تاشفـين إلى زمان خـروج المهدى، فـساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال) [١] .

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عـبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله ، فكان لا بد من توطيد أركان دولته الجديدة فى الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط .

ثالثا: اهتمام الموحدين بالأندلس : بعد أن احتل عبـد المؤمن بن على مدينة فاس وحاصـر مراكش تلقى من أهل سبـتة بيعـتهم له ، فولى عليـهم يوسف بن مخلوف الهنتاتى ،ولكن أهل سبـتة انتفضوا على يوسف بن مخلوف وقـتلوه هو ومن معه من الموحدين ، وجاز القاضى عياض واليـهم السابق إلى يحيى بن على بن غانية المسوفى والى الأندلس ، فلقيـه بالجزيرة الخضـراء وطلب منه واليا على سبـتة ، فأرسل مـعه يحيى بن أبى بكر المعروف بالصـحراوى ، فقام بأمر سبتة، وشـكل حلفًا مع القبائل الخارجة على الموحديـن من أمثال برغواطة ودكالة فاضطر عبـد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه ، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبى حتى انقادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مـراكش وتقدم الصحـراوى بطلب العفو عنه ، فـعفا عـبد المؤمن عنه ، وراجع أهل سبتة طاعتهم ، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه [٢] .

وبعد هذه المعارك الطاحنـة فى المغـرب الأقصـى واستتباب الأمـر لعبد المؤمن وجه نظره إلى الأندلس، وكـانت كـثيـر من مدنهـا قـد استـغلت الصـراع بين المرابطين، والموحدين فأعلنت ثورتها وانفصالها عن المرابطين ،وزادت عنفا هذه الثورات بعد وفاة تاشفـين بن على فى عام ٥٣٩هـ ،وكـان على بن عيـسى بن ميمـون من بين هؤلاء الثوار ، فـاستـقل بقادس ودخل فى طاعـة الموحدين ، وخطب أول خطبـة لهم فى

---

(١) الحلل الموشية ،ص(١٢) .

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/٧٨٨) .

قادس سنة ٥٤٠هـ ،كذلك قام أحمد بن قيس الصوفى الثائر فى مرتلة ، فلما استولى أبو محمد سدراى على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام ٥٤١هـ ورغّبه فى احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين فسير عبد المؤمن معه جيشا بقيادة براز بن محمد المسوفى ، فى شعبان ٥٤١هـ ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى . فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس ، هاجموا أبا القمر ابن عزوز بشريش ورندة ، فدخل فى طاعة الموحدين ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجى ، ثم مضوا إلى مرتلة ، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب ، وقصدوا باجة وبطليوس ، فدخل أبو محمد سدراى بن وزير في طاعتهم ، كما انضوت إشبيلية فى سنة٥٤١هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها برا وبحرا ، ثم دخلوا مالقة فى هذه السنة . غير أن يوسف البطروجى لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين وحول الدعوة عنهم ، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس فى شلب ، وعلى بن عيسى بن ميمون فى قادس ، ومحمد بن على بن الحجام فى بطليوس ، بينما بقى أبو القمر بن عزوز على طاعتهم فى شريش ورندة .

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان ، فنزل يوسف بإشبيلية التى اتخذها الموحدون حاضرة لهم فى الأندلس ، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان فى طاعة الموحدين سنة ٥٤٣هـ ،ولم تبدأ سنة ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين ، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبد المؤمن بن على وأعلنوا الدخول فى طاعته ،وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وإشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، والجزيرة ، ولبلة ، وشلب ، وشريش ، ومرتلة ، فحاولوا استرجاع المرية فى علم ٥٤٦هـ وحاصروها ، إلى أنهم فشلوا فى اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا فى اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به ، ووصلوا إلى المسجد الجامع . وفى سنة ٥٤٩هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر

اللمتونى ، وتوطد نفوذهم فى جنوب الأندلس، ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية برا وبحرا وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصارا محكما، وحاول ألفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار، فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل ، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش فى قوة من ٦ آلاف مقاتل اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ووالى إشبيلية ،فازدادت قوة الموحدين بقدومه، واضطر ابن مردنيش أمام وخذ الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى ، إذ رأى العار على نفسه فى قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل ، وولى عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس ، ومات ألفونسو فى طريقه إلى بياسة سنة ٥٥٢هـ وخلى الجو للموحدين فشددوا الحصار على القصبة واستولوا عليها فى سنة ٥٥٢هـ، وهكذا استرد الموحدون المرية ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغيرت محاسنها [١] .

وفى سنة ٥٥٥هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس ، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس ، فسيّر الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبى حفص من قرطبة ، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش [٢] .

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩١) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٩٢) .

رابعا : فتح المغربين الأدنى والأوسط :

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام ٥٥٦هـ ، وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن ،من اختلاف الأمراء وتطاول العرب من بنى سليم وهلال على إفريقية، بالعبث والفساد، وكما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية فزحف فى سنة ٥٤٦هـ من مراكش قاصدًا مملكة يحيى بن العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادى ببجاية ، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة فخرج إليه الأمير الحسن بن على بن يحيى بن تميم وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهدية فى أيدى النورمان ، فقدمه أهلها على أنفسهم ،فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن على خرج للقائه فتلقاه بحفاوة بالغة وصحبه فى غزو إفريقية، ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية ، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن ، فانهزم هزيمة نكراء ،ودخل الموحدون بجاية ولما رأى يحيى أن لا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن هرب فى البحر إلى صقلية لقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحمل معه ما استطاع معه من الذخائر والجواهر والذهب والأموال ،ثم عدل عن ذلك ونزل فى بونه على أخيه الحارث ثم رحل عنه إلى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن، أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بنى حماد معقل الصنهاجيين الأعظم ، وحرزهم الأمنع ، واقتحمها عنوة ، فخربها وأضرم النار فى مساكنها وقتل جيوش بن العزيز، ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله ،ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكَّر عائدا إلى مراكش، وكان يحيى ابن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه ، فأمنه وصحبه معه إلى مراكش فى سنة ٥٤٧هـ وأسكنه بها ،ثم انتقل يحيى إلى سيلا سنة ٥٥٨هـ فسكن قصر ابن عشيرة إلى أن توفى فى هذه السنة .

أما الحسن بن على فقد صحب عبد المؤمن فى غزوته الأولى إلى إفريقية ،كما صحبه فى سنة ٥٥٤هـ فى غزوته الثانية فحاصر معه المهدية ،ثم دخلها وسكن بها ثمانى سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ،فرحل بأهله إلى مراكش وتوفى بتامسنا فى سنة ٥٦٣هـ ثار عرب الأثيج ورياح وزغبة فى سطيف على

عبد الله بن عبد المؤمن بن على من أجل إعادة دولة بنى حماد ، فأرسل عبد المؤمن ابن على إلى ابنه مددا ، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم فى سطيف فانهزم العرب وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين فأكرمهم ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين ، وكان لذلك أكبر الأثر فى دخول العرب فى طاعته، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ،ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس فاستجاب له منهم جمع عظيم، فلما أراد الجواز إلى الأندلس فى سنة ٥٥٥هـ أدخلهم بها ،وجعل بعضهم فى نواحى قرطبة،وبعضهم فى إقليم إشبيلية مما يلى شريش وأعمالها ، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور ،ويذكر المراكشى أن بالجزيرة فى أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو خمسة آلاف فارس سوى الرجالة [١] .

وفى هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج فى جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة ٥٥٢هـ ، فحاصرها ، وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها ، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان ، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بنى على من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين [٢] .

وتوفى عبد الله بن خراسان أثناء ذلك فخلفه على بن أحمد بن عبد العزيز بن خراسان ، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك، فخرج أبوه من مراكش فى جيوش لا تحصى فى العاشر من شوال سنة ٥٥٣هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى ،وترك معه ولده السيد أبا الحسن، ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة ، ثم واصل زحفه إلى المهدية ، وضرب عليها الحصار، وكانت الإمدادات تأتى حاميتها من صقلية ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمَّن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها فى سنة ٥٥٤هـ ،وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة

---

(١) المراكشى ، ص(٢٢٦) .

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩٥) .

قابس ،فاستولى عليها من بنى كامل من رياح المتغلبين عليها ،كما استولى على قفصة من بنى الورد ، وعلى طبرقة من مدالع بنى هلال ،وجبل زغوان من بنى حماد ابن خليفة ،وشقنبارية من بنى عماد بن نصر الله الكلاعى ، والأربس من بنى فثانة العرب . ويذكر المراكشى أنه افتتح طرابلس الغرب أيضا ، وافتتح بلاد الجريد كلها[١]. وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته ، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، لأول مرة فى تاريخ المغرب منذ عصر الولاة [٢] .

خامسا : سياسته مع النصارى واليهود وتخريجه للساسة لضبط نظام الدولة :

أ- عندما استولى عبد المؤمن على مراكش ، قتل المقاتلة ، وكف عن الرعية ، وأحضر اليهود والنصارى ، وقال : إن المهدى أمرنى ألا أقر الناس إلا على ملة الإسلام ، وأنا مخيركم بين ثلاث : إما أن تسلموا ، وأما أن تلحقوا بدار الحرب ، وإما القتل . فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب ، وخرب كنائسهم ، وعملها مساجد ، وألغى الجزية ، فعل ذلك فى جميع مدائنه وأنفق بيوت الأموال ، وصلى فيها اقتداء بعلى وليُرى الناس أنه لا يكنز المال ، وأقام كثيرًا من معالم الإسلام مع سياسة كاملة ، ونادى : من ترك الصلاة ثلاثا فاقتلوه ، وأزال المنكر ، وكان يؤم بالناس ، ويتلو فى اليوم سبعا ، ويلبث الصوف الفاخر ، ويصوم الاثنين والخميس ، ويقسم الفيء بالشرع فأحبوه ، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده ، ولم يدع مشركا فى بلاده لا يهوديا ولا نصرانيا ، فجميع رعيته مسلمون[٣] .

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نظما موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف ، وسار فى كل ذلك مع نهج الدين الحنيف ، وبنى عددا من المساجد والمدارس الفخمة التى غدت مراكز للعلوم ، والآداب ، وقرنها

(١) المراكشى ، ص(٢٣٠) .

(٢) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٩) .

(٣) انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٠ ، ٣٧١) .

بالخدمة العسكرية دوما ، مع التمرين على فنون الحرب ، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدى الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم ، وفطور الحماسة الحربية لدى الموحدين . كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة ، وموظفى الحكومة ، وقادة الجيش ، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعا لهم على الاجتهاد ، ولكى يجعل منهم رجالا أكفاء قادرين على نفع البلاد فى السلم والحرب .

وفى أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية ، فيختبرهم فى الطعن بالحراب والرمى بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل ، وفى السباحة والمعارك البحرية فى بحيرة أعدها ووضع فيها سفنا كبيرة وصغيرة لتدرب الشباب على قتال البحر ، وقيادة السفن ، والوثب على سفن العدو ، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه[١] . لقد استطاع عبد المؤمن فى نحو عشرين سنة أن ينشأ نظاما جديدا للدولة ، إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته . وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن-وهو من أعظم قادة عصره- تنظيم شؤون الحرب والجهاد التى بث فيها بجهوده ومتابعته ، نهضة إحياء شاملة . وإليك وصف نظام سير الموحدين ، وتقسيمات الجيش ، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الثقليين [٢] .

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ، وكانت علامة المسير ثلاث قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعا ، مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب فى مكان مرتفع فى يوم ساكن لا ريح فيه ، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص ، وهو يحمل مطويا أثناء السير ، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ،وقد كان مكونا من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب ، هذا غير ما يتبع الجيش من

(١) انظر: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين يوسف أشباخ (٢/ ٥٠) .

(٢) انظر: الأرك د. شوقى أبو خليل ، ص(٢٩) .

قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة وتخصص لغذاء الجند ، وكان جيش عبد المؤمن النظامى يتألف - فضلا عن الفرسان - من سبعين ألفا من المشاة ، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص فى الماء ، أو ضيق فى المكان ، وإذا كان معظم الجند مثقلا بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر ، حتى يتثنى للجند أن يبدؤوا السير فى اليوم التالى بقوة مجددة ، وترتب على هذا التمهل فى مسير الجيش أن اقتفى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهى مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة فى نحو شهرين فقط . وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ، وكان يتقدمهم مائة شيخ وقائد ، يمتطون جيادا مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثيابا فخمه ، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا وتيمنا ، وقد وضع فى صندوق بديع الصنع ، محلى بصفائح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ والأحجار الكريمة ، حتى أنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين وبنى عباد ملوك إشبيلية، وبنى هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيها جميعا وتكدست. وهذا الصندوق يحمل فى هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام ، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والى تلمسان ، وهو شقيق السيد أبى يعقوب يوسف ، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون [١] الذين يرافقون الجيش ، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعى الطبول على خيول عالية ، والنافخون فى الأبواق والقرون [٢] ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ، ثم الولاة والقضاة

---

(١) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولدا.

(٢) القرن هنا :آلة موسيقية تعتمد على النفخ تشبه تماما القرن المعروف على رأس البقر أو غيره .

والوزراء والكتاب ، وبعد ذلك يأتى الجند متعاقبين فى نظام محكم ، فإذا حل الوقت الذى ينتظم فيه المعسكر ، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص ، ثم توزع الأقوات التى يحمل الجيش منها مقادير وافرة على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يقتر على أحد منهم . يستنتج من هذه النظم الصارمة ، ومن المثابرة على التمارين الحربية ، ومن دراسة حياة الموحدين :

١- أن عبد المؤمن كان يعتنى عناية خاصة باختيار مواقع القتال .

٢- كان يتولى القيادة بنفسه فى كل الأمور الحاسمة الهامة .

٣- كان يتبع نظامًا جديدًا فى منتهى البساطة ، ولكنه جم الفوائد .

٤- أن قيمة الجيش ليست فى عدده ، إنما هى قبل كل شيء فى مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه ، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب ، حسنة التسليح ، فهى العامل الحاسم فى مصير المواقع وفى اقتحام المدن ، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغنى عنه فى المعارك .

ومن أعمال عبد المؤمن : مسح جميع أراضى مملكته ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثروتها وغلاتها . وكان يرمى من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية ، وأن تتخذ هذه البيانات أساسا لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى ، فسكان الثغور فى المغرب والأندلس يُقدِّمون البحارة والسفن ، والمناطق الصحراوية والغنية بالخيل تُقدِّم الفرسان ودواب الحمل والجمال ، وعلى الولايات الأخرى فى المدن الداخلية مثلا تقديم الجند المشاة والسلاح ، كل بنسبة سكانها .

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة ، وبمقادير جيدة فى المخازن المعدة له . وأنشأ مصانع السلاح فى كثير من قواعد مملكته تعطى القسى والنشاب والخوذات والدروع والسهام . . وآلات الرمى والمنجنيقات التى تستخدم فى الحصار [1] . وعزم

(١) انظر: معركة الأرك ص(٣٢) .

عبد المؤمن على تغيير نظام الطبقات ، ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر غير الموالية له ، وتخلص من كل العناصر التى لم يكن ولاؤها له مؤكد ومشاغبتها عليه محتمل وقوعها وخافه الموحدون خوفًا عظيمًا ، وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتى ، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصًا كبيرًا . فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة فى موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ التى هُزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية . وهؤلاء هم : أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسى وسليمان بن مخلوف الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمارى الكدميوى وأبو يحيى بن بيكيت وأبو عبد الله بن سليمان . أما أبو حفص عمر بن على آصناك ، فقد توفى سنة ٥٣٦هـ ، وقتل عبد الله يعلى بن ملوية سنة ٥٢٧هـ بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن ، إذ أنه حقد على الموحدين بيعتهم له ، أما أبو الحسن بن واكاك ، فقد قتله طلحة غلام أبى إسحاق أمير المسلمين المرابطى سنة ٥٤١هـ .

وإذن فقد توفى فى طبقة الجماعة ، المكونة من عشرة أشخاص ، ثمانية أفراد ، ولم يعد باقيا على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وعبد المؤمن ابن على ، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة ، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتى أهل خمسين وأهل سبعين ، وغيرهما من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التى خاضها الموحدون . ولذلك أتاحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين فرصة طيبة لعبد المؤمن بن على لأن يجرى تعديلاً فى نظام الطبقات [١] . وبعد أن تخلص من أكثر من (٣٢٠٨٠) شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات ، فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته فى مراكش ، فحضروا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم ، خوفا ورهبة مما يخبئه لهم الخليفة . لقد رسم عبد المؤمن خطته فى أناة وروية ، ونفذها على خطوات على مهل وفى غير استعجال ، حتى إذا ما استوفى ربط

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين ، ص(٥٨) .

الحلقات وإحكامها ، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله ، وهى أن يكون له فى الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أى شيء ، هكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسمًا وفعلاً .

ولما أن أصبحت الحال تلك ، وأحضر الموحدون إلى حاضرة مراكش ، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقى ، وأعلن عليهم النظام الجديد ، وحدد فيه مكان كل منهم ، وتغيرت الطبقات من أربع عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات : (فالطبقة الأولى : هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت ، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه ، والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها ، وشهد لهم بالفضل الذى لا يوازى والرتبة التى لا تعادل . ويتلو هذه الطبقة الطبقة الثانية : من آمن بهذا الأمر ودخل فى هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران . والطبقة الثالثة :من فتح وهران إلى هلم جرا . من النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين ، يتبين أن عبد المؤمن ألغى طبقة الجماعة إلغاء نهائيا، وهى الطبقة التى كان لها الحق الأول فى إدارة شؤون الموحدين ومراقبة الخليفة . هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتى أهل خمسين ، وأهل سبعين، وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة فى النفوذ والسيطرة ، وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن فى نظام ابن تومرت ،بل إن عبد المؤمن ألغى الأربع عشرة طبقة ، وجمعها كلها فى طبقة واحدة وهى الطبقة الأولى فى نظامه . وهو قد ذهب إلى مدى أبعد إذ جعل فى هذه الطبقة كل من رأى ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه فى حروبه . ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك فى غزوة البحيرة التى هُزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين ، يوم الثانى عشر من جمادى الثانية من سنة خمسمائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة ١١٣٠م .

ومعنى هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى فى نظام ابن تومرت، ثم إنه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاث الأول ، وجعل مكانة

الجميـع على قدم المساواة ، وهذه المساواة بين أفـراد الطبقات أتاحت لأفراد الطـبقات الإحدى عشرة الأخيرة في النظام الملغى كسبًا معنويًا كبيرًا وفائدة مادية جليلة ، وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخـلاص وتأييد أفراد هذه الجمـاعة لإتاحته لهم هذه الـفرصة الذهبية ، كمـا أن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خـارج الطبقات الموحدية ، فرصة الانتماء للنظام الموحدى واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته .

أما الطبقة الثانية : فهى تشمل كل الذين دخلوا فى حركة الموحدين ، منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ وحتى فتح وهران سنة ٥٣٨هـ ،وهذا يعنى أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبـائل المختلفة التى دخلت فى طاعة الموحدين بعد سنة ٥٢٤هـ وحتى سنة ٥٣٨هـ ،سـواء كانت هذه الطاعة قـد جاءت طواعيـة واختيارًا أو إجـبارًا وقسراً بحد السـيف ، وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعـة أن يستلّ الضغينة من نفوس الذين فـرضت عليهم طاعة الموحـدين بعد عام البـحيرة وحـتى فتح وهران ، وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين ، وإدراجهم فى الطبقة الثانية من النظام الجديد . وهذا بطبيـعة الحال أدى إلى انتشـار الرضا بينهم واطمئنانهم إلى مسـتقبلهم الذى يبـشر به انضواؤهـم فى النظام الطبقى للمـوحدين ، وهى إلى جـانب الكسب المعنوى والسياسى ، قد أتاحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى .

وهذه الطبقة تسوف نظر بعين الرضا والتـأييد للخليفة عبد المؤمن بن على ، الذى أقدم بشـجاعة فـائقة على تغيـير النظام القـديم ، وأتاح لأفرادها شرف الانتـماء إلى النظام الموحدى ، بـل وفى الطبقة الثـانية منه ، وبهذا اسـتطاع عبـد المؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه .

والطبـقـة الثـالثـة: تضم من دخل حـركة الموحدين منذ فـتح وهران سنة ٥٣٨ هـ وإلى أى زمن تلا ذلك ، فـاتحا البـاب لكل من يطيع الموحـدين لأن ينتظم فى سلك الطبقة الثالثة .

ثم إن عبـد المؤمن لما افتـتح المغرب الأوسط وأدخله فى دولة الموحـدين ، بعد أن

قضى على إمارة بنى حماد فيه ، قام بمحاربة قبائل بنى هلال ، الذين وقفوا فى وجهه، وتمكن الموحدون من هزيمتهم فى أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة ، وبدلا من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها ، نجده ينقل معه ألفا من كل قبيلة منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى ، كما قام فى نفس الوقت برد الأموال والحرم التى غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء ، وعن هذه الأحداث يذكر البيذق قائلا : (وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها ، فترك منها أمير المسلمين فى فاس ومكناسة وفى سلاح وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراكش وعيالهم معهم : ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان وأبو قطران ، وأبو عرفة ، والقائد ابن معرف . فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم .

فقالوا للخليفة : تأمرنا بالرجوع إليك . فقال لهم الخليفة مجاوبًا لهم : نحن نصل إليكم وردهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك فى عام ٥٤٧هـ) [١] .

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى ، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى . وهو فى الواقع قام بهذا العمل ، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها فى متناول يده ، كما أنه كان يرمى إلى كسب ودها واستخلاص ولائها . كما أن جلبه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم بالقرب منه ، يخفى وراءه سياسته فى أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة [٢] . وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم وحرضهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال :

---

(١) البيذق ، أخبار المهدى ، ص(١١٦) .

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص(٥٧-٦٠).

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدوا على الأعداء شدة صائل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح وأبيض مأثور وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزونية اقتبها منصورة بالأوائل
هى الغرة الغراء والموعد الذي جز من بعد المدى المتطاول
بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى نصف التحقيق من كل باطل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة . لمدلج الساري صفاء المناهل [1]

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه ، ولما قال فيه التفاسى قصيدته :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع ، وأمر له بألف دينار [2] ، ولما سار عبد المؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق ، وسماه جبل الفتح ، فأقام أشهرا ، وبنى هناك قصورا ومدينة ، ووفد إليه كبراء الأندلس ، وقام بعض الشعراء منشدًا :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب أين المعز وخيل الله فى الطلب
يذهب من فى رأس شاهقة وقد رمته سهام الله بالشهب
حدث عن الروم فى أقطار أندلس والبحر قد ملأ البرين بالعرب

فأعجب بها عبد المؤمن وقال : بمثل هذا يُمدح الخلفاء [3] ، وبعد أن اطمأن عبد المؤمن إلى سلامة الخطوات التى اتخذها فى سبيل أن تكون له السيادة الكاملة فى الدولة ، وضمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة فى مجموعة الموحدين ، وتأكد له ولاء أغلب الطبقات فى النظام الجديد ، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع

(١-٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣) .

بنى هلال وسليم التى أنزلها فـى أحواز مراكش ، أقدم على الخطوة الخطيـرة التى ما فتئ يستـعد لها ويمهـد الطريق أمامها ،ألا وهى جـعل الحكم فى دولة الموحدين فى عقبه، وتولية أحد أبنائه وليا لعهده[1] .

وفى عام ٥٤٩هـ أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة فى طاعتهم ، من بنى هلال وصنهـاجة ، توليته لابنه محمد وليـاً لعهده ، وقامت تلك الجماعات فى الحال بالموافقة على ذلك الأمر ، وبايعت لولى العهد . وقد بين الخليفة فى رسالة بعث بهـا إلى طلبة الموحـدين فى سبتـة وطنجة ، الظروف التى تمّت فيـها تولية ابنه لخلافته والعوامل التى فرضت عليه ذلك ، فجاء فيها : (ولكم أن كثيرا من أولياء هذه الدعوة العلية وإخـوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها ، تقـدمت رغبتهم فى أمر أخرته الخيرة لميقاتها ، وأرجأته التؤده إلى خير أوقاتها ... وكانت العشائر العربية الهلالية والقـبائل الشرقيـة والصنهاجية ومن معـها ، حاضرة وبادية من أهل إقليـمها وذوي ألبـابها وحلومـها ، ويشـيرون إلى ذلك عـلى انشراحـهم ويعلمون أنه غـاية اقتراحـهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مـخاطبتهم فى ذلك تتـردد حينا بعد حين ورغـباتهم تتـأكد لما كـان عندهم فيـه من ثلج ويقين . فلمـا اتفق بحمـد الله وصـولهم فى الوفادة ، للأخـذ بأطناب السـعادة المنيـفة بـهم على مقـتضى الآمـال والإرادة، صـرحوا لأول لـقائهم بمـا أضمـروه ، وأبدوا سـرهم المكنون وأظهـروه . واعلموا أن محمـداً - وفقه الله - هو الذى ارتضوه لحمل عبئهم وتخـيروه ، ورغبوا فى تقديمه عـلى بلادهم وإنفاذه معهم على قـصده فى توليته مرادهم . . فـرأينا بعد استخارة الله (تعالى) أن نجـمع فى هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ،ونتذاكر معـهم فى ذلك الأمر المسؤول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصـيل ونلقى إليهم حديث القـوم المذكورين بأتم وجوه الإلقاء والتـوصيل ،فكان ذلك على ما أقصد ،وذكروا فى الأمر على ما أتوخى فيه وأعتمد . وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما أعتقد ... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٦٠) .

يحيى (أعزه الله بتقواه) هذا أمر نحن أولى بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه ، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعيا . . وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته فى مثل هذه الآراء : هذا أمر فى ضمائر أكثرنا معقود ، وفى نفوس جمهورنا موجود ، وهو الذى ليس عليه من آمالنا مزيد ... وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه ، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه ، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم ،وسرى النعيم بها فى أبشارهم ومناتهم ، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلا بعد قبيل) [١] .

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط :

أولاها : أن عبد المؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير فى تولية أحد أبنائه لخلافته فى الحكم.

وثانيتها : أن هذه الفكرة إنما أثارتها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية . وهى التى لم تكتف بإثارة الموضوع ، بل وألحت عليه . ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة فى دولة الموحدين ، ليست من الأمور البسيطة التى يمكن لمثل هذه القبائل أن تبدى رأيها عنها وتتدخل فيها . فهى مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية فى جوهرها ، فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التى أخضعت بحد السيف . وتدخل هذه القبائل فى مثل هذا الموضوع يثير الشك بأن الخليفة عبد المؤمن هو الذى أوحى لها بأن تثير وتلح عليه .

والنقطة الثالثة : هى أن الموحدين وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة فى حضرته ، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية فى أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده ، بينوا أنهم أولى من غيرهم فى اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٦٢) .

النية والعزم عليه ، والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبد المؤمن السيد المطاع بلا منازع فى دولة الموحدين ، ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد ، وتقديم البيعة لولى عهده .

والنقطة الرابعة : يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر واقع ، ولذلك بادر بإظهار الرضا عن هذه البيعة ، وكان أول المبايعين لابن عبد المؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعى لعبد المؤمن فى الحكم .

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثيا فى عقبه ، وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت فى قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثيا ،وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ، ومن الطبيعى أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن ، ولذلك قامت خيانات فى الجيش الموحدى بقيادة يصلتين بن المعز الذى انفصل بجيشه فى معارك الموحدين مع العرب فى المغرب الأوسط ، مما سبب انتصار بنى هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه ، وقُتل قائد الجيش الموحدى فى المعركة . وطمع بنو هلال إثر هذا الانتصار فى الموحدين ، الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة . ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل ، وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحدى وارتفاع روحه المعنوية ، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف فى وجه العواصف الهوج ، فَفوَّت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذى كان يرمى إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك ،وألقى القبض على يصلتين وقتل فى سبتة عام ٥٤٦هـ بتهمة الخيانة العظمى .

وفى عام ٥٤٩هـ حاول أخوا ابن تومرت ، عيسى وعبد العزيز فى مدينة مراكش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم ، إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراكش قضوا على تلك المحاولة الفاشلة ، وكان عبد المؤمن بعيدا عن مراكش فى سلا ، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم ثلثمائة شخص ، وقتلوا جميعا ،وأعدم أخوا ابن تومرت . وفى عام ٥٥٥هـ حاول بيت ابن تومرت

اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت فى مهدها ، وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة ، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته ، وأمرهم أن يأتوه ركبانا ويُركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة .

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة ٥٥٧هـ إلى مراكش فى تعداد تجاوز الأربعين ألفا وفرح بهم عبد المؤمن فرحا عظيما ، وأنزلهم فى مراكش وأعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين ، وجعل منهم حرسه الخاص الذى يقف بين يديه فى جلوسه ويحيط به فى تسياره ، وبذلك اطمأن على نفسه وعلى حكم أبنائه من بعده .

إن الخطوات التى اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بنى هلال ، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية ، والقضاء على تنظيم ابن تومرت فى الطبقات جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد فى سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوى ،إن مسلك عبد المؤمن فى جعل الحكم وراثيا ساهم فى إيجاد تنافس شديد وتنازع مميت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد ، بل سفكت دماء ، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الإخوة فى سبيل تولى الحكم ، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة ، وتدهورها السريع فى فترة ليست بالطويلة [(١)] .

لم يكتف عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه ، بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة ، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم

ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة فى تاريخ دولة الموحدين ، ظهور التكتلات التى ساهمت فى إضعاف الدولة ، وكانت سببا فى وقوع وزيرين فى نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية ، وعبد السلام الكومى [(٢)] .

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته :

١- لما نزل عبد المؤمن سلا وهى على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٦٢-٦٨) .

(٢) المصدر السابق ، ص(٦٩) .

فى البحر عبر النهر ، وضربت له خيمة ، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة ، فخرَّ ساجدًا ، ثم رفع وقد بل الدمع لحيته ، فقال : أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد ، فراموا عبور هذا النهر ، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يعديهم ، فقال : لا آخذه إلا عن اثنين ، فقال أحدهما وكان شابا : تأخذ ثيابى وأنا أسبح ، ففعل ، فكان الشاب كلما أعيى ، دنى من القارب ، ووضع يديه عليه يستريح ، فيضربه بالمجذاف ، فما عدى إلا بعد جهد، فما شك السامعون أنه هو السابح ، والآخران ابن تومرت ، وعبد الواحد الشرقى[1] .

٢- ذكر ابن العماد فى «شذرات الذهب» عبد المؤمن بن على فقال : (كان ملكا عادلا سايسا عظيم الهيبة عالى الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل ، وكان يقرأ كل يوم سبعا من القرآن العظيم ، ويجتنب لبس الحرير ويصوم الإثنين والخميس ، ويهتم بالجهاد والنظر فى الملك كأنما خلق له ، وكان سفاكا لدماء من خالفه . سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهم فقالوا : لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم ، فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما :

يا ذا الذى قهر الأنام بسيفه ... ماذا يضرك أن تكون إلها
الفظ بها فيما لفظت فإنه ... لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآهما وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا ،فكان عبد المؤمن يتزيّا بزى العامة ليقف على الحقائق، فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له : اصدقنى أنت قائل البيتين ؟ قال : أنا هو . قال : لم فعلت ذلك ؟ قال: قصدت إصلاح دينك . فدفع إليه دنانير فلم يقبلها . ومن شعره وقد كثر الثوار عليها :

لا تحفلن بما قالوا وما فعلوا ... إن كنت تسموا إلى العليا من الرتب
وجرد السيف فيما أنت طالبه ... فما ترد صدور الخيل بالكتب[2]

٣- بعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بنى حماد فيه ،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣) .

(٢) انظر: شذرات الذهب (٤٠/ ١٨٣) .

وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية ، وضمها إلى دولة الموحدين ، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقًا حتى البحر المحيط غربًا، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية ، وبعد أن تم له تعيين ابنه وليًا لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة ، وخضد شوكة أفراد بيت ابن تومرت ، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بنى هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلته ، شرع فى الإعداد للمشروع العسكرى الكبير الذى نوى القيام به ، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين، ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة [١] يقول ابن صاحب الصلاة : (تم إعداد مائتى قطعة بحرية جديدة فى دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادى سبو ، وغيره من الدور فى بلاد المغرب وسواحل الأندلس ، وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحدى الزاخر . وكانت الاستعدادات فى نفس الوقت تجرى لتدريب الرجال على أفانين القتال البحرى والتهيئة له . كما أنه أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادى سبو بالمعمورة المذكورة ، ما عاينته مكدسا كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله . . ونظر فى استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية ، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة ،إلى غير ذلك من الثياب والكساء والعمائم والبرانس ، ما استغربته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان . وقسم ذلك كله على الموحدين ...) [٢] .

خرج عبد المؤمن بن على من مراكش فى جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمان وخمسين وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير فى رباط الفتح من مدينة سلا . ونزل الجيوش فى

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص(٧٧) .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، ص(٢١٣-٢١٥) .

الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوالى مائة ألف راجل ومائة ألف فارس . وتقرر فى مجلس الحرب الذى عقده الخليفة ، تقسيم الجيش أربعة أقسام ، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا :

١ – الجيش الأول : يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال .

٢ – الجيش الثانى : إلى فرناند ودى ليون .

٣ – الجيش الثالث : إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة .

٤ – الجيش الرابع : يسير إلى برشلونة .

غير أن الذى غيَّر هذا المخطط وجمد هذا العمل الكبير ، مرض عبد المؤمن بن على المفاجئ ، وانتظار الموحدين شفاءه ، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨هـ[١]. قال ابن كثير فى عام ثمان وخمسين وخمسمائة : (فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن على ، وخلفه من بعده فى الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض ، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه ولقبوه أمير المؤمنين ، وقد كان عبد المؤمن هذا حازمًا شجاعًا ، جوادا معظمًا للشريعة ، وكان من لا يحافظ على الصلوات فى زمانه يقتل ، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق فى المساجد ، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع ، ولكن كان سفاكا للدماء ، حتى على الذنب الصغير ، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء ...) [٢] .

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن على يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد ، حيث انشغل بالأمور السياسة والعسكرية ، واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى ، كرمز على محبته له ولدعوته ، أما العمل على تأصيلها

(١ ، ٢) انظر : سقوط دولة الموحدين ، ص(٧٨) .

فى نفوس الناس ونشرها فى أماكن جديدة . فلما يذكر المؤرخون - على حسب اطلاعى - أنه قام بشيء من هذا ، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت فى تلك الديار ، ولم تتأصل محبتها فى قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة فى عصر ابن تومرت ، ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنبا إلى جنب مع الظل السياسى للدولة فى عهد عبد المؤمن ، وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمى الذى وضعه ابن تومرت ، وأصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ، وكان ذلك تكتيكا من عبد المؤمن لكى يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت ، إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جادا فى الالتزام الحرفى لدعوة ابن تومرت ، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو فى بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التى جعلته يحجم عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له، مما يعرض دولته للخطر [١] .



(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد السادس ، ص(٥٧٢ ، ٥٧٣) .



المبحث الثاني

أبو يعقوب يوسف

أبو يعقوب يوسف :

هو السلطان الكبير ، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن على ، صاحب المغرب قيل : إنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه ، وشربه الخمر ، فخلع بعض شهر ونصف ، وبويع أبو يعقوب ، وكان شابا مليحا ، أبيض بحمرة ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، تام القامة حلو الكلام فصيحا ، حلو المفاكهة ، عارفا باللغة والأخبار والفقه ، متفننا ، عالى الهمة ، سخيا ، جوادا ، مهيبا ، شجاعا خليقا للملك [١].

أولا : علمه وبيعته :

١ ـ علمه :

قال عبد الواحد بن على التميمى : صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ، أظنه البخارى قال : وكان سديد الملوكية ، بعيد الهمة ، جوادا ، استغنى الناس فى أيامه . ثم إنه نظر فى الطب والفلسفة ، وجمع كتب الفلاسفة ، وتطلبها من الأقطار ، وكان يصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف ، فكان لا يصبر عنه ، وسمعت أبا بكر بن يحيى الفقيه ، سمعت الحكم أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب ، وجدته هو وابن طفيل فقط ، فأخذ ابن طفيل يطربنى ، فكان أول ما فاتحنى أن قال : ما رأيهم فى السماء ؟ أقديمة أم حادثة ؟ فخفت وتعللت ، وأنكرت الفلسفة ، ففهم ، فالتفت إلى ابن طفيل ، وذكر قول أرسطو فيها ، وأورد حجج أهل الإسلام ،فرأيت منه غزارة حفظ ، لم أكن أظنها فى عالم ، ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت ، ثم أمر لى بخلعة ومال ومركوب [٢] .

قال عنه العلامة شوقى أبو خليل : (أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٩) .

(٢) المصدر السابق (٢١/ ١٠٠) .

لأيامها ومـآثرها وجميع أخبـارها فى الجاهلية والإسلام وأحسن النـاس ألفاظا للقرآن الكريم ، وأسرعهم نفـوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهـم للغة العربية، وكان بـعيد الهـمة ، سـخيـاً جوادًا ، اسـتغنى الناس فى أيامـه وكثـرت فى أيديهم الأموال، هذا مع إيثـار للعلم شديد وتعطش إليه مـفرط ، صح أنه كان يحـفظ أحد الصحيحين ،وأغلب الظن أنه البخارى ،حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم، هذا مع ذكر جميل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحـر فى علم النحو حـسبمـا تقدم . وطمع به شرف نفـسه وعلو همـته إلى تعلم الفلسفة والطب ... وجمع مكتبة ، كان ما فيها قريبا مما اجتمع للحاكم المستنصر بالله الأموى ثانى الخلفـاء بالأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ) حيث احتـوت مكتبته على أربعـمائة ألف مجلد .

ب- بيعته :

يرى الأستـاذ الدكتور مـراجع عقيلة الغنائـى أن بيعة يوسف بن عـبد المؤمن تمت بمؤامرة دُبرت بزعامـة الأخوين عمر ويوسف ابنى عبد المؤمن والحـزب الموالى لهما ، وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمـن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور فى الدولة ،وأن ينظم كـتلة من الموحدين ترتبط مصالحـها به ، ولذلك أصبح عليه من السـهل تدبير أمر خلع أخيه غـير الشقيق ، مـحمد ، ووضع أخيـه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه . ولربما كـان عمل الأمير عـمر ، بجعل الإمارة لأخـيه يوسف بدلاً منه -وهو الشخصيـة ذات القوة والنفوذ- إنما كان يبعد نفســه عن شبهة التـآمر ، والذى يرجح الفـرض القائل بوقـوع المؤامرة فى خلـع محمـد ورفع أخـيه يوسف، أن بعضًـا من أبناء عبد المؤمن رفضـوا فى أول الأمر المبايعة لأخـيهم يوسف فقد رفض السـيد أبو سعيد عثمـان والى غرناطة ، والسيد أبو محمـد عبد الله والى بجاية ، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة .

ولذلك لم يستطع يوسف بن عبد المؤمن أن يُسمى باسم أمير المؤمنين ،وإنما اكتفى باسم الأمير . كما أن رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة

التى كانت نازلـة بمدينة سلا [١] لذلك ألغى مشروع العـبور إلى الأندلس ، وأعطيت الجنود الأمر بالرجـوع إلى مواطنهـا ، كما أخذ شـيوخ الموحدين يـعملون على إزالة الشكوك من نفـوس الموحـدين [٢] ، فـابن صاحب الصـلاة يقول : (ووعظ الشـيخ المرحوم الموحـدين أجمع على طبقـاتهم ومراتبهم وذكرهم بما يـجب عليهم فى دينهم وصلاح يقـينهم ،وعرفهم بما أوجب الله عليـهم من مفروضـهم ومسنونهم ، وبحق البيعة، ولم يُعلم أحدًا بالوفاة ،واشتد عليهم فى لزوم الصلاة والضرب بالسياط لأهل الفـسق والجناة ، وشغلهم بأنـفسـهم من الحديث بالخـزعبـلات . وألزم الحفـاظ من الموحدين وغـيرهم عند المساء وعند الفراغ من صـلاة الصبح بقراءة الحـزب، واشتد عليهم فى ملازمة ذلك بأعـظم الاشتداد ، ثم نفذ الأمر من الأمير بانصـراف العساكر المجتمـعة إلى قبائلهم ومـواضعهم وتأخر العرض إلى وقت يأذن الـله به من إزماعهم واجتماعهم . .) [٣] .

وسعى شيـوخ الموحدين فى سبيل الإصـلاح بين الأخوة والتوفيق بينـهم، وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد ، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن فى منتصف جـمادى الآخـرة من سنة ثلاثة وستين وخـمسمـائة (٥٦٣هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين ، وهو الاسم الخلافى عند الموحدين [٤] .

ثانيا : سياسة يوسف بن عبد المؤمن فى الأندلس :

كانت سيـاسة الموحدين بالأندلس فى عهد يوسف بن عـبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور :

١- المحـور الأول : استكمال السيادة الموحـدية على الأندلس ، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم .

(١ ، ٢) انظر: سقوط الموحدين ص(٨٥) .

(٣)ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص(٢٣١ - ٢٣٣) .

(٤) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٨٨) .

٢- **المحور الثانى :** العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية .

٣- **المحور الثالث :** المساهمة فى ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأندلس .

إلا أن الثورات العنيفة التى تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها ،وكانت حركة التمرد التى قادها محمد بن مردنيش فى الأندلس من أعنفها .

ينتسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد واليا للموابطين على إفراغة [١] .

تولى محمد بن سعد بن مردنيش حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض ، يوم الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ) الموافق ٢١ أغسطس سنة (١١٤٧) ثم قام على بن عبيد والى مرسة بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها فى جمادى الأولى سنة (٥٤٢هـ) وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوبًا .

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ،ودخل فى أحلاف وعهود ومواثيق مع ممالك النصارى وإمارتها ضد الموحدين ،وكان غرض الإسبان النصارى فى الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره ، أنهم وجدوا فيه خصما عنيدا للموحدين ، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب ، كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش ، هو ألا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية ، وثانيا: إبقاء المسلمين فى حالة فرقة وتفكك .

إلا أن توسع الموحدين فى بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم، وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين، الذين كان وجوده يعتمد عليهم فى المقام الأول.

---

(١) المصدر السابق ، ص(٨٩) .

ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع فى البلاد الأندلسية ، وأن أغلب إماراته وولاياته دخلت فى حوزتهم ، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين - سواء عن طواعية أو كره منهم - رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه، وأن مآل إمارته التى جهد فى إقامتها ، هو الوقوع فى أيدى الموحدين ، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ، ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه، وأخذت نفسيته تشذ فى تصرفاتها ، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم ، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكرى ، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون . ومنها: أنه قتل وزيريه ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا .

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقا فى البحر ، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال ، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبًا وخاصة أقرب الناس إليه ، وتوالت النكبات على ابن مردنيش ، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ ، عام ٥٦٧هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين ، وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين ، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية [١] .

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين :

لقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة فى شرق الأندلس ،وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم فى نفوس النصارى الإسبان أولاً، ثم أمراء الأندلس ثانيا ، ثم المغاربة ثالثا ، وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش ، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم ، فقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين ، وأن يستولى على الكثير من القواعد المهمة التى كانت فى أيديهم ،وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة ، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٩٠ ، ٩١) .

أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة ، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين ، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم ، كانت إحدى البذور التى أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها [١] .

ثالثا : الثورة فى المغرب الأقصى :

وفى عام ٥٥٩هـ-١١٦٤هـ قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن ،وتزعم تلك الثورة مرزدغ الصنهاجى ، وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة ، وقام الثوار بمهاجمة النواحى ودخلوا تازا، حيث قُتل رجالها وسُبى نساؤها واحتويت أموالها ولم يتوان خليفة الموحدين فى إرسال جيش للثوار ففض جموعهم وقضى على زعمائهم [٢] .

وكانت هذه الثورة هى أول شرارة للثورات التى قامت فى المغرب الأقصى منذ ٥٦٠هـ فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى ، قادها سبع بن منحفاد وخلفه قبيلة غمارة ، وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين ، ولذلك خرج لهم الخليفة الموحدى على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها ، وفى الثالث من شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وخمسمائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلى هذا الجبل . وكانت هذه الهزيمة سببًا فى دخول الكثيرين من غمارة فى طاعة الموحدين ، وأصبحت قوات الموحدين تحرز انتصارًا بعد انتصار، وتلاحق المتمردين من الثوار ،حتى استطاعت أن تلقى القبض على سبع بن منحفاد، ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك فى عام ٥٦٢هـ . وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التى هزت كيان دولتهم ،وأضعفت قوتهم وأوهت شوكتهم . وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين .

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتى صنهاجة وغمارة ، حتى التهبت

---

(١) المصدر السابق ص(٩١ ، ٩٢) .

(٢) انظر: المصدر السابق ، ص(٧٥) .

ثورة أخرى فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ) ، ووقعت بجبل تاسررت فى المغرب الأقصى ونواحيه ،وجرد جيش موحدي قوى إلى الثوار ، بقيادة السيد أبى حفص عمر ، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها .

بعد ذلك هدأت الأمور فى دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد ، سواء فى المغرب أو الأندلس ، ودخلت دولة الموحدين فى فترة من الهدوء عمَّها الاطمئنان والراحة ، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية [١] .

رابعا : الثورة فى المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى :

بسبب الظلم الذى تعرض له أهل قفصة فى المغرب الأوسط اندلعت ثورة ابن الرند فى عام ٥٧٥هـ ، واستطاع على بن المعز بن المعتز الرندى أن يتخلص من حكم الموحدين فى قفصة ، وساعدته عدة أسباب فى تحقيق هدفه منها : ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحدين ،ونجاحه فى الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدى الموحدين ، وكان قراقوش هذا مرسلا من قِبَل الأيوبيين فى مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية فى بغداد ،كما أن الانشغال الذى حدث للموحدين بسبب الثورات فى الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة فى السعى من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة ، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة ، وخاصة أن قراقوش التقوى اشتهر صيته فى إفريقية وقوى سلطانه، وتحالفت معه قبائل من بنى هلال وبني سليم ، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات وانتشار أعمال التمرد ،ومن حدوث تحالف ثلاثى فى المغرب الأوسط والأدنى بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بنى هلال وسليم ، ولذلك بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش فى عام ٥٧٥هـ ، واستطاع يوسف بن عبد المؤمن بأن يحتل قفصة فى عام ٥٧٦هـ ثم، أخذ الخليفة بعد ذلك فى المرور على

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(٩٦ـ ٩٨) .

بعض ولايات إفريقية ومدنها ، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها ، وبعد أن رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد على ابن الرند الذى لجأ إلى الخليفة مستسلمًا وتائبًا وطالبًا للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة [١] .

لقد ساهمت الثورات التى حدثت ضد دولة الموحدين فى تشجيع ملوك وأمراء الإسبان ، على الطمع فى دولة الموحدين ،وأحيت فيهم روح القتال والحرب التى كادت تنتهى فى عهد عبد المؤمن بن على ، ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد [٢] .

خامسا : غزو الخليفة الموحدى لبلاد الأندلس :

لما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن فى بلاد المغرب ، انصرف إلى الجهاد فى الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى إسبانية فى صفر سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧١م ، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذى توفى عام ٥٦٧هـ ، فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين ، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارى ، ومكث فى الأندلس أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، حقق فيها نجاحات رائعة ، ثم عاد إلى مراكش عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م بعد أن بنى جامع إشبيلية ، وأدخل الماء إليها وأقام جسرًا على واديها .

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى فى الأندلس على شدتها ، برية وبحرية، ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التى أحرزتها قواته فى جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس فى صفر ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وصمم على قتال مملكة البرتغال التى كانت أشد الأعداء على المسلمين ،ووضع خطة تقضى أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ،ص(١٠٠) .

(٢) المصدر السابق ، ص(١٠١) .

من البر والبحر ، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتى قشتالة وليون ، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى تزحف من الجنوب بقوات النصارى القشتالية والليونية ، وساعده فى تحقيق خطته الضخمة ، قوة مسلمى الأندلس . سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسى متجها إلى بطليوس ، معتزما حصار إشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح ، أن يستولى على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى ، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه ، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين ،مؤملاً أن تسقط فى يده قبل مقدم الأسطول الذى خصص لمحاصرة إشبونة من جهة البحر .

وبعد أحد عشر يوما من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار، ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، حتى استولى أبو يعقوب عليها ، خلا قلعتها ، وذلك فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه ،معتبرا القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك سبب المرارة الشديدة فى نفوس أولئك القادة المجربين ، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقى شنترين إلى شماليها وغربيها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء، ولكن إرادة أبى يعقوب يوسف هى التى نفذت دون سواها ، فكان الخطر، ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده أبا إسحاق والى إشبيلية أن يبكر فى صباح اليوم التالى بالسير فى قوات الأندلس والقيام بالهجوم فى اتجاه إشبونة ، وذلك لكى يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة ، فهل وقع سوء فهم ، أم كانت ثمة فتنة ؟ .

إن أبا إسحاق سار فى الليل بدلاً من أن يسير فى الصباح ، وبدلاً من أن يسير فى اتجاه إشبونة عاد فعبر نهر التاجة، وسار بقوات الأندلس فى اتجاه إشبيلية ، وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع فى أنحاء المعسكر الإسلامى ، وتفاقم الأمر ، حيث زحف سان ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا فى جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل ، وفى تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع فى

تنفيذ خطة لمهاجمة مدينة الكوبازة ،بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالى وجهًا لوجه .

وكان تغيير مواقع المعسكر الذى أمر به أبو يعقوب ، خلافًا لنصح قواده ، ووجود الجيش البرتغالى فى مركز يهدد المسلمين ،ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة ، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعى ، وأخيرًا ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت فى معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام ،ترتب عليه أن غدت أوامر أبى يعقوب لا قيمة لها . وفى صباح اليوم التالى وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل ، وانضم إلى جيش البرتغال الذى يقوده ولى عهد سانشو ، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم فى اضطرابهم واختلال نظامهم ، وساعدت حامية قلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة ، ومهاجمة المسلمين[1]، ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة ، فإنه لم يبق لدى أبى يعقوب سوى حرسه الخاص ، وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل العتاد والمتاع التى لم تستطع لحاقا بباقى الصفوف . ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية خيانة ، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح ، فقد قتل حرس أبى يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال ، وأخيرًا طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخًا بدمائه [2] .

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة ، فتح المسلمون فى نهايتها قلعة شنترين[3] .

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى ١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ / ٢٤أيار (يوليو) سنة ١١٨٤م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاما .

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية ، وأرسل منها في تابوت إلى تينمل حيث

(١ ـ٣) انظر: الأرك، شوقى أبو خليل ، ص(٤٢) .

دفن بجوار أبيه عبد المؤمن[1] .

سادسا : أسباب فشل أبى يعقوب يوسف فى توحيد الأندلس :

لم يستطع السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصرًا حازمًا على النصارى في الأندلس لعدة أسباب ،ومنها :

١- لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكرى والسياسى ، ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التى تحتوى على عناصر مختلفة من قبائل بنى هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدى ، وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها ، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام ٥٦٧هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخرًا عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردى من الخليفة الموحدى ، والذى كان هو صاحب الرأى النهائى والقاطع فى إدارة قيادة الجيش، وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحيانا ، فهو قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة وندة ، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه ، ثم إنه أثناء مسيره إلى وندة ، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصنى ولج والكرسى وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك .

٢- ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين : عدم تقديره للظروف ،وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق ،وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة وندة تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان ، وكان من المشرف له أنه قَبِل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أى جهد كان .

٣- كانت للخليفة الموحدى ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية، ولذلك نجد الخليفة الموحدى بدلاً من أن يكون مشرفا على تسيير دفة المعارك - وهو القائد الوحيد والمسؤول الأول - مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة ، فعندما كانت جيوش الموحدين تحاصر مدينة وندة جاءه

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٨٠١) .

أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر ، فلم يلتفت إليه واستمر فى مناقشة تلك المسائل [١] .

٤- لم يكن ولاء المسلمين قوى لدولة الموحدين ، ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين.

٥- انتشار الخيانة فى أداء الواجب والتعدى على أموال الدولة من قبل الولاة فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة فى الأموال التى اغتصبوها ، ونفيهم من البلاد ،ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام ، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة، وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية، وواصلوا جهادهم السلمى بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة ، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولى الدولة، ومن أشهر هذه الحوادث :

محاسبة محمد بن أبى سعيد مسؤول الأعمال المخزنية فى إشبيلية وثبتت عليه خيانته للدولة ، فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن فى نفسه طويلا ،ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام ٥٧٣هـ [٢] .

٦- انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام ٥٧١ هـ، واستمر لمدة عام تقريبا بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى . وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحدين، منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن على . وقد أصيب الخليفة الموحدى نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر ، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا ، وكاد هذا المرض أن يقضى على من كان بدور الخليفة وأهله ، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى ، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم فى عامة مساجد مراكش ، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك ، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهر ، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتى وافد إليها [٣] .

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص(١٢٠) .

(٢) المصدر السابق ، ص (١٢٧) .

(٣) المصدر السابق ، ص(١٢٩) .

ومن كبار الشخصيات التى قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وهو أحد طبقة الجماعة ، ومن كبار الشخصيات التى ساهمت فى إقامة دولة الموحدين ، وقد كان قادمًا من قرطبة إلى مراكش فأصيب فى الطريق ومات عام ٥٧١هـ ، وكان لهذا الوباء الذى فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس أثره فى إضعاف المعنويات ، وفى قلة الأيدى العاملة ، وتعطل التجارة ، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية ، وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادى ومعنوى سيئ على الرعية ، وشجعت هذه الظروف العصيبة التى تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين ، ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين ،وأخذت تعبث فى بلاد الأندلس بالفساد [١] (وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة) [٢] ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين [٣] .

٧- تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدى : وهذه القبيلة ينحدر منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ،ففي سنة ٥٧٨هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدى فى مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذى يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين :

الأمر الأول : هو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التى تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفا من التفاف قبائل الموحدين حولها .

والأمر الثانى : فإن معدن الفضة يمثل مورداً ماليًا مهمًا لخزانة الموحدين ، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزانة بضربة عنيفة .

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش فى صفر سنة ٥٧٨هـ على رأس قواته ، ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته،

(١) سقوط دولة الموحدين ، ص(١٢٩) .

(٢) البيان المغرب (٣/ ١١٠) .

(٣) انظر : سقوط دولة الموحدين ، ص(١٢٩) .

واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن . ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم ، ووضع عليه جندا لحراسته ، لقد كان لهذه الثورة أثر فى إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم(١) .

٨- ضعف التكتيك العسكرى عند الخليفة الموحدى ،وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ، ويظهر ضعف تكتيكه العسكرى فى حصر جيوشه الضخمة فى مهاجمة نقطة صغيرة ، كما فعل ذلك فى مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالى ، مما أتاح للملوك وأمراء الإسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم فى مركز قوة .

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته ، وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف، فتؤدى إلى انهزام النصارى (٢) .

استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفًا عدائيًا واحدًا منهم (٣) .

هذه أهم الأسباب التى منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامى تحت لوائهم ونفوذهم سلطتهم ، لقد كان يوسف ابن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامى كله ، وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوى فى بعض أشعاره فى قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن :

ستملك أرض مصر والعراقا ويجرى نحوك الأمم استباقا

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ، ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من

---

(١) المصدر السابق ص(١٣١) .

(٢) سقوط الموحدين ، ص(١٥٤) .

(٣) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، العبادى ص(١١٥) .

الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة ،بعكس يوسف بن تاشفين الذى أبدع فى صقل قادته ودفعهم نحو المعالى ، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أى حال فأبو يعقوب يوسف كان دائما رجلاً مريضًا، وفى تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضا طريح الفراش ، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار [١]

توفى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى السابعة والأربعين من عمره ، وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده فى بناء الدولة ، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين فى تاريخ المغرب الإسلامى [٢] .



(١ ، ٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس ، حسين مؤنس ، ص(١٩٤) .



المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً : اسمه وشيء من سيرته :

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولا : اسمه وشيء من سيرته :

هو أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد المؤمن بن على، القيسى الكومى صاحب بلاد المغرب ،كان صافى السمرة جدًا إلى الطول ما هو ، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ،ضخم الأعضاء جهورى الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثًا وأكثرهم إصابة بالظن ، مجربا للأمور ،ولى وزارة أبيه ،فبحث عن الأحوال بحثًا شافيًا وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات والده اجتمع رأى أشياخ الموحدين وبنى عبد المؤمن على تقديمه ،فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ،ولقبوه بالمنصور فقام بالأمر أحسن قيام ،وهو الذى أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر فى أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته الأقربين ،كما أقامها فى سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال فى أيامه وعظمت الفتوحات [١]

ولما مات أبوه كان معه فى الصحبة ، فباشر تدبير المملكة من هناك ، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس ، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين فى مراكزها ومهد مصالحها فى مدة شهرين[٢]

١- إصلاحاته فى منهج دولة الموحدين :

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت [٣] وجالس الصلحاء

(١ ، ٢) وفيات الأعيان(٧/ ٤) .

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦) .

والمحدثين ،ومال إلى الظاهر وأعرض عن كتب المالكية ، وأحرق ما لا يحصى من كتب الفروع [١] .

قال عبد الواحد بن علي : كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها ، فتحرق ، وتهدد على الاشتغال بالفروع ، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من (الكتب الخمسة) ، و(الموطأ) ، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدارقطني وسنن البيهقي، وكان يملي ذلك بنفسه على كبار رجال دولته وحفظ ذلك خلق ، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة [٢] . وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل ، قال مرة لعبد الواحد بن علي : (أنا أنظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين أرأيت المسألة فيها أقوال ، ففي أيها الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي ، وقال : ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى (سنن) أبي داود ، أو هذا ،أشار إلى السيف [٣] . قلت : والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب والاطلاع ،ما دامت على أصول أهل السنة والجماعة، وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمود زنكي حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تنشط في دعوتها ودعم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفيا ، واهتم بالمحدثين ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم ، وكذلك القراء والحفاظ ،وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السنة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى ، وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى .

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب المنصور وبعض حكام الموحدين جعل أسباب تفجر الثورات الداخلية متواجدا . لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادئ نظرة معادية اتسمت بالحقد والكراهية ، على أنهم من غير أهل الإيمان ،فعاملوهم بقسوة بالغة ، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء

---

(١) المصدر السابق (٢١/ ٣١٣) .

(٢، ٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤) .

موجـة من الذعر والخوف ، ولـعل أوضح مثال على هذه الحـالة ما جـاء على لسان الوهراني بعد سقوط دوله المرابطين بقـوله : (لما تعذرت مآربى واضطربت مغاربى ، ألقيت حبلى على غاربى ، وجعلت من مذهبـات الشعر بضاعتى ومن أخلاق الأدب رضاعتى [١] .

وعبر الوهرانى عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب عن سؤال حول رأيه فى عبد المؤمن بن على الموحـدى وأولاده وسيرته ببلاده فقال :(مـؤيد من السماء ، خواض للدماء ،مسلط على من فوق الماء ، حكم سـيفه فى المعمم وأعمله فى رقاب الأمم . . ولو أن للعلم لساناً والورقه إنساناً لتألمت وتظلمت ... ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ،ومسالمة الأفاعى أنجح) [٢] .

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبى ، الذى يصف المقرى أحواله فى كتاب «نفح الطيب » بقوله: (وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره فى قرطبة أقام بالأسكندرية خوفـاً من بنى عبد المؤمن بن على ، ثم قـال : كأنى والله بمراكبـهم قد وصلت الى الأسكندرية ، ثم سـافـر إلى مصـر ، وأقـام بهـا مدة ثم قـال : فـوالله مـا مصـر والأسكندرية بمتبـاعدين ، ثم سافر إلى الصـعيد ، وحدّث بقـوص بالموطأ ثم قال : ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون ،مـا أنا إلا هربت منه إليه ، ثم دخل اليمن ولما رآها قال : هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتـوجه إلى الهند ، حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١ هـ، وقيل : باليمن)[٣].

ولله در الإمام مالك فى نصحه لأبى جعفر المـنصور العباسى عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ :

قال أبو مـصعب : سـمعت مالكًا يقـول : دخلت على أبى جعـفر بالغـداة حين

---

(١) الدور الفكرى للأندلسيين والمغاربة فى المشرق ، د. على أحمد ، ص(٨٦) .

(٢) الدور الفكرى للأندلسيين والمغاربة فى المشرق ، ص(٨٥ ، ٨٦) .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص (٨٧).

وقعت الـشمس بالأرض ، وقد نـزل عن شماله إلى بـساط ، وإذا بصبى يـخرج ثم يرجع ، فقال أبو جـعفر : أتدرى من هذا ؟ قال : لا. قـال : هو والله ابنى وإنما يفزع من شيبتك ، وحـقيق أنت بكل خير ، وخليق بكل إكرام ، يقـول مالك : وقد كان أدنانى ، وألصق ركبته بركبتى ، فلم يزل يسألنى حتى أتاه المؤذن بالظهر ، فقال لى : أنت أعلم الناس ، فـقلت : لا والله يا أمـير المؤمنين ، فـقـال : بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهـب ، ثم أعلقه فى الكعبة ، وأحمل الناس عليه . فقلت : يا أمـير المؤمنين لا تفعل ، فإن فى كتـابى حديث رسول الله ﷺ ، وقول الصحابة ، وقول التابعـين ، ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم ، غير أنى لا أرى أن يعلق فى الكعبة[1].

وفى رواية : يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى البلاد ، فأفتى كل فى مـصره بما رآه ، فلم يزل يؤخـذ عنهم كـابراً عن كابر إلى يومنا هذا ، فـإن ذهبت تولِّهم عما يعرفون إلى ما لا يعـرفون رأوا ذلك كفرًا ، فأقر كل أهل بلد على ما فيها من العلم ، وخذ هذا العلم لنفسك[2].

لقد كـان عصر أبى يوسف يعقـوب المنصور من أفضل عصـور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق عـلى بعض الأخطاء التى حـدثت فى فتـرته ، وإن كـان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عند الموحدين، مثل زعمهم العصمة لابن تومرت [3] وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ذكر الذهبى أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هانى الجيانى : ما قرأت؟ قال : تواليف الإمام - يعنى ابن تومرت - قال: فزورونى [4] وقال : ما هكذا

---

(١) انظر : الإمام مالك بن أنس ، عبد الغنى الدقر ، ص (١٣٣) .

(٢) انظر : الإمام مالك بن أنس ، عبد الغنى الدقر ، ص(١٣٤) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦) .

(٤) أى : نظر إليه نظرة المغضب .

يقـول الطالب ! حكمك أن تقول : قـرأت كتـاب الله ،وقرأت من السنة ، ثم بـعد ذلك قل ما شئت [١] .

وكان مجلسه عامرًا بالعلماء وأهل الخير والصلاح ، يقول تاج الدين ابن حمويه : دخلت مراكش فى أيام يعـقوب ، فلقد كانت الدنيا بسـيادته مجملة ، يقـصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده ، فأعـذب موردى ، وأنجح مقصدى ، وكانت مجالسه مزينة بحـضور العلماء والفـضلاء ، تفتـح بالتلاوة ثم الحديث ، ثم يدعـو هو وكان يجيـد حفظ القرآن ، ويحـفظ الحديث ويتكلم فى الفـقه ، ويناظر ، وينسـبونه إلى مذهب الظاهر ، وكان فصـيحًا ، مهيبًا ، حـسن الصورة ، تام الخلافة ، لا يُرى منه اكفهـرار ، ولا عن مجالسه إعراض ، بزىٍّ الزهاد والعلمـاء ، وعليه جلالة الملوك ، صنف فى العبادات وله (فـتاوى) وبلغنى أن السودان [٢] قدّموا له فـيلا ًفوصلهم ، وردّه ، وقال : لا نريد أن نكون أصحاب الفيل وكان يجـمع الزكاة ويفرقها بنفسه ، وعمل مكتـبا للأيتـام ، فيه نحـو ألف صبى ، وعـشرة معلمـين . حكى لى بعض عماله، أنه فرق فى عيد نيفا وسبعين ألف شاة[٣] .

وكـان يهتم بطلاب العلم الـذين يأتون من الآفاق . وقـال ذات مرة : يا مـعشـر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه أمر ، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء - يعنى طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا ، فعظموا عند الموحدين[٤] وكان يجمع الأيتام فى العام، فيأمر للصبى بدينار وثوب ورغيف ورمانة ، واهتم بالمرضى وبنى لهم مـارستان وغرس فيه من جمـيع الأشجار ، وزخـرفه وأجـرى فيه الميـاه ، ورتب له كل يوم ثلاثين دينارا للأدوية ، وكان يعود المرضى فى الجمعة [٥] .

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطب والهندسة [٦] .

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦) .

(٢) تطلق على بلاد غرب إفريقيا وجنوب الشمال الإفريقى سابقا .

(٣ ، ٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤) .

(٥) المصدر السابق (٢١/ ٣١٥) .

(٦) المصدر السابق (٢١/ ٣١٧) .

وحارب الخمر فى ملكه وتوعد عليها فعدمت[١] .

قال عنه ابن كثير : (كان دينا حسن السيرة صحيح السريرة ، وكان مالكى المذهب، ثم صار ظاهريا حزميا ثم مال إلى مذهب الشافعى فى بعض بلاده منهم قضاة وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة ، وكان كثير الجهاد (رحمه الله) ، وكان يؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وكان قريبا إلى المرأة والضعيف (رحمه الله)[٢] .

وقال عنه ابن العماد : (كن ذكيا شجاعًا مقدامًا محبًا للعلوم ، كثير الجهاد ميمون التقية ظاهرى المذهب معاديًا لكتب الفقه ،أباد منها شيئًا كثيرًا بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر)[٣] .

وربما كان فعل أبى يوسف بن يعقوب المنصور فى حرقه لكتب الفروع إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت و،التى أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا أستبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبى يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس[٤] .

إن هذا السلطان طلب من أبى العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المرى - أحد المقربين إليه - أن يشهد له بين يدى الله عز وجل بأنه لا يقول بالعصمة - يعنى عصمة ابن تومرت - ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبذ تعاليم ابن تومرت التى توغلت فى قلوب بعض الناس فى المغرب والأندلس .

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا فى تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به ، أو دعا إليه (لأنه لا يرى شيئًا من هذا كله وكان لا

---

(١) نفس المصدر (٢١/٣١٨) .

(٢) البداية والنهاية المجلد السابع الجزء (١٣/٢٢) .

(٣) شذرات الذهب (٤/ ٣٢١) .

(٤) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحا .

يرى رأيهم فى ابن تومرت . . .)[١] .

ولعل هذا الشعور هو الذى دفعه إلى أن يؤثر فى الطلبة الذين جاؤوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم فى حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه فى نفوسهم ، فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً : (... يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعنى الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم وإليّ ينتسبون)[٢] .

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محور الباطل من دعوة ابن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت ، وهى مدة قصيرة فى عمر الدعوات ، لأن ما تحمله دعوة ابن تومرت من جنوح فى بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [يونس: ٨١] ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [الرعد: ١٧] .

إن المنصور الموحدى لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت ، لأن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى - لا سيما العامة وشيوخ الموحدين وزعماء القبائل- قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت ، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه ، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت ، لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم ، قد لا يستطيع رده أو التصدى له ، وهذا بلا شك جعله يكتفى ببيان موقفه منها دون اتخاذ أى خطوات عملية ضدها ، ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد ، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت ، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة ، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت ، مما دعا الكثير من الموحدين -لا سيما المنصفين

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، ص(٥٧٥) .

(٢) انظر: نفس المصدر السابق ، ص(٥٧٦) .

منهم - إلى التمعن فى حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف ، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح فى تفكيرها، مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئا فشيئا (١) .

ثانيا : سياسة أبى يوسف يعقوب المنصور فى الحروب :

تعتبر السنوات الخمس عشرة التى حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثالث الخلفاء الموحدين ، العصر الذهبى للدولة الموحدية ، والذروة التى وصل إليها التطور السياسى فى المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية .

ولقد كان ذلك العصر الذهبى قصيرًا ، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين ، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلادًا تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم ، وكانت تحت إمارتهم حشود من الجند القوى القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول فى التاريخ الإسلامى ، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً ، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتها الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها ، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة (٢) .

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائما مفككة ، تنقصها القيادة الحازمة التى تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة ، وكان الرجل فى نفسه كذلك رجلاً حازمًا موهوبًا فى شؤون الإدارة والقيادة العسكرية ، وكان شديد الإيمان، فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين فى أيامه قوة ضاربة كبرى (٣) .

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، ص(٥٧٥) .

(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص(١٩٤) .

(٣) المصدر السابق ،ص(١٩٥) .

١ - الصراع مع بنى غانية المرابطين :

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة فى المغرب الأوسط ضد الخليفة أبى يعقوب يوسف المنصور ،واستطاعوا أن يحتلوا مدينة باجيه بأربعة آلاف من الطوارق الملثمين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك ، وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بنى غانية التى لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت فى النهاية من أسباب سقوط الدولة .

كان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال فى قرطبة فى عهد الخليفة المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ، ثم تولى أخوه ابن غانية حكم جزر البليار وهى الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين . وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الأندلس ظل بنو غانية لا يخضعون لسيطرتهم، وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مردنيش عام ٥٦٧هـ ١١٧١م ، وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى ، وكان على حكم جزر البليار فى ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية ، وقد كان يريد الدخول فى طاعة الموحدين ، لكن إخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلاً منه أخاه على بن إسحاق الذى بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الزمن .

ويرجع أصل بنى غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية ،وعرفوا ببنى غانية على اسم أمهم ،وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين .

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين ، وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية ، واشتهروا بالغزو البحرى لجنوب فرنسا وقطلونيا ، وساروا على سنة أسلافهم فى العقائد والتزام منهج أهل السنة والدعاء للخليفة العباسى فى بغداد ، واتخاذ ألويتهم السوداء شعاراً لهم ، وهادنوا الموحدين بعض الوقت ، ولما مات الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيء، استغل بنو غانية هذا الاضطراب وأظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة

المهادنة واستولوا على أسطول موحدى ضخم عندما كان فى زيارة الجزر الشرقية ، ثم خرجوا بأساطيلهم ، ورجـالهم إلى المغرب الأوسط عام ٥٨١/ ١١٨٥م ،وتحالف بنو غـانية مع قـبائل بنى سـليم وبنى هلال ومع جنود الغـزو المملوكى الذى كان يقـوده قراقوش التقـوى، و أعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفع شـعارهم ، وأصبح المغرب الأوسط والأدنى تابعًا وخاضعًا لأتباع الخلافة العباسية .

وكان أول عـمل قام به المنصور يعـقوب بن يوسف هو الشروع للقـضاء على بنى غانية ، فأرسل العيون والأعوان إلى المغـرب الأوسط إفريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثى بين بنى غانية والقبائل العربية ،أتباع قـراقوش ، وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان، وشرع فى إرسال الجيوش ،تتلوها الجيوش وانكسرت بعض جيوش الموحدين وارتفعت معنويات بنى غانية أمام الموحدين ،إلا أن السلطان يعقوب ابن يوسف استمـر فى إرسال الحملات وفقد الألوف من جنوده ومن خـيرة رجاله ، وأنفق الملايين من الأموال ، وكان بنو غانية وحلفاؤهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم، فكلما تضيق عليـهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثـون أن يعودوا من جديد ، واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن فى الـنهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها ، وقاد العمليات العسكرية بنفسـه عام ٥٨٢هـ/ ١١٦٨م وجعل من مدينة تونس مـقرًا لقيادته ، واسـتطاع بفضل حزمه وشجاعته أن ينتصر عـلى الثوار ،وفر على بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مـات عام ٥٨٤هـ . وانضم إلى جـيوش الموحـدين كثـير من الأعـراب والأتراك واستطاع يعـقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغـرب كلها غربهـا وشرقهـا إلى المحيط الأطلسى غربا . لقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاة ، واهتم بإدارة الأمـوال ونقل معـه كثـيرًا من الـقبـائل العربيـة إلى المغرب الأقـصى ، ليستخدمها فى الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة .

لقـد استطاع أبو يـعقـوب يوسف المنصـور أن يؤمن خط ظهره ويـوحد الجـبهـة

الداخلية، وأعاد تنظيم البيت المغربى الموحدى من الداخل ، وأمن خطر القبائل العربية ووظف طاقاتها فى حربه فى الأندلس ، لقد كان هذا العمل الحاسم القوى فى توحيد الجبهة الداخلية سببا من أسباب انتصاره على النصارى فى الأندلس فى معركة الأرك الكبيرة .

لقد كانت أهداف أبى يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم فى حركته، ولذلك أرجأ جهاد النصارى فى الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بنى غانية وحلفائهم ، وهذا يدل على عمق تفكيره الاستراتيجى وبعد نظره العسكرى [(١)] .

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم فى حياتنا المعاصرة ،ألا وهو: إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس ،فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامى الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة ، وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود .

إن تحرير بيت المقدس ما تم ذلك الفتح الميمون إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام، وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدريج المدروس والهمة العالية فى تحقيق الأهداف السامية .

ب- جهاده فى الأندلس :

بعد استشهاد السلطان الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى الأندلس ٥٨٠هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين :

١- انشغال الموحدين بثورات قامت فى إفريقية ، ومرض أبى يوسف المنصور فى مراكش، فقد كان يرغب فى تولى أمر الجهاد بنفسه .

٢- الخلاف الذى وقع بين ملوك الإسبان فى تلك الفترة ، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ، ولكن بعد وفاة المطران

(١) انظر: موسوعة المغرب العربى (٣١/ ٢٢٤-٢٢٧) .

(جونزالو) وتعيين (مارتن دى بسيرجـا) مطراناً لطليطلة ، شرع الأخير فى زرع الحقد والبغض وتأجـيج صدور النصارى الإسبـان ضد المسلمين، وعمل على إعـداد حملة كبيرة فى الأندلس ،مع التنسـيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصـرانية الحاكمة ، وبالفعل تم للنصارى ما خططوه ، وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء فى طريقها بالنار والسيف ، وشرعت تلك الحملة الحـاقدة فى تدمير مدن وقرى المسلمين القريـبة منهم ، فـانتسفت الغـلات والكروم ، وقطعت أشـجار الزيتـون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت الماشية ، وسُـبى المسلمون العزل رجالاً ونساء ، وقْتل قسم كبيـر منهم ، وزحفت قوى من فرسان النصـارى إلى أقصى جنوب الأندلس ، وهم يتابعون العبث والتخريب [١] .

وظهر غرور ألفونســو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصـرانية ، ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التى رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة ، فكتب إلى سلطان الموحدين خطابًا يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال ،وهذا هو نص الخطاب كما ورد فى وفيات الأعيان :

(باسمك اللهم فاطر السمـوات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد . . فإنه لا يخفى على كل ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أني أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤسـاء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعـية ، وإخلادهم إلى الراحـة ، وأنا أسـومـهم بحكم القـهـر وجـلاء الديار ، وأسـبى الزرارى ، وأمـثل بالرجـال، ولا عـذر لك في التـخلف عن نصـرهم إذا أمكـنتك يد القـدرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعـالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحـد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعـًا ولا تملكون امتناعا ، وقد حكـى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفـال وأشرفت

(١) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (٢/ ٨١) .

على ربوة القتـال ، وتماطل نفسك عامًـا بعد عام تقـدم رجلاً وتؤخر الأخـرى ، فلا أدرى أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعـد ربك ؟ ثم قيل لى : إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً ،لعلَّة لا يسوغ لك التقـحم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعـتذر لك وعنك ، على أن تفى بالـعهـود والمواثيق والاستكثـار من الرهان ، وترسل إلى جـملة من عبـيـدك بالمراكب والشواتـى والطرائد والمسطحات ، وأجـوز بحملتى إليك، وأقاتلك فى أعز الأماكن لديك ، فإن كـانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك ، وهدية عـظيـمـة مَـثُلت بيـن يديك ، وإن كـانت لى يدى العلـيـا عليك ، واستـحققت إمـارة الملتين والحكم على البرين ، واللـه تعالى يوفق للسعـادة ويسهل الإرادة ، لا رب غيره ولاخير إلا خيره إن شاء الله تعالى) [١] .

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبى يوسف المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل : ٣٧] .الجواب ما ترى لا ما تسمع .

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسل إلا الخميس العرمرم [٢]

لقد اشتـد غضب أبى يعقوب المنصـور على ألفونسو الثامن وغطرسـته ، وأخذته غيرة الإسلام ، فبادر بالتأهب للجهاد فى الأندلس ، وأمر أن يذاع الخطاب فى جنود الموحدين ليـثير غيـرتهم ، وضج الناس وصاحوا بشـعارات الجهـاد ، وأمر السلطان الموحدى بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير ،إيذانًا بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتـمعوا من كل صوب بالسـير إلى سبتة ، وإلى غـيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس ،ودوت صيـحات الجهاد فى جميع أنحـاء المغرب من مدينة سلا على المحيط الأطلسى ، حتى برقة شرقًا على حدود مصر ، ضد النصارى الذين غدوا خطرًا على الإسلام ، فى الوقت نفـسه الذى كانت أخبار انتـصار صلاح الدين على الصليـبـيين فى حطين واسـتعادة مـدينة القدس من أيدي الصليـبيـيـن قد وصلت إلى

(١) وفيات الأعيان (٧ / ٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٧/٧) .

مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة فى سبيل الله، بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبى .

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحارى والمدن والقرى والهضاب والشواطئ والجبال فى أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد ،وانضموا إلى ألوية الجهاد فى إسبانية ،وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب فى الوقت الذى حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب فى المشرق ،وبعد أن سَيَّر أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس عبر إلى الجزيرة الخضراء فى ٢٠ رجب سنة ٥٩١هـ ولم يسترح بها إلا قليلا، ثم بادر بالسيف إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن ، ولكى يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد ،وكانت خطة زعيم الموحدين ترمى أولاً إلى اختراق قلب إسبانية وافتتاح طليطلة ،ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة ، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح على مقربة من قلعة الأرك ،اتجه بجيشه إلى ذلك المكان ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى ضرب معسكره فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م وعقد مجلسًا من القادة والأشياخ للبحث فى الخطط التى يجب اتباعها لخوض المعركة[١] .

ثانيا : معركة الأرك :

(الأرك حصن على بعد عشرين كيلو متر إلى الشمال الغربى من قلعة رباح على أحد فروع نهر وادى آنه ،وهى نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس، فى حينه تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامى منذ سمع بعبور الموحدين، وطلب العون من ملكى ليون ونبارة) [٢] واستفز كل ملوك إسبانية المسيحية واستصرخ البابا

---

(١) انظر : الأرك ، شوقى أبو خليل ، ص(٥٣ ، ٥٤) .

(٢) المصدر السابق : ص(٥٤) .

فى روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا ،وهولندا وغيرها من الديار الأوروبية ووافته جنود أوروبية كبيرة يقودها فرسان ذووا خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة فى الحروب ضد المسلمين ،حتى لقد قدرت القوات الأوروبية التى احتشدت فى مواجهة القوات الإسلامية بـ(١٥٠ألف جندى) تزيد على ثلاثة أضعاف القوات الإسلامية [١] وتحركت تلك القوات ونزلت فى الأرك ، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالى ،ومرت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك [٢] .

خطة الموحدين :

اجتمع المجلس الحربى الاستشارى للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور ،وتناقشوا فى الخطة التى يجب اتباعها فى المعركة ،واستمع الزعيم لرأى الجميع ثم التفت إلى زعماء الأندلس وطلب رأى أبى عبد الله بن صناديد ،لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب ،وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين فى معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ،إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ،وكان من رأى ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين فى حروبهم السابقة، ولا سيما فى معركة شنترين ، وإنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدًا عامًا للجيش كله ،فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبى يحيى بن أبى حفص الذى امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة فى كثير من الحروب والوقائع ،وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم ،وهو ما لم يتبع دائما ،فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم ،على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسمًا مستقلاً من الجيش ينضوى تحت لواء القائد العام أبى يحيى

(١) انظر: موسوعة المغرب العربى ، ص(٣٢) .

(٢) انظر: معركة الأرك ص(٥٥) .

ابن أبى حفص ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح أبو عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهى المؤلفة من قبائل البربر ومعظمهم غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين تقوم بالعون والإمداد ،أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقواته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب ، كل هذه الآراء أداها الزعيم الأندلسى ، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها ، وأمر بتنفيذها[١] .

قلت : وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التى وضعوها فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ ،وهذا يدل على اهتمام أبى عبد الله بن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية، وفى تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين، ونتيجة للأعداد الضخمة التى فى حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة فى الحرب ،وهى تقضى بتجنب الاشتباك فى المواقع والامتناع فى القلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب ،إما لنفاذ المؤن أو لتفشى الأمراض ، أو لحلول الشتاء، ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصا وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصرًا باهرًا على جيش الموحدين[٢] .

وفى ٩ شعبان ٥٩١هـ /٨ تموز (يوليو) ١٠٩٥ م كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة ،وفى صباح هذا اليوم أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند -لكى يزكى حماستهم للقتال -خبر حلم رآه فى الليلة السابقة مفاده: أنه رأى فى نومه

---

(١) انظر: معركة الأرك ص(٥٦) .

(٢) انظر: المصدر السابق ص(٥٧) .

فارسا بهى الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فُتح فى السماء وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت فى الآفاق يقول :له إنه من ملائكة السماء السابعة وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله .

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه الذى قدرته الروايات الأوروبية الكنسية بستمائة ألف مقاتل ،وهذا بالطبع مبالغ فيه ،فقد كان فى الأغلب يساوى عدد جيش النصارى [1] فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحى المغرب المسلمين ، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة ،واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد، وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكى ، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ،وهو لون الموحدين إلى المقدمة لتفتتح القتال وهم جميعا يضطرمون شوقًا إلى الفوز بالشهادة فى سبيل الله تعالى [2] وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند : إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم: اغفروا له فإن هذا موضع الغفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا الله نياتكم[3] .

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص ، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم [4] .

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم وقويت أنفسهم وعزائمهم وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم[5] .

(١ ، ٢) انظر : معركة الأرك ص(٥٨) .

(٣) انظر : معركة الأرك ص(٥٨) .

(٤) صلاح الأمة فى علو الهمة د. سيد العفانى (٦/ ٢٤٠) .

(٥) انظر : تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجى ص(٤٨٦) .

ونظم ملك قشتالة فى تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال ،وكانت قلعة الأرك تحمى موقعه من جانب وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وَعِرة ، وكان الجيش القشتالى يحتل موقعًا عاليًا وكانت هذه ميزة له فى بدء القتال [١].

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذى يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ [٢]

وفى البيان المغرب فى معرض الحديث عن القشتاليين ، لما رأوا الجيش الإسلامى فى سهل الأرك ، وهم في المرتفع المشرف عليه : (فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر ، أسرابا تتلوها أسراب ، وأفواجًا تعقبها أفواج ، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام ، فتوقفت كالجبال الراسيات ، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة ، فصعد غبارها إلى الجو ، فقال أبو يوسف المنصور لخاصته ومن طاف به : جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم، ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفردًا من خاصته مقدمًا بشهامته ونجدته ، ومر على الصفوف والقبائل ، وألقى إليهم بنفسه كلامًا وجيزًا فى الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه ، وعاد إلى موضعه وساقته) [٣] . لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس ، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة ، هجموا للمرة الثانية ، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين، وفرقوها ، وقتلوا قسمًا منها ، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع ، وأكرم الله

(١ ، ٢) انظر: معركة الأرك ،ص(٥٩) .

(٣) انظر: البيان المغرب ، ص(١٩٤، ١٩٥) .

الآلاف من المسلمين بـالشهادة ، منهم القـائد العام أبو يحيـى بن أبى حفص، الذى سقط شهـيدًا وهو يقاتل بمنتهى الشجـاعة والرجولة والعزة والبـسالة ، وظن النصاى أنهم أحـرزوا النصـر بعد أن حطمـوا قلب جـيش الموحـدين ، ولكن الجناح الأيمن للمـسلمين بقـيـادة القائد الأندلسـى أبى عبـد الله بن صناديد انقض على النصـارى انقضاض الأسـد على فريسته ،وأصـابوا قلب جيشه القـشتالى إصابة دامـغة ، وكان ملك قشـتالة يقود قلب جـيشه بنـفسه ويحـيط به عشرة آلاف فـارس ، منهم فارس الداوية وفرسـان قلعة رباح ، لقـد استـمرت المعركـة وهى حامـية الوطيس سـاعات متـتالية، واسـتبدل المسلمـون النقص فى العدد ، بالإقـدام والشجاعـة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين فى حـرسه وقواته الاحتياطـية ، ورد تقدم الفرسان القشـتاليين واضطرهم إلى الفـرار فى غيـر انتظام ، لم يغادر ألفـونسو وفـرسانه عـشرة الآلاف مكانهم فى القلب ، ذلك لأنهم أقسموا جميعًا بأن يمـوتوا ولا يتقهقروا ، فاستمرت المعركة عـلى اضطرامها المروع ، والفريقـان يقتتلان تحت سـحب كثيفة مـن الغبار ، وأرجـاء المكان تدوى بوقع حـوافـر الخـيل ، وقـرع الطبـول ، وأصـوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند، وأنين الجرحى [١] .

وأيقن الموحدون بالـنصر حينمـا انحصرت المقـاومة فى فلول من النصـارى التفت حول ملك قشتالة ، وهجم أمير الموحدين فى مقدمة جيشه لكى يجهز على هذه البقية أو يلجئها إلى الفرار ، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشا عليـه : (لا إله إلا الله محمد رسول الله لا غالب إلا الله) لم يشـأ ألفونسو بالرغم من اشتـداد ضغط المسلمـين عليه من كل صوب ، ومـواجهتـه لخطر الهلاك والسحق المحقق ، أن ينقذ نفسه بالفرار ، وأن يتـحمل عار الهزيمة ، وتساقط معظم الفرسان النصارى حـول ملكهم مخلصين لعهدهم ،ولكن بقـية قليلة منهم استطاعت أن تنجوا وأن تقتاد الملك بعيدًا عن الميدان وأن تنقذ بذلك حياته [٢] .

(١) انظر: تاريخ الأندلس لأشباخ (٢/ ٨٦) .

(٢) انظر: الأرك ، ص(٦١) .

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع ، وسقط منهم فى القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية ، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك ، وقلعة رباح المنيعتين [١] .

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربى فى كل مكان بعد انتصارهم فى موقعة الأرك ، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد فى جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم- بعد أن وزع باقيها على الجند -لبناء مسجد ضخم فى إشبيلية ، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتى متر [٢] كما بنى حصنًا كبيرًا فى مراكش لتخليد ذكرى الموقعة، وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء ،وكان عددهم عشرين ألفًا، وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأ، لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد ،وستسعى للانتقام من المسلمين [٣] .

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى فقام فى أوائل سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م بغزوة جديدة فى قلب الأراضى النصرانية واخترق ولاية أستراما دورة وعبر النهر الكبير ، الوادى الكبير ، فى اتجاه نهر التاجة وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ،فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين فى ميدان مكشوف، نظرًا لهبوط معنويات جنده بعد الأرك ، ولقلة عددهم ، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة لكنه لم ينجح ، فعاد منسحبا جنوبا بسبب نقص التموين بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض فى صفوف الموحدين وكثر الموت بينهم فاضطر أبو يوسف المنصور إلى

---

(١) انظر: روض القرطاس ، ص(١٤٥) .

(٢ ،٣) انظر: معركة الأرك ، ص(٦٣) .

الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة ، الذى لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أى جيش إسلامى ،وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة [١] .

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها ، وساعده على ذلك موقعه القوى ،ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معهما حلفا ،واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف فعقد فى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكى يستطيع التغلب على أعدائه، ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة ،لأن ثورات جديدة قامت فى إفريقية كانت تستدعى عودته إلى مراكش[٢] .

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر فى مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرجا

من قد غدى بالمكرمات مقلدا وموشحا ومختما ومتوجا

عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطرتمنه الرياح تأرجا [٣]

رابعًا : نتائج معركة الأرك :

١- ارتفعت الروح المعنوية لمسلمى الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قِبل النصارى الإسبان .

٢- سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمى الأندلس والمغرب والعالم الإسلامى كله .

٣- حقق الموحدون نصرًا عظيمًا جعلهم يفكرون بجد فى توحيد العالم الإسلامى

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٥) .

(٢) انظر: معركة الأرك ص(٦٥) .

(٣) انظر: نفح الطيب (١/ ٤١٩) .

كله تحت سلطانهم .

٤- ارتفاع نجم السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور والموحدين فى العالم أجمع .

٥- انصاعت بعض قبائل المغرب التى تفكر فى الثورة على الموحدين، وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم .

٦- عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامى فى شرقه وغربه، وأعتقت الرقاب، وسُرَّ العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد .

٧- أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت فى نفوسهم ،وتحطمت آمالهم فى الاستيلاء على أراضى المسلمين فى الأندلس وإبعادهم .

٨- جعلت ملوك النصارى يتسارعون فى عقد المعاهدات مع دولة الموحدين، وإيقاف الحروب، والإذعان للشروط التى يضعها الموحدون .

٩- تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان فى نفوسهم ،فعملوا على توحد الممالك وترتيب الأمور ورص الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية .

١٠- دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامى المجيد، وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافى، وغير ذلك من النتائج .

خامسًا : أسباب انتصار الموحدين فى معركة الأرك :

لا شك أن النصر العظيم الذى حدث فى معركة الأرك له أسباب عدة منها :

١- الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم ،وهذا ما قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ،حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت ،واستخف بمن بالغوا فى تقديسه ، واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة، وهذه محاولة جادة فى إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة .

٢- اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء ،وكان السلطان أبو

يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال، لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء .

٣- محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ،ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه ،وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكوا الرعايا منهم ،وكان يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس .

٤- فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود ،وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه ،وألزم العلماء بألا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ، ولا يقلدوا أحدًا من الأئمة المجتهدين المتقدمين [1] بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس ، بذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد [2] من هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهما [3] .

٥- احترام العلماء والقضاة والفقهاء فى زمن أبى يوسف، يعقوب بن يوسف، وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبى يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع ،روى ابن خلكان : أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص عمر والد الأمير أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية كان قد تزوج أخت الأمير أبى يوسف المنصور ، وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة، فجاءت إلى بيت أخيها فسير الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه ، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضى الجماعة بمراكش وهو القاضى أبو عبد الله بن على بن مروان،

---

(١) كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه، وترك من أراد أن يقتدى فى فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله .

(٢) انظر: الأعلام للزركلى (٨/ ٢٠٣) .

(٣) انظر: معركة الأرك ص(٧١) .

فاجتمع القاضى المذكور بأبى يوسف المنصور وقال له : إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله ،فسكت الأمير أبو يوسف المنصور، ومضت بعد ذلك أيام ،ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضى المذكور فى قصر الأمير بمراكش وقال له : أنت قاضى المسلمين وقد طلبت أهلى فما جاؤونى ،فاجتمع القاضى بأبى يوسف المنصور وقال له : يا أمير المؤمنين ، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب ثم بعد ذلك بمدة لقى الشيخ عبد الواحد القاضى بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبى يوسف فقال له :يا قاضى المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة :أنا أطلب أهلى وقد منعونى عنهم . فاجتمع القاضى بالأمير وقال له : يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله ، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلنى عن القضاء . فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ، ثم قال: يا أبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير ، ثم استدعى خادمًا وقال له فى السر : تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه ،فحملت إليه فى ذلك النهار ولم يتغير على القاضى ولا قال له شيئا يكرهه . لقد تبع فى ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره ، وهذه حسنة تعد له ، وللقاضى أيضا ، فإنه بالغ فى إقامة منار العدل [١] .

٦- الحزم والقيادة الرشيدة التى تميز بها أبو يوسف المنصور فى قيادته لدولة الموحدين، حيث استطاع أن يوحد البيت المغربى الداخلى ،والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين ، وقاد المعارك بنفسه ،وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة .

٧- الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأى وتهميش الآخرين ، ولذلك استمع أبو يوسف إلى الآراء فى مجلس حربه، وأعطى لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة فى محاربة النصارى ،واعتمد خطة أبى عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة .

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٧/ ١٠ ،١١) .

٨- الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة فى الجهاد ،فمثلا : الأندلسيون يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنوياتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ، ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ،ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبى عبد الله بن صناديد .

٩- جودة التخطيط ، وظهر ذلك فى حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة فى المعركة الفاصلة .

١٠- الاهتمام بتوحيد القيادة فى المعارك الفاصلة ، ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبى حفص قائدا أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة فى القتال .

١١- إذكاء روح الجهاد فى الجنود ،وكان من عادة الموحدين من زمن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يُذكِّروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ، ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث الجهاد لتملى على المو-حدين من أجل دراستها وحفظها ، وأصبح ذلك الفعل سنة فى دولة الموحدين .

١٢- تواضع القيادة ، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم ، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم .

١٣- سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى ، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهيّ الطلعة ، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت فى الآفاق يقول له : إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته .

وغير ذلك من الأسباب التى ظهرت من خلال دراسة عصر أبى يوسف يعقوب المنصور .

سادسا : السفارات بين السلطان صلاح الدين الأيوبى وأبى يوسف يعقوب المنصور :

توّجت الأعـمال العظيـمة التى قـام بها عـماد الدين زنكى ومن بعـده نور الدين محمود بن عـماد الدين زنكى بتوحيد الشام مع مصـر ، وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبى ، فاستـمر صلاح الدين فى دفع حركة الجهـاد ، وأخذ يستولى على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ ، فتأهب الصليبيون لحرب صـلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكنـدرية . لذلك فكر صلاح الدين فى طلب النجـدة من يعـقوب المنصـور الموحـدى ، وأرسل إليه هديـة تشتـمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشـرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخـمسين قوسًـا عربية بأوتارها ، وعشـرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة [١] .

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتابا رقيقا [٢] جاء فيه :

(الحمد لله الذى استعمل على الملة الحنفـية من استعمر الأرض ، وأغنى من أهلها من سـأله الفرض ، وأجـرى على يده النافلة والفـرض ، وزين سمـاء الزرارى التى بعضها من بعض) وكان عنوان الكتـاب : من صلاح الدين إلى أمير المسلمين ، وفى أوله : الفقيـر إلى الله تعالى يوسف بن أيوب . ويذكر السلاوى أن يعـقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمـير المسلمين لا أمير المؤمنين ، وأن يعقوب أسرها فى نفســه ، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحـقق له غرضا . وقد قيل : إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبـيين على سواحل الشـام ، وقد دلل ابن خلدون [٣] بذلك على تـفـوق ملوك المغرب على ملوك المشرق فى إنشاء الأساطيل الجهادية [٤] .

(١) انظر ، تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٦) .

(٢) الاستقصا للسلاوى (٢/ ١٦٣) .

(٣) انظر : العبر (٦/ ٤٩٠) .

(٤) انظر : تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٦) .

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدى راجعا إلى حاجة الأسطول المصرى إلى بعض قطع من الأسطول الموحدى لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحرا ، إذا عنى المغاربة فى عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس ،وليكونوا دائما على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدى المسلمين بسبب الحروب المتصلة التى كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس . على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدى لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح ، لأنه لم يلقبه أمير المؤمنين لا ينهض دليلا على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين ، وإنما كان ذلك راجعا إلى أن يعقوب المنصور كان دائما على أهبة الاستعداد لحرب النصارى فى الأندلس [١] ، وذكر بعض المؤرخين سببا آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع صلاح الدين فى غرب مصر ، بحروب قام بها بعض أتباعه وخصوصا قراقوش التقوى الذى حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بنى هلال ، وابن غانية الذى كان يدعو إلى المرابطين ، وهذا سبب وجيه [٢] .

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبى على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية فى مصر ساءهم ، لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد فى تلك الديار، ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين ، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هى مدينة مراكش لا بغداد ، وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامى تحت لوائهم ولا سيما فى عهد الخليفة يعقوب المنصور، الذى ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته فى الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه [٣].

(١) انظر : تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٦) .

(٢) انظر : معركة الأرك ، ص(٧٠) .

(٣) انظر : دراسات فى تاريخ المغرب ، ص(١١٤) .

وقد أشار الذهبى إلى تصريح السلطان أبى يوسف المنصور برغبته فى قصد مصر[١].

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوى فى بعض أشعاره، كقوله فى مدح الخليفة الموحدى يعقوب المنصور :

إن الخلافة نالت من محاسنكم	أوفى الحظوظ فأبدت منظرا عجبا
أعلى المراتب من بعد النبوة قد	حبى الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصر فى ممالكه	حتى يدوخ منها خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى	أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذى كانت الدنيا تؤمله	وكل عصر له ما زال مرتقبا [٢]

لا شك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامى ، وأن أولى الخطوات المستهدفة هى البلاد المصرية . لقد صرح سلطان الموحدين المنصور برغبته فى غزو البلاد المصرية، وذكر ما فيها من المناكر والبدع ، وقال : نحن إن شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله [٣] .

إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله . ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا . ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة فى أيديهم . فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها ، وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول فى وجه الأطماع الموحدية ، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هى إحدى هذه الخطوات التى بادر الأيوبيون باتخاذها[٤] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٥) .

(٢) انظر : دراسات فى تاريخ المغرب للعبادى، ص(١١٥) .

(٣) انظر : سقوط دولة الموحدين . ص(١٩٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

لقد تحركت الحمـلات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصـحراوى ، لقصره أولا ثم لقلة الأخطار التى يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلى الذى كان مليئا بقبائل بنى سليم وبنى هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيهـا برغد العيش ورفاهته ، ولذلك عملوا على التمسـك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم [١] .

وقد رفض المنصور إرسـال النجدة لدوافع نفسيـة ، وحزازات سياسـية ، وموقف داخلى متوتر وخارجى متربص ،ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ فى إكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقـذ فى قصيدة عدتها أربعون بيتا أعطاه بكل بيت ألفا .

ومن القصيدة :

سـأشكر بحـرا ذا عـبـاب قطعتـه ... إلى بحـر جود مـا لأخراه سـاحل

إلى معـدن التقوى إلى كعـبة الندى ... إلى سـمت بالـذكـر مـنه الأوائل

قطعت إليـك البـر والبـحـر مـوقنا ... بأن نداك الغـمـر بالنجـح كـافل

وحـزت بقصـيـدك العلا فـبلغـتهـا ... وأدنى عطاياك العـدد والفـواضل

فـلا زلـت للعليـاء والجـود بانـيـا ... تبلـغك الآمـال مـا أنت آمل [٢]

إن صلاح الدين الأيوبى لم يعـترف بخلافـة السلطان الموحدى ولم يخـاطبه بلقب أميـر المؤمنين فى الخطاب الذى أرسله إليـه مع رسوله ابن منقـذ ، وهذه مسـألة لها أهميـة خاصة على أساس أن الاعـتراف بالخلافة المـوحدية وبشرعيـة الدولة الموحدية القائمـة فى العلن على تعاليم ابن تـومرت المنحرفـة، وهذا ما بينه القـاضى الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال : (... بأن الخطاب يكفى ، وطريق جحدنا له

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر : معركة الأرك ص(٧٤) .

ممكن ، والكتـابة حجة تقـيد اللسان عـن الإنكار ، ومتى قرأت على منبـر من منابر المغرب جعلنا خالعين فى مكان الإجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ، ولا يحل اتباعـه ، مرخـصين الغالى ، منحطـين عن العالى شاقـين عصا المـسلمين مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته ، متقلدين لمن لا تصح ولايته) [١]

لو التقى صـلاح الدين مع السلطان يعقـوب المنصور فى غـرفة مبـاحثات مـغلقة لوصلوا إلى أمور تـنفع الأمة كلها ،نظرا لما تميـز به صلاح الدين من مـرونة سياسـية منقطعة النظير ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجـماعة ،ولكن الله غالب على أمره ،ومـهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسى والعـقدى الذى وقع بين عاهل المشرق والمغرب لم يحل دون تعاون شعوبهما فى السراء والضراء كما هو الحال فى كل زمان ومكان فمن المعروف من كتب التراجم المخـتلفة أن عددا كبيرا من المغاربة قـد ساهموا فى الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة ، واستشهد منهم عدد كبير دفن فى فلسطين[٢] .

ويشـير الرحـالة ابن جبـير - وكـان معـاصرا لزمن صـلاح الدين- إلى الضريـبة الإضافية التى فرضها الإفرنج فى الشام على تجار المغاربة دون سائر تجار المسلمين (لأن طائفة من أنجـاد المغاربة غـزت مع السلطان نور الدين محـمود زنكى أحد الحـصون، فكان لهم فى أخذه غنى ظهـر واشتهر فجـازاهم الإفرنج بهذه الريبة المكسـية ألزموها رؤوسهم ،فكل مغربى يزن على رأسه الدينـار المذكور فى اختلافهم على بلادهم، ثم يشير ابن جبـير فى مكان آخر من كتابه إلى اهتمـام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء فى المشرق العـربى بفداء الأسرى من المغاربة : فكل من يخرج من مـاله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم) [٣] .

---

(١) دراسات فى تاريـخ المغرب الإسلامى ، عـز الدين عمـر أحمد مـوسى ص(٣٩) . وانظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص(١١٧) ، للعبادى .

(٢) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٨ .

(٣) راجع رحلة ابن جبـير ص(٢٧٤، ٢٨٠) نقلا عن دراسـات فى تاريخ المغرب والأندلس ص (١١٩) .

سابعا : وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه :

لقد كان عصر أبى يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين، ولقد اهتم بالبناء والعمارة فسعى لإكمال مدينة الرباط التى رسم حدودها وبدأ بناءها والده، وبنى بها مسجدا عظيما متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية يصعد إليها بغير درج ، وتسمى الآن منارة حسان .

كان عبد المؤمن بن على قد هدم مدينة فاس فى أثناء حروبه مع المرابطين فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور مما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه الأموال الضخمة التى تدفقت على دولته (١) .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التى هى أقرب إلى الخيال فقال بعضهم إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من موقعة الأرك ثم زهد فى الدنيا وساح فى الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر : إنه ذهب للحج وعاد منه زاهدا فمات فى الطريق ودفن فى الشام (٢) .

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشى ، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات فى مستهل سنة ٥٩٥هـ ودفن بتينمل مع آبائه ويبدو ما ذكره المراكشى أقرب هذه الروايات إلى الصواب (٣) ويروى ابن أبى زرع أن المنصور لما أشرف على الموت قال : ما ندمت على شيء فعلته فى خلافتى إلا على ثلاث وددت أنى لم أفعلها :

الأولى : إدخال البدو - العربان - من إفريقية إلى المغرب ، مع أنى أعلم أنهم أهل فساد .

الثانية : بناء (رباط الفتح) ، أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر .

والثالثة : إطلاق أسارى الأرك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

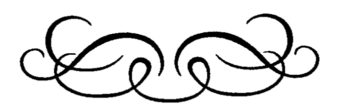
(١ ، ٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر : معركة الأرك ، ص (٧٦) .

وصدقت فراسة يوسف المنصور فى الأولى والثالثة ، وكتب الرباط الفتح أن يعمر ولكن بعد قرون من وفاته حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس(١) .

لقد توفى هذا السلطان المجاهد الذى أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام ٥٩٥هـ(٢).

فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه .



---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٩) .

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربى (٣/ ٢٣٦) .



المبحث الرابع

الخليفة الموحدي
أبو محمد عبد الله
الناصر

أبو محمد عبد الله الناصر:

توفي الخليفة الموحدي يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ / ١١٩٩م وقد أثارت وفاته حزنا عميقا في الأوساط الإسلامية المغربية ذلك لأن كثيراً من الناس كذبوا وفاته وقال البعض: إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورنا لجهاد الكفار ،وقال البعض الآخر : بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفي أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينمل [١] إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد ، وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشر عاما ، حيث إنه ولد في عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م

وتولى الحكم عام ٥٩٥هـ / ١١٩٩م وقد كان شابا طموحا معتزا بنفسه وبرأيه ، قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين ، واستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد وأمره بألا يقطع برأى حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا أن أبا محمد عبد الله الناصر استبد بالأمر [٢] .

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦) .

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦) .

أولا : ثورة بنى غانية :

شغل محمد الناصر عند تسلمه حكم الموحدين بثورة آل غانية التى نشطت من جديد والتى تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ،ويجعلهم شوكة فى حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بنى غانية لها نفوذ من زمن المرابطين واستعمل السلطان المرابطى على بن يوسف رجلين منهما فى الأندلس وهما محمداً ويحيى وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ، منها :أنه كان رجلا صالحا شديد الخوف من الله عز وجل والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم فى الفقه واتساع فى رواية الحديث ،وكان مع هذا شجاعا فارسا إذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس ، وكان على بن يوسف بن تاشفين الملثمى يعده للعظائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيرا من جزيرة الأندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم ،منها إنقاذ جزيرة فراغة فى شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩هـ من ألفونسو ملك أراغون ،بعدما احتل هذا سرقسطة وطليطلة وقلعة أيوب .

ولى على بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية ثم عزله عنها ليوليه قرطبة فلم يزل بها واليا إلى أن مات ، وبموته كانت أولى الفتن على المرابطين ،فبدأ أخوه محمد ابن غانية يجول الأندلس والفتنة تتزايد ودعوة الموحدين تنتشر ،ولما اشتد خوف محمد ابن غانية ، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة) .

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين داعيا للخلافة العباسية وبعد محمد ملك ابنه إسحاق فأمه بقايا المرابطين فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته، وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد فى سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة فى جهاده الميمون ، وكان فى كل عام يغزو مرتين بلاد الروم -غرب إيطاليا وجنوب فرنسا -فيغنم وينكى فى الأعداء أشد نكاية، واشتد بذلك عوده وقوى أمره وتشبه

بالسلاطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفى عام ٥٧٩هـ .

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه ، ولم يتلفت الموحدون إلى جذر البليـار باهتمام يذكر ، فلما كان سنة ٥٧٨هـ كتبوا إليه إلى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلبِّ مرادهم ، فأعطاهم العهود المؤجلة ، واستشـار وجوه أصحابه ، فاختلفوا عليه ، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار ، ومنهم من رأى أن الدخول أسلم لحماية الأنفس والأعراض وخرج ذلك المجاهد الكبير فى غزوة من غزواته فأكرمه الله بالشهادة فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر على بعهد من والده والذى دخل فى حرب مع الموحدين طويلة المدى ، واستطاع الخلـيفة الموحدى المنصور أن يكسر شوكـته وجرد الجيوش لحـربه وقادها بنفسه ، واستـطاع أن يخمد ثورة بنى غانية فى المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس بحد السنان ، ومزق تحالف بنى غانية مع قبائل بنى سليم وبنى هلال وأمراء الأيوبين [١] .

ومع وفاة الخليفة الموحـدى المنصور عاد بنو غانية الميورقـيون إلى شن غاراتهم على إفريقية وتمكنوا من الاسـتيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيـها للخليفة العباسى جـريا على عادة أسلافهم المرابطين ، وكـان عبد الله بن غانيـة قد حاول فى عام ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل فى تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحدى الجديد أبو عبـد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحـدين فى إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى علـى جزر البليار قاعدة بنى غانية ، ومصدر المتاعب التى يواجههـا الموحدون فى إفريقية ، لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه فى تلك الجزر مـصدر القلق المستمر للموحدين ، وشـرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجـزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض فى ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن،

(١) انظر: العقاب ، شوقى أبو خليل ص(١٥ ، ١٦) .

كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان بن حفص .

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتى فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألفا من الرجال ، غير رجال الأسطول ، وكان الأسطول فى ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذى الحجة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها ، وخرج إليهم عبد الله بن غانية ولكنه هُزم وقُتل ،وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة . ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش . وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م وأقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومى واليا عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بنى غانية فى الجزر الشرقية (جزر البليار وهى ميورقة ومنورقة ويابسة) .

وبقى عليهم أن يقطعوا فروعهم فى إفريقية والمغرب الأوسط فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م واستولى على تونس والمهدية ، وفر يحيى ابن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا ، وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى جد ملوك الحفصيين واليا على إفريقية وأعطاه مطلق التصرف فى إدارتها .

واستطاع الوالى الموحدى الجديد أن يقضى على مقاومة الأعراق وبنى غانية وأحلافهم فى إفريقية ، ونستطيع أن نقول : إن عام ٦٠٤هـ كانت فيه موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية فى إفريقية ، لقد تعقب أبو محمد الحفصى جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشنت جموعها وأحلافها . وفى عام ٦٣١هـ أو٦٣٣هـ / ١٢٣٤م أو١٢٣٦م توفى يحيى بن إسحاق بن غانية فى مدينة مليانة على نهر شلف فى الجزائر ، وكانت هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم فى معارك طاحنة مع الموحدين . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان[١] .

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربى (٣/ ٢٣٦ ـ ٢٤٠) .

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم ، لأنهم رأوا في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة ، ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ، ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام الصحيح ، وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد على أربعة عقود مع ثورة بني غانية .

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحدية القوية والمركزة ، وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين ، وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة .

ثانيا : جهاد الناصر لدين الله في الأندلس :

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ، ولقد تركت آثارا عميقة في نفوس النصارى وخصوصا ألفونسو الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة ، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصينًا قويا عام ١٢٠٩م ، ثم نفض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون ، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك محو وصمة هزيمة الأرك ، بإحراز نصر على الموحدين[1] .

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت ، واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية ، وأن يدعوا نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث ، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس [2] .

---

(١) انظر : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل ص٢٣

(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٤٠) .

وشرع النصارى الحاقدين فى إحـراق الزروع والحقول ، ونهب القرى وقتل السكان وسبى جموع كبيرة منهم .

وأمام هذه الاعـتداءات الهمـجية المتكررة على الأندلس ، أعلـن الناصر لدين الله الجهاد ، فـحشد قوات كبـيرة وشرع فى إرسالها من المغـرب ، وقسمها إلى خـمسة جيوش :

١- الجيش الأول من قبائل البربر .

٢- والثانى من الجنود المغاربة .

٣- والثالث من الجنود الموحدية النظامية .

٤- والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة .

٥- والخامس هو جند الأندلس .

وقدر جـيش أبى عبد الله مـحمد الناصـر بنصف مليون مـجاهد ، وفى ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٠٧هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١م ، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ، ونزل فى جزيرة طريف ، ثم صار بعد أيام إلى إشـبيلية وهناك كان الخطأ الفادح [(١)] .

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته واستبداده بالرأى حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سلبطرة ، فأنهك بذلـك قواهم ، ولبس الجيش أمام هذه الحـصن ثمانية أشـهر وهو ممتنع عليه ، وأصر أبو عبد الله محمد الـناصر نزولا على نصح حاجبه أبى سعيد ابن جامع ، وكان الموحـدون يشكون فى صدق نياته ، ولكن أبا عبد الله محـمد الناصر وضع فيه كل ثقـته ، وأصر أبو سعيـد بن جامع على ألا يتقدم جـيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة .

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حـتى دخل الشتاء ، وعانى المغاربة في الجبال

(١) انظر : معركة العقاب ، شوقى أبو خليل ص(٢٣) .

الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق ، كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تضعف وتتعثر يوما فيوما .

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذى قاد الجيش لإنقاذ الحصن وسقطت قلعة سلبطرة أخيرا بيد الموحدين ، بسبب الجوع الذى حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين .

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصرانى فى أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكى تساهم فى كفاح الصليب المقدس[١] .

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير فى نفخ روح الحقد فى النصارى وطلب من الأساقفة فى جنوبى فرنسا (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه - أى البابا - يمنح كل من لبى الدعوة الغفران التام) [٢] .

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الإسبان، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة ، وقد تولوا الاتفاق على حشودهم [٣] .

ووفدت على إسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعا عن النصرانية متقلدين الصلبان ، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عددا ، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشا من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقا للقاء المسلمين ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار - بعد أن كان غاضبا من ملك قشتالة - أولا أن يؤيد قضية إسبانية بالمال والجند ، ثم

---

(١) انظر : العقاب ص (٢٦) .

(٢) المصدر السابق ص (٢٨) .

(٣) المصدر السابق ص(٢٩) .

- وهو الأهم - التعهد بأن يسير فى فرسانه ، وأن يشترك بنفسه فى القتال .

واجتمعت فى مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين ، وكان فى مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم ، وبيدرو الثانى ملك أرغوان فى جيشه الضخم ، كما توافدت إمدادات ليون وجليقية يقودهم أمير برتغالى هو بيورو الثالث ، أحد أبناء الملك سانشو الأول .

لقد تجمعت هذه الحشود فى طليطلة التى لم تستطع أن تستوعبهم ، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم فى الخيام خارج المدينة ، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات ، لقد اشتركت أوروبة فعليا بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن ، كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء [(١)] .

وفى روما أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام ، والاكتفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الجيوش النصرانية وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب فى الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى ، ومن دير إلى آخر ، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماسا لنصر الإسبان.

وفى ٢٠ حزيران (يونيو) ١٢١٢م ، تأهب الجيش النصرانى للسير إلى لقاء المسلمين ، ونظمت القوات فى ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب أثناء السير بنقص فى المؤن ، وسار فى الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعداده ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالى (ديجو لوبيزدى هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ، ومطران بوددو (بردال) وأسقف نانت .

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثانى ، وهو مؤلف من الأرجونيين والقطلونيين

---

(١) انظر : العقاب ص(٣٠ ، ٣١) .

فقط مع فرسان الداوية .

أما الجيش الثالث ، وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساقفة جمعيات الفرسان ، الأمير الليونى سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالى بيورو ، وردريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة آخرين .

وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذا الجيش بثلاثين ألفا ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير (١) .

أ- حصار قلعة رباح :

وفى اليوم الخامس فى بدء السير من طليطلة فى الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) ١٢١٢م ، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون) ، وأبادوا جميع من فيه ، بعد ذلك ساروا إلى قعلة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ، ولقى النصارى فى عبور وادى يانة الذى تقع عليه المدينة صعابا فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبى الوادى الصانير والخوازيق الحديدية .

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح فى جوانبها الثلاثة المنيعة حتى سقطت المدينة فى أيديهم ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية والأسوار المنيعة وكان يخشى أن تقتضى حصارا طويلا وأبدى ملك أرجون والمحاربون الوافدون فى اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف أشباخ (٢) (وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة عقد مجلس حربى للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة دون محاولة افتتاحها وأن يبدأ بالسير توا لمهاجمة المسلمين) (٣) .

لقد تغلب الرأى القائل بمهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوى أموالا .

---

(١) انظر: العقاب ص(٣٢) .

(٢) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (٢/ ١١٣) .

(٣) انظر: معركة العقاب ص٣١ .

هائلة ، وكميات عظيمة من المؤن التى بدأ النصارى يشعرون بنقصها .

لقد ضيق النصارى على مسلمى القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ، ووجد ألفونسو فى قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن (١) .

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم قوى ، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذى لقى فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاما هزيمته الشنعاء ، وأذكى شجاعتهم قدوم سانشو ملك نافار ، وقد اشتهروا بالبراعة فى الحرب والشجاعة فى القتال .

وعلى إثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة ، ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وبيدرو الثانى ملك أرغوان نحو مدينة سلبطرة ، وهى القلعة التى افتتحها الموحدون فى العام السابق بعد حصار طويل .

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشا لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل ، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه ، فاخترقوا ممر (ورادال) فى جبال سيارا مورنيا (جبل الشارات) لكى يلقوا المسلمين فى ناحيتها الأخرى (٢) .

ب- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج :

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذى بذل ما فى وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين ، غضب السلطان الناصر على أبى الحجاج وبدس من وزيره أبى سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارا ، فكان لهذا الفعل أثر سيئ فى الجيش الإسلامى كله ، ولا سيما فى جند الأندلس ، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض

(١) المصدر السابق ص(٣٢) .

(٢) انظر : العقاب ص(٣٥) .

(٣) المصدر السابق ص(٣٦) .

الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر [٣] .

قلت : وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته ، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوى صفها ووحدتها فى وجه صفوف الأعداء ولو كان هذا السلطان لديه فقه فى السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد فى الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم فى دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة .

إن هذا العمل الخاطئ الذى قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار .

المعركة :

قام ملوك الإسبان فى صباح ١٦ تموز (يوليو) بترتيب جندهم لخوض المعركة ، فرابط بعضهم على سفح الجبل ، والبعض فوق الربى ، تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربع فرق :

١- تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية ، ويقودها (ديجولويز) .

٢- وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح ، وشنب ياقب ، والإسبتارية والداوية ، وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقود هذه الفرقة الكونت (جونزالو نونيز دى لارا) .

٣- والفرقة الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش ، وبسكونية ، ويقودها الكونت (ردريك دياز كاميروس) .

٤- وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطى من طليطلة ، وبعض قوات ليون ، ويقودها ألفونسو نفسه ، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين ، وكان يرافق

---

(١) انظر : تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين لأشباخ (٢/١١٧) .

القوات الاحتياطية فضلا عن المطران (ردريك الطليطلى) [١] ، وعدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم .

وكان يقود الجناح الأيمن سانشــو ملك نافار ، وفيه فرسان فرنســيون بقيادة أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالى .

أما الجــناح الأيسر ، فكان ينقــسم أيضا إلى أربع فــرق ، ويتألف كله مــن قوات أراغون ، مــا عدا بعض جند المشاه القــشتاليــين ، ويقوده الملك بيــدرو ، ومن حوله الأحبار والأرجونيون .

أما جيش الموحدين ، فقد قسمه أبو عبد الله محمد الناصر تجاه جيش النصارى فى سهل (تولوزا) وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق .

كانت الفرقة الأمامية تتــألف من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم وبدافع ذاتى محض للجهاد والموت فى سبيل الله ، ونشر الإسلام . وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستــين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية فى المــيمنة ، والقبائل البربرية فى الميسرة ، وأما القلب والقوات الاحتــياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش من الجند المغاربة والنظامــيين ، أو بعبــارة أخرى من الجند الموحدين وضرب أبو عــبد الله محــمد الناصر قبــته الضخــمة الحمراء فى وسط الصــفوف ، ربط أمامهــا جواده المسرج وقعد فى داخلها على درقته [١] إيذانا باقتراب المعركة ، ومن حوله حرسه من مشاه وفرسان . وشهر الجند حرابهم فى اتجاه معسكر النصارى الإسبان ومن معهم من قوات أوروبية صليبية ، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت .

ولما تمت استعدادات المعــركة ، خرج سلطان الموحدين من قبتــه وهو يرتدى عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه وشهر

(١) انظر: تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين (٢/١١٨) .

(٢) انظر: العقاب ص (٤٢) .

سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوى بشدة فى ساحة المعركة [٢] سارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة فى سبيل الله وكان هجومهم عنيفا قويا ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التى كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاسبتارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين ، وأن يمزقوها . واستشهد ألوف من المسلمين فى سبيل الله والإسلام ، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين ، وتقدمو بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامى ، حيث حشدت صفوة الجند ، لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارين ، فتابعهم الفرسان المسلمون فى ارتدادهم وفرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيئ أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ، وكانت كلماته التى قالها لمطران طليطلة وهى : (إن الساعة قد حانت لتلقى الموت المجيد) [١] .

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد . ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار ، وأرسلت فى الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة ، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح ، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية فى نفوس جندهم وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة ليلموا شعثهم وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفو زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة ، وهم يحطمون كل مقاومة فى اتجاه قلب الجيش الإسلامى ، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه ، وفى الوقت الذى ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التى احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب ، كان

(١) انظر: تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين (١١٨/٣) نقلا عن العقاب ص(٤٥).

جناحا الجيش الإسلامى قد حطما ، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم فى الجيش الإسلامى ، ولم يصمد فى ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين ، والحرس المغاربة ، فقد صمدوا فى مقاومة هجمات النصارى ، وصدوهم فى كل ناحية بشجاعة فائقة ، وبسالة نادرة ، ورجولة فريدة ، وجلد لا مثيل له ، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه ، وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكى حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها إلى إشبيلية لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب فى هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام ، حيث كانت النهاية ، أو بداية النهاية مصرع غرناطة .

لقد كانت حشود النصارى فى معركة العقاب ضخمة جدا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبى ، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم [(١)] .

لقد استشهد فى هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء :

١- أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضرى (٥٤٢-٦٠٩هـ) من أهل شاطبة ، صاحب التآليف الذى (كان أحد الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهرا ، لا يخل بحفظ شيء منها . موصوفا بالدراية والرواية ، غالبا عليه الورع والزهد ، على منهاج السلف ، يأكل الجشب ، ويلبس الخشن ، وربما أذن فى المساجد ، وله تآليف دالة على سعة حفظه ، مع النظم والنثر . . ثم توجه إثر ذلك غازيا . وشهد وقيعة العقاب التى أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ، ففقد حين إذن ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الإثنين منتصف صفر سنة تسعة وستمائة . .) [(٢)] .

٢- القاضى الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابرى . من سكان فاس الذى

(١) انظر : العقاب ص (٤٦ ، ٤٧).

(٢) التكملة (١/١٠١-١٠٢) رقم (٢٦٢) نقلا عن التاريخ الأندلسى ص (٤٩٤) .

تولى قضاء سبتة ثم بلنسية (فقد فى كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر من صفر سنة تسع وستمائة) .

٣- أبو الصبر أيوب عبد الله الفهرى . من أهل سبتة الذى (استوسع فى الرواية وكان معروفا بالزهد ، واستشهد فى كائنة العقاب) [1] .

٤- أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب ، من أهل فاس (كان زاهدا ، عابدا ، معلما للقرآن له حظ من قرض الشعر ، ودخل الأندلس غازيا وقدم قرطبة فى ذى الحجة سنة ثمان وستمائة ، فأقام هنالك أياما يلقى الزاهدين . . ثم خرج إلى غزوة العقاب . ذكره ابن الطيلسان وقال : أراه استشهد بها فإنه انقطع عنى خبره . . .) [2] .

٥- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمى ، من أهل اليسانة عمل قرطبة (ولى قضاء موضعه مدة طويلة ، مضافا ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه . وله تآليف فى رجال الموطأ . . واستشهد فى وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩) [3] .

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفى المخاطر ، ويتسابقون فى بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين .

ثالثا : أسباب الهزيمة فى العقاب :

١- الإعجاب بالكثرة ، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالى ستة قرون فى هضاب الأندلس . إن الثقة بآلاف الجند ، وبمقدرة القادة ، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه ، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التى قالها قبيل انسحابه ، ألا وهى : (صدق الرحمن وكذب الشيطان) [4] .

٢- لم يكن التكتيك الحربى على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٢) رقم (٥٣٦) نقلا عن التاريخ الأندلسى ص (٤٩٥) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٥) رقم (٦٢٢٣) نقلا عن التاريخ الأندلسى ص(٤٩٥) .

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٨٥-٥٨٦) رقم (١٥٥٩) نقلا عن التاريخ الأندلسى ص(٤٩٥) .

(٤) انظر : العقاب ص(٥٠) .

٣- ضعف شخصية الناصر لدين الله الذى أصبح ألعوبة وخاتما فى يد الوزير أبى سعيد بن جامع .

٤- سبَّبَ مقتل أبى الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء فى الجيش كله، ولا سيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم ، كل هذا مهد للفرار وانسحب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة ، وكان هذا الانفصال غير المتوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء .

٥- إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك ،وأخذ بكل الأسباب التى تُعين على تحقيق النصر الحاسم ، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوروبا ،وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة .

٦- الثورات التى حدثت فى المغرب مع بنى غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم [١] .

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم فى هذه المعركة ، وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم ، وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن : فرال ، تولوزا ، بياسة ، بليس ، يانيوس ، وأبدة التى أعملوا السيف فى رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها ، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين ، ولولا الأمراض التى فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين ، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية ، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة [٢] .

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية فى مدينة بياسة ، يقول أشباخ فى تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين [٣] : (ولم يكن فى بياسة سوى المرضى والضعاف ،

(١) انظر: العقاب ص(٥١) .

(٢) المصدر السابق ص(٥٢) .

(٣) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (٢/ ١٢٣) .

والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش ، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا فى مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين ، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف ، ما عدا قلائل منهم أُخذوا أسرى ، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر فى قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك ، حينما هاجموا مدينة أبدة التى اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل ، وكان المسلمون يأملون -نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية- أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء .

ونظم النصارى فى الواقع على المدينة هجومًا عامًا خسروا فيه كثيرًا من القتلى ولم يسفر عن أى نجاح ، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار فى أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها ، ولكن القلعة وباقى أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الإسبان ، وعندئذ رأى الملوك ، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هى أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور فى يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة ، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (مليون دينار) ، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم ،وهكذا قُبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب فى افتتاحها .

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تُسلَّم المدينة دون قيد أو شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذرًا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الضريبة المضروبة عليهم فى الحال ، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم فى معاملة هؤلاء المنكودين ،فقُتل من فى أبدة زهاء ستين ألفًا ، وسبى مثل هذا العدد ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته [١] .

(١) انظر : العقاب ص(٥٣) .

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفائه للعهود واحترامه للأديان؟! .

قال الشاعر :

ملكنا فكان العدل منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذى فيه ينضح [١]

لم تكن موقعة العقاب سببًا فى تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط، ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين فى المغرب أيضا . فقامت دويلات فى المغرب ،وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثانى بعد الموحدين ،وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى .

جاء فى نفح الطيب : (كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخَلاء كثير من قراه وأقطاره ، وأما الأندلس فبطلب العدو لها ...) [٢]. وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذى غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى إشبيلية ، وهنالك صب جام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعيَّن ،ثم رجع إلى الأندلس حزينًا كئيبًا ،ولكى ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه فى الملذات والشهوات ، ولم يقم بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله ،وكان يومئذ طفلاً فى العاشرة من عمره ، ولما انتهى من هذا التعيين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف فى قصره وحدائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه، وقضى أمدًا لا يجاوز العام فى هذا اللهو الصاخب، ثم دَسّ له خدمه السم وتوفى مسمومـا بأمر من وزرائه ، لأنه قد كان عزم على قتلهم ، فعاجلوه بالقتل . فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره فى ١١ شعبان ٦١٠هـ / ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٢١٤م ، بعد أن حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر[٣] .

---

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبد الله علوان ص(٨٤) .

(٢) نفح الطيب (١/ ٤٢٠) .

(٣) انظر: العقاب ص(٥٧).

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار فى دولة الموحدين والصراع الداخلى والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين .

والذى يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية ،يدرك مدى الخزى والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة ، وهكذا توضع أمور الدول فى يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم ، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب، معتمدًا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة، وقبوله ببناء كنيسة فى مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين فى صراع عنيف كلف الموحدين دماء وأموالاً ، وتفككًا داخليًا ،وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م ،رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م، إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عامًا بعد معركة العقاب ،ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة ، إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة ، وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدى بنى مرين ، ومن قبلهم بنى عبد الواد فى تلمسان وبنى حفص فى تونس (١) .

رابعًا : أسباب سقوط دولة الموحدين :

١- ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتداؤهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق ، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم ، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم ، ولذلك كفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبوا نساءهم ، فأفنوا أعدادًا كبيرة من المغاربة ، ولأسباب تبدو أحيانا واهية ، أو أن ليس لها ما يبررها ، فمضت فيهم سنة الله فى الظلم والظالمين ،

(١) انظر: موسوعة المغرب العربى (٣/ ٢٤٨ ـ ٢٥٣) .

والغالب أن الظالم - حسب سنة الله فى الظلم والظالمين - يعاقب فى الدنيا على ظلمه للغير ، ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه ،ليشفى ما فى صدره من غيظ على ظالمه ،وحيث إن دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن . . : «.. **واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**» .

ومن سنته تعالى فى الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون فى الدنيا، وأن مآلهم إلى الخسران والهلاك ،كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود [١] .

إن الظلم فى الدولة كالمرض فى الإنسان، يعجل فى موته بعد أن يقضى المدة المقدرة له وهو مريض ، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته ، فكذلك الظلم فى الأمة والدولة يعجل فى هلاكها ،بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدى إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هى الأجل المقدر لها ، أى الذى قدره الله لها بموجب سنته العامة التى وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل ، أو من عوامل الهلاك كالظلم، التى يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضى مدة محددة يعلمها الله [٢]. قال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] . قال الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ، أى لكل أمة من الأمم الهالكة أجل ،أى وقت معين مضروب لاستئصالهم[٣] ، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئا مؤكدًا ولكن وقت حلوله مجهول لنا ، أى أننا نعلم يقينا أن الأمم الظالمة تهلك حتمًا بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى فى الظلم والظالمين ، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط ، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين ، وهو محدد عند الله تعالى [٤] .

إن سنة الله مطردة فى هلاك الأمم الظالمة ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ

---

(١) انظر: المُغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ، د. عبادة كحيلة ص(١١٩) .

(٢) انظر: السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان ص (١٢١) .

(٣) انظر: تفسير الآلوسى (٨/ ١١٢) .

(٤) انظر: السنن الإلهية فى الأمم ص ١٢١ .

عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢] .

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصرًا على من تقدم من الأمم الظالمة ، بل إن سنته تعالى فى أخذ كل الظالمين سنة واحدة ، فلا ينبغى أن يظن أحد أن هذا الهلاك مقصور على أولئك الظلمة السابقين ، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ . فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين فى أفعالهم التى أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم فى ذلك الأخذ الأليم الشديد . فالآية تحذر من وخامة الظلم .

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة ، بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس ، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم ، فهذه الدولة مع كفرها تبقى ، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط ، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم [1]. قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] .

قال الإمام الرازى فى تفسيره : (إن المراد من الظلم فى هذه الآية الشرك . والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين ، إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم ، يعامل بعضهم بعضًا على الصلاح ، وعدم الفساد) [2] .

وفى تفسير القرطبى قوله تعالى : ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق ، ومعنى الآية : إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط [3] .

(١) انظر: السنن الإلهية فى الأمم والأفراد ص(١٢٢) .
(٢) تفسير الرازى (١٨/ ٧٦) .
(٣) تفسير القرطبى (٩/ ١١٤) .

قال ابن تيمية فى هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة : (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذى يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق ،وإن لم تشترك فى إثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة ، وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ،وإن لم يكن لصاحبها من خلاق - أى فى الآخرة - وإن لم تقم العدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به فى الآخرة) [١] .

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموى فى إرساء دعائمها ، ولذلك أسرف ابن تومرت فى سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال ، وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل ، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم ،حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال .

٢-من أسباب سقوط دولة الموحدين ثورة بنى غانية ،وهم من بقايا المرابطين : حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التى قامت عليها دولة الموحدين ، والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية السنية ، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم ، واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية ،كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة فى ضعف دولة الموحدين ،ومن ثم سقوطها .

٣- ثورات الأعراب المتتالية : حيث إن قبائل بنى سليم وبنى هلال التى سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها ، فأحيانًا تتحالف مع بنى غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين ، وأحيانًا تخضع لدولة

---

(١) انظر : رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق صلاح المنجد ص(٤٠).

الموحدين ، ثم دخلت فى الصراع الداخلى بين أعداء الموحدين ، فكانت من الأسباب التى فجرت الثورات الداخلية والتى ساهمت فى الإفساد ودمار دولة الموحدين ، لقد قَدِمَ الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدى عام ٥٨٤هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠هـ أصبحوا يتدخلون فى شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ، ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين ، ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل ، وبنو جابر (ولهؤلاء دور هام فى تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسى ، بمصاهرتهم للبربر ، وبالاحتكاك بهم) [١] .

٤- ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين : ومن أشهر هذه الثورات ، ثورة محمد ابن مردنيش الذى لم يتم القضاء عليها إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ، ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين فى الأندلس ،ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة،وقتل فى تلك المعارك خيرة رجالهم ، وثورة ابن هود ، وعامل بلنسية الذى التجأ إلى ملك ليون . وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم ، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب[٢] .

٥- النزاع على الخلافة بين الموحدين، ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاما ثابتا لتولى الخلافة عندهم : كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها ، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة ، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين ، بل بأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى فى النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد ، فسقطت هيبة الخلافة ، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها . ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما

---

(١) انظر : العقاب ص(٦٨).

(٢) انظر : دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى ، عز الدين عمر أحمد موسى ص(٨٣).

أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة فى ثلاثة مظاهر : تعدد الخلفاء فى وقت واحد، والاستعانة بالنصارى ، وتولية حكام ضعاف[١] .

أ - ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية ، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل ، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة فى ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م السيد أبو محمد عبد الله العباسى ، وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور ، فلما خشى الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر ، وظل كل منهما مدعيًا للأمر ، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤-٦٣٣/ ١٢٢٧ - ١٢٣٦م) وفى عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث، لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد ، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود فى الأندلس . ولا ريب فى أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها ، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن ، وقلت المجابى ، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بنى عبد المؤمن [٢] .

ب - دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم فى محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه ، فأبو محمد عبد الله البياسى يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة، الذى اشترط عليه عشرة حصون يختارها ،وأن يبنى كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم. فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضى الدولة فى سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة .

ج- إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم فى دولة الموحدين جعل التنفيذيين من أشياخ

(١) انظر : المصدر السابق ص (٦٣) .

(٢) انظر : المصدر السابق ص (٨٤) .

الموحـدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون فى اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر ، ولما كانت الخلافة قد استقرت فى بنى عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدى الشيخوخة أو باحثين عن ملذاتهم (١) .

إن ضعف الخلفاء يسَّر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم فى سياستها وتوجيهها . وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ فى ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية (٢) .

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور ، فرفعوا للخلافة من شاؤوا ، وخلعوا من كرهوا ، وقتلوا من أرادوا ، وسار أمرهم كالأتراك مع بنى العباس (٣) .

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية فى الدولة أصبحت لهم مكاسب لم يتخلوا عنها ، فكانوا دائمًا يبسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا . ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة فى فتن وثورات لم تهدأ (٤) .

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذى استحكم بين أبناء عبد المؤمن ، وظهور الخلفاء الضعفاء ، وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة ، ونشوب الفتن فيها ، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم ، وانفصل بعضهم نهائيا عن مراكش . لقد رافق الضعف السياسى المتمثل فى الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إدارى ظهر فى تحكم الولاة والوزراء .

لقد كانت الإدارة الموحدية فى عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإدارى ، وحسن ضبطه ، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم ، وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ، ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة (٥) .

---

(١) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى ص(٨٥).

(٢) انظر: المصدر السابق ص(٨٦).

(٣) انظر: المصدر السابق ، ص(٨٧) .

(٤) انظر: المصدر السابق ص (٨٩) .

(٥) انظر: المصدر السابق ص (٩١ ، ٩٢) .

٦- الانهيار العسكرى الذى أصاب دولة الموحدين ، وتغيُّر أهداف الجيش الموحدى: لا شك أن النزاع السياسى وضعف الهيكل الإدارى للدولة تركا أثرًا بالغًا فى التنظيم العسكرى للدولة ، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادى ، ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين فى إسقاطها، إلا أن جيش الموحدين فى زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعا صحيحًا وتنفيذًا أكيدًا .

وظهر ذلك العجز القيادى والقدرة القتالية فى معركة العقاب، التى انهزم فيها الموحدون وتأثرت معنوياتهم القتالية ، ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة فى موقعة العقاب أن يعدُّوا جيشاً قادرًا على تحقيق انتصارات، بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة ، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى فى الأندلس وأمام بنى مرين فى المغرب الأقصى .

لقد ساهم فى ضعف وانحلال الجيش ، ضعف مبادئ الموحدين فى نفوس الجند، الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال فى سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة فى استعمال الجيش ، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين، اتُّخذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ،ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

لقد كان إدخال العربان فى الجيش الموحدى كافية على أهدافه ونظامه، إذ لا هَمَّ لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ، ولا يعرفون نظامًا ولا يتقيدون بأوامر . وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقًا رائجة وتجارة رابحة ، ففى كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية ، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة[1] .

---

(١) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص (٩٥ ، ٩٦) .

٧- الترف والانغماس فى الشهوات : الذى وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون، وانهماكهم فى ملذاتهم غير مهتمين بشؤون الدولة والحكم ، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم فى أمور الحكم ، وإشرافهم على كل أمر جَلَّ أم صغر ، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك فى الملذات حتى وافاه حينه ، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته ، وكان مولعًا بانتجاع البقر والخيل فى رياضة وتوفى من طعنة بقرة شرود ، والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة ، ومولعًا بالسماع ليلاً ونهارًا(١) وكذلك المقربون منهم .

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهمهم ما يكون فى الناس من منكرات ، فهى لا تقلقهم ولا ينهون عنها، لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط، ولو كان ذلك على حساب الآخرة ،ونعيمها ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:١١٦] وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا : تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس فى الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها ، والسعى لها وطلب أسباب العيش الهنيء (٢) .

وقد مضت سنة الله فى المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب .

قال تعالى :﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ *لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾

---

(١) انظر: المصدر السابق ص (٨٦).

(٢) انظر: السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد ص(١٨٦) .

[الأنبياء : ١١-١٣] .

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء : ١٦] . وجاء فى تفسيرها : وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أى متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها . وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع ، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال ، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم ، فكان توجه الأمر إليهم آكد [١] .

٨-تقلص أراضى الدولة فى إفريقية والمغرب والأندلس : فنتيجة لضعف السلطة المركزية ، وتناحر عناصرها ، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت ، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقية ، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم فى يد المرينيين .

ففى فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضى الأندلسية : أرغون من الشرق ، وقشتالة من الشمال ،والبرتغال من الغرب ، وظهر فى شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود بن رجب ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م فى مرسية ،وحكم تحت شعار العباسيين ، وسيطر ابن هود على معظم الأندلس ،وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم فى كل بلد منها ،وأجلوهم واستأصلوهم، إلا من ستره الله منهم وأخفاه فى ذلك الوقت عنهم) [٢] .

ودخلت الأندلس فى دور طوائف ثالث فقام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م زيان بن مردنيش وفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس ، فما جاء عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس [٣] .

(١) انظر : تفسير الآلوسى (١٥/ ٤٢) .

(٢) انظر : البيان المغرب (٣/ ٢٦٩) . نقلا عن دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى ص(١٠٨) .

(٣) انظر : دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى ص (١٠٨).

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين ، واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة ، فابتلعوها ما عدا دولة بنى نصر فى غرناطة ، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى ، فسقطت قرطبة عام ٦٢٢هـ / ١٢٣٦م ، وبلنسية فى عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م ،ومرسية ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، وإشبيلية ٦٤٦هـ /١٢٤٨م ،وكان هذا السقوط المريع فى مدة قصيرة جدًا .

وانفصلت إفريقية سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بُعدها عن العاصمة ، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن ،فوجدوه مع الحفصيين ، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً فى الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب ، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها ، فجاء أبو زكريا بن أبى محمد عبد الواحد الحفصى إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها ، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات [1] .

وفى الوقت نفسه انفصلت الأندلس ، وإفريقية وبدأت أحوال الخلفاء فى المغرب تضطرب والولايات تستقل [2]، فسيطرت قبائل بنى مرين على بوادى المغرب ، وانفصل بنى عبد الواد فى تلمسان ، واستقل الحفصيون فى تونس وطرابلس، فهذه الانقسامات ساهمت فى إضعاف الدولة الموحدية .

٩- فتور مبادئ ابن تومرت فى نفوس الموحدين ،بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها : كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد ، وهى سر حيوية التنظيم الدقيق فى أجهزة حزب الموحدين ،والذين توصلوا من خلاله إلى الدولة ، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة ، يصف لنا المراكشى نوعية تلك الطاعة فيقول : (ولم تزل طاعة

---

(١) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى ص (١٠٩).

(٢) انظر: المصدر السابق ص (١١١) .

المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا فى ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء) [١] . ولم يكن لهم من هدف فى بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم فى واقع الحياة ونشرها فى العالمين . ولما نجح عبد المؤمن فى الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة ، رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسى ، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة ، فكان انحراف فى المبادئ التى قامت عليها فكرة الموحدين ، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التى قامت عليها ويلتزمها وتبعد من يحيد عنها .

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا فى تقديم من يثبت أقدامها ، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقويًا بهم وولاهم المناصب فى الدولة ، وأصبحوا مقدمين على كثير من الموحدين ، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة ، ولهذا فإن كثيرًا ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ،ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة فى النفوس وذبل الإيمان فى القلوب ، فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة فى الدولة .

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة ، فالمنصور يصرح بذلك لخاصته، والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها ، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ فى أيام عبد المؤمن ، ومع مرور الأيام حدث انفصال بين الفكرة والدولة ، فتجسد ذلك عمليًا فى خلافة المستنصر ، وقام على مرتكز نظرى فى عهد المأمون ، ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم [٢].

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتى الذى فرض على الناس بالسيف والقوة، مع

---

(١) انظر : المعجب ص (١٩١) .

(٢) انظر : دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى ص (١١٧) .

كونه يتنافى مع الإسلام الصافى والعقيدة الصحيحة والتصور السليم ، فجعلت الناس تنسلّ من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذى ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام .

هذه بعض الأسباب التى ساهمت فى إسقاط دولة الموحدين .

خامسا : خلفاء الموحدين :

١-عبد المؤمن بن على (٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٢٩-١١٦٣م) .

٢-أبو يعقوب يوسف (٥٥٨- ٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م) .

٣-أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م) .

٤-أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ / ١١٩٩-١٢١٣م) .

٥-أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠هـ / ١٢١٣-١٢٢٤م) .

٦-عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ / ١٢٢٤م) .

٧-أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ / ١٢٢٤-١٢٢٧م) .

٨-يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧هـ / ١٢٢٧-١٢٣٠م) .

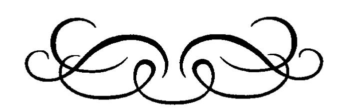
٩-المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠هـ / ١٢٣١-١٢٣٢م) .

١٠-الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠هـ / ١٢٣٢-١٢٤٢م) .

١١-السعيد على أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦هـ / ١٢٤٢-١٢٤٨م) .

١٢-أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ / ١٢٤٨-١٢٦٦م) .

١٣-أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ / ١٢٦٦-١٢٦٩م) .





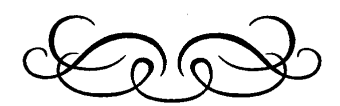
الفصل الثالث

الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين فى عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصفًا ، ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها فى يد النصارى الإسبان فى عام ٨٩٧هـ . ويظهر جهاد بنى الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين ، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامى غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وتظهر سنن الله فى سقوط الدول واضحة المعالم، وكذلك الآثار المترتبة على الابتعاد عن منهج الله تعالى .

أما الشمال الإفريقى بعد سقوط الموحدين ، فانقسم إلى دول ، لا تجاوز الواحدة منها فى أحيان إطار المدينة ، ولا تجاوز فى أحيان أخرى إطار القبيلة ، واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض ، واشتدت النزعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية ، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها ، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة ، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة ، وخرج من ذلك المخاض الطويل دول ،من أهمها : دولة بنى حفص فى إفريقية ، دولة بنى زيان فى المغرب الأوسط ، دولة بنى مرين (ثم بنى وطاس) فى المغرب الأقصى .

وسنحاول بإذن الله تعالى فى الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التى قامت فى الأندلس والشمال الإفريقى ، مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات التى أصبحت كأن لم تغن بالأمس .





المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين فى المغرب الأقصى ، وملك محمد بن يوسف بن هود قواعد شرقى الأندلس ، وظهر محمد بن يوسف الأنصارى فى الجنوب ، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية ، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ،ودخلوا فى قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض .

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور فى أراضى المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها ،التى استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها ، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين فى الأندلس ، فبدأت هجومها بالفعل ، وكان احتلال قرطبة فى ٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ ٢٩ حزيران (يونيو) ١٢٣٦م صيحة النذير المدوية ، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصى والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالى أصابهم الضعف ودخلوا فى الفوضى والنزاع والخلاف ، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ، ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام ، وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط فى يد النصارى ، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م ثم شاطبة ودانية ، وفى عام ٦٤٦هـ سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ،ودام الحصار ثمانية عشر شهراً ، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية ، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث ، على أن يُخيَّر المسلمون بين البقاء فى إشبيلية، أو يهاجروا ، وفى الحال حُوِّل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلوها فى الحواضر الإسلامية الباقية .

لقد كان سقوط إشبيلية إيذانًا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها

وبين مصب الوادى الكبير ، فاستولى النصارى تباعا على : شريش ، شذونة ، قادس ، شلوقة ، غليانة ، روضة ، ثغر شنتمرية ، وغيرها ... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم فى الاستيلاء على قادس ، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضى الإسلامية فى غربى الأندلس ،وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة [١] .

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى تلك الأوضاع التى وصل إليها حال الأندلس ، ووضح فى قصيدته أسباب تلك المأساة التى وقعت فيها شعوب الأندلس ،من تركهم لعوامل القوة والنصر ، وحبهم للدعة والخنوع والترف ، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح ، وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة ،والحزن العميق على ما حلّ بالمسلمين روحا لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى ، كقرطبة ، وبلنسية وإشبيلية ومرسية بيد النصارى .

لقد صوّر الشاعر المسلم أبو البقاء الرندى مأساة الأندلس فى قصيدة تقطر ألمًا وحزنًا ، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات .

قال الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... مَن سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذووا التيجان من يمن ؟ ... وأين منهم أكاليل وتيجان ؟
أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

(١) انظر : سقوط غرناطة ص (٣٠).

وللحوادث سلوان يسهلها … وما لما حل بالإسلام سلوان

وهى الجزيرة أمر لا عزاء له … هوى له أحد وانهد ثهلان[١]

أصابها العين فى الإسلام فامتنعت … حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية؟ … وأين شاطبة أم أين جيان؟

وأين قرطبة دار العلوم فكم … من عالم قد سما فيها له شان؟

وأين حمص وما تحويه من نزه … ونهرها العذب فياض وملآن؟

قواعد كن أركان البلاد فما … عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف … كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية … قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد سارت كنائس ما … فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة … حتى المنابر ترثى وهى عيدان

يا غفلاً وله فى الدهر موعظة … إن كنت فى سِنَة فالدهر يقظان

وماشيا مرحا يلهيه موطنه … أبعد حمص تفر المرء أوطان!

تلك المصيبة أنست ما تقدمها … وما لها مع طول الدهر نسيان

يا أيها البيضاء رايته … أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة … كأنها فى مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة … كأنها فى ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر فى دعة … لهم وبأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس … فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم … قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم … وأنتم يا عباد الله إخوان

(١) أحد وثهلان : جبلان .

ألا نفـــوس أبيـــات لهــــا همم؟! أمـا على الخـير أنصـار وأعـوان؟!
يا من لذلة قوم بعـد عزهم بالأمس أحـال حـالهم كـفــر وطغـيـان
كــــانـوا ملـوكــــا فى مـنازلـهم واليـوم هم فى بـلاد الكفـر عـبـدان
فلو تـراهم حـيــارى لا دليـل لهم علـيــهم مـن ثيــاب الـذل ألوان
ولو رأيت بـكاهم عـند بيــعـــهم لهـالك الأمـر واسـتهـوتك أحـزان
يا رب أم وطـفل حــــيـل بينـهـم كــمـــا تفــرقـت أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كـــأنما هى ياقــوت ومـــرجــان
يقـــودها الـعلج للـمكروه مكـرهة والعين بـاكـيــة والقلـب حـيـران
لمثل هـذا يذوب القلب من كـمــد إن كان فى القـلـب إسلام وإيمان [(١)]

وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقف شاذ مؤلم ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمتـه ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما اسـتطاع من العون المادى والأدبى ، وكان معـظم الزعمـاء المسلمين من حكام المدن والحصـو الباقـية قـد أيقنوا بانهيـار سلطان الإسلام فى الأندلس فـراحوا يهرعون إلى احـتذاء مثـاله ، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة [(٢)] .

لقد غدر النصارى بحليفهم محمـد بن يوسف الأحمر ، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حسـاباته وطمع في جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ، ودمج ما تبقى من تراثها وأراضـيها فى مملكة مـوحدة تكون ملكا له ولعقـبه ، فصـانع النصارى ، وتجنب الاشتـباك معـهم ، فشهـد التهامهـم لأشلاء الوطن الممزق وقلبـه يقطر حزنًا وأسى[(٣)] .

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٨٦ ٤٨٨) .

(٢) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المتنصرين ص(٣٣).

(٣) انظر: المصدر السابق ص (٣٤) .

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة فى الأندلس فى غرناطة فى الجنوب الشرقى فى الأندلس ، حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم ، وأعلن النصارى الحرب عليه فى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، فردهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية ، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين ، وفى عام ٦٦٢هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى .

شدد النصارى هجماتهم بدءًا من عام ٦٦٣هـ ،وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد ابن يوسف بن الأحمر على يد (دون نوينو دى لارا) صهر ملك قشتالة ، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس ، فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعونًا ، ولكنها لم تجد نفعًا ، فسوء المصير لاح فى الأفق ، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية فى أواخر سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧ ،متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربى الأندلس ، منها :شريش والمدينة والقلعة .

ودخلت غرناطة فى حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد ابن أشقيلولة وكان فى مالقة ، وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة فى مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأربا (١) .

وفى عام ٦٦٨هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذى بدأ بالجزيرة الخضراء خرابًا ، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبى يوسف المرينى ، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث ، وذلك فى ٢٩جمادى الثانية ٦٧١هـ (كانون الأول ديسمبر١٢٧٢م) وقد قارب الثمانين من عمره ، بعد أن وطد مُلكًا لبنى نصر بقى زهاء مائتين وخمسين عاما أخرى (٢)

---

(١) انظر : مصرع غرناطة ص(٣٣) .

(٢) ابن خلدون (٧/ ١٩٠) نقلا عن سقوط غرناطة ص(٣٣) .

أولا : ترجمة ابن الأحمر :

هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين بن نصر بن قيس الخزرجي . يرجع في نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصارى ، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيبًا شهد العقبة وبدرًا [١] .

ولد محمد بن يوسف فى مدينة أرجونة من حصون قرطبة فى جهة الشرق سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م) وهو عام الأرك . كان جنديًا وافر العزم والجرأة ،دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير ، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥هـ [٢] .

شيء من سيرته :

كان فى أوقات السلم ينصرف إلى شؤون مملكته ، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة . نظم الشرطة والقضاء ، وطبق القوانين العادلة التى وضعها الفقهاء ، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحابه المطالب لتلقى المظالم، فكان قريبًا من شعبه . ويروى المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة فى المأكل والملبس ،فيبدو فى مظهره الخارجى كسائر الناس [٣] . يقول فيه لسان الدين بن الخطيب : (كان هذا السلطان آية فى السذاجة والسلامة ، عظيم التجلد رافضًا للدعة والراحة ،مؤثرا التقشف بعيدًا من التصنع ، شديد الحزم فظًا فى طلب حقه ، مباشرًا للحرب بنفسه يلبث الخشن ويؤثر التبدى)[٤] .

وكانت له أوقات يختلى فيها بنفسه ويتمشى فى حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ،ربما لأنه اضطر إلى محالفة أعداء

(١ ،٢) انظر: التاريخ الأندلسى ص(٥١٧).

(٣) انظر: غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، د. يوسف شكرى فرحات ص(٣١).

(٤) ابن الخطيب اللمحة البدرية ص(٤٣).

المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر .

من أعمال ابن الأحمر -إلى جانب بنائه القصر المشهور : أنه أنشأ مأوى للعميان ودارًا للعجزة ، وبنى مستشفى كبيرًا ونشر المدارس ، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات ، وكان يتفقد رعيته متسترًا بعيدًا عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك[1].

(وكان يعقد للناس مجلسًا عامًا يومين فى كل أسبوع ، ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء ، وتدخل إليه الوفود ، ويشاور أرباب النصائح فى مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة) [2].

كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية ، وكانت توزع بأسعار عادلة (فتوفر ماله ، وغصت بالصامت خزائنه ، فأفعم الأهراء ، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوبا مختلفة) [3] .

ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التى أوصلها كذلك إلى المدينة ، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومد إلى سهول غرناطة قنوات الرى التى ما يزال بعضها قائما حتى اليوم [4] .

لقد نجح هذا السلطان فى تأسيس دولة غرناطة فى الأندلس، وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها :

١- موقعها الجغرافى ، حيث كانت فى الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التى قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال ، فكانت مملكة غرناطة أبعد مكان بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع فى يد عدو الأندلس، من حيث الموقع ومن

---

(١) انظر: غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، د. يوسف شكرى فرحات ص(٣٢).

(٢) ابن الخطيب اللمحة البدرية ص(٤٤) .

(٣) المصدر السابق ص(٤٣) .

(٤) انظر: غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، د. يوسف شكرى ص(٣٢) .

حيث قـربها من بلاد المغرب، وعـدم وجود خط معـاد أمام مسلـمى غرناطة ، يقف حائلا دون إعانة المغاربة فى الشمال الإفريقى لإخوانهم فى الدين والعقيدة .

٢- ظهور دولة بنى مرين فى المغرب وكان من أهدافـها الكبرى مواصلة الجهاد فى الأندلس ، ولذلك لم تبـخل بالوقوف بكـل ما تملك من جـهد لدعم مملكة غـرناطة ضد النصـارى فى الأندلس ، فقـامت دولة بنى مرين بالمـرابطة والجهاد مع مـسلمى الأندلس ، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة فى الحفاظ على الأندلس .

٣- هجـرة المسلـمين فى الأندلس من مـدنهـم التى سـقطت إلى مملـكة غـرناطة وأصبـحت لهم مـلاذًا يحتـمون به ويلجـؤون إليه ،فكثـر فى غرناطة أهل المـهارات والكفـايات ، والذين برعوا فى كل المـيادين العـسكرية والاقتـصادية والاجـتمـاعيـة والسياسـية والدينية ، فأضـافت إلى قوات غرناطة قوات أخـرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبية وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها [١] .

٤- حب الجهاد فى سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطى المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى ، لقد كان للعقيدة الإسـلامية والمعانى الإيمانية أثر مباشر فى بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة .

٥- براعـة حكام غرناطة فى الاسـتفـادة من الصـراع بين ممالك النصارى وتقـوية النزاعات بينها والتدخل فى هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر [٢] .

وغير ذلك من الأسباب .

ثانيا: جهاد المرينيين فى الأندلس :

تولى الملك فى مملكة غرناطة بعد وفاة أبى عبد الله الغالب بالله ، ابنه محمد الذى اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعـد الهمة ، وسعة الأفق ، مع علم وأدب ، وكان شاعـرًا فقيهًا ، حتى أنه دعى باسم (مـحمد الفقيه) ، وفى أول عـهده تحركت

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسى ص(٥٢١ ، ٥٢٢).

(٢) انظر: المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ، د. عبادة كحيلة ص(٢٦٩).

قوات نصارى قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة ، فاتجهت أنظار المسلمين فى غرناطة إلى نصرة المرينيين فى المغرب ،فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب (أبى يوسف يعقوب المرينى) من أهالى غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد ، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبيًا دعوتهم ، وقاصدًا نصرتهم ، فى النصف من شهر رمضان المعظم سنة ٦٧٣هـ ، فسار حتى نزل مدينة طنجة ، فكتب منها إلى الفقيه أبى القاسم العز فى صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان [(١)] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس ، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالا وبنودا وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه ، ثم عقد له لواء الجهاد ، وأوصاه بتقوى الله فى سره وجهره ، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز ، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز ، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس ، وكان جوازه فى ١٧ ذى الحجة ٦٧٣هـ ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر ، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير فى بلاد العدو حتى وصل إلى شريش ، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى والحصون والبروج ، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر ، وجمع فى طريقه غنائم ضخمة ، وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها ، ففرح أهلها بدخوله ، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم ، وهكذا استطاع الأمير أبو زيان-حامل راية والده المنصور- أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين فى الأندلس .

وكانت غزوة أبى زيان غزوة ريادة واستطلاع ، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه ، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبى مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع

---

(١) أى ببناء السفن .

الكلمة لكى يجاهد فى الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها ، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح، فتم الصلح بين بنى مرين وبنى زيان (بنى عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال ،وجمع الله كلمة الإسلام وألّف بين المسلمين .

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيمًا ، فتصدق بصدقات كثيرة ، وكتب إلى زعماء بنى مرين ، وأمراء العرب ، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناتة يستفزهم إلى الجهاد ، ثم ارتحل إلى قصر المجاز ٦٧٤هـ ،وأخذ فى إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق ، والعدة الكاملة والسلاح ، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بنى مرين وطوائف من المطوعين وقبائل العرب ، فلما فرغ من إرسال بنى مرين والعرب أخذ فى إرسال أجناده ، فكان الناس يجوزون فوجًا بعد فوج ، وقبيلة بعد قبيلة ، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار ، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون فى ذلك المعبر .

قال الشاعر :

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ... غزو العداة وتجويز صباح مسا

كأنما البحر أضحى للجياد مدى ... وكل عشبة ماء حولت فرسا

كأنما اقترب البران واتصلا ... فسار ذاك طريقا للورى يبسا (١)

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة ، جاز أمير المسلمين أبو يوسف فى آخرهم فى خاصته ووزرائه وخدام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب ، وكان جوازه يوم الخميس ٢١ صفر ٦٧٤هـ ، وفى الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بنى أشقيلولة بعساكرهما ، واهتزت الأندلس فرحًا وسروراً واستبشاراً بقدومه .

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص(٤٣) .

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين إشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء ، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما ، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد، ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو إشقيلولة إلى مالقة ، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصدًا جهاد النصارى ، ولم يعقد ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف ، ولم تستطب جفونه منامًا ، ولم يلتذ شرابًا ولا طعامًا ، ولم يزل يجد الرحيل ويوالي المسير حتى وصل إلى الوادي الكبير ، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدمته وقدمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب فتقدم والده بمرحلة ، وسار أبو يوسف في إثر ابنه في جميع جيوشه ، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان ووصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية ودخل حصن (بلمة) عنوة بالسيف ، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إستجة .

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة (دونونة) في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس ، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم [١] .

أ- مجلس الشورى الحربي :

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ قبائل مرين، وأمراء العرب ، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء ، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم ، وسمع أبو يوسف آراء الجميع وأخذ أجودها وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو ، والصبر والثبات عند اللقاء، والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله، وبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بعد ،و الرجال أمام الخيل ودونونة في وسط الجيش ، وكان ملك قشتالة حزمه بيده وزوجه ابنته وفوضه على جيوشه

(١) انظر: مصرع غرناطة ص(٤٥) .

وحروبه ، وفوض إليـه الأمر في جميع بلاده وجنوده وكان النصارى قـد سعدوا به ، لأنه كان لم ينهزم قط ، وكان وبالاً ودمارًا ومصيبة على بلاد الإسلام ،شديد الانتقام ولا يمل من القتل وسـفك الدماء وسبي نسـاء المسلمين في كل الأوقات ، فـأقبل فى كبـريائه وغروره تحت ضلال البنود وأصـوات الأبواق تخفق على رأسه فى جـيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا[1] الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

ب- ترتيب أبي يوسف لجيشه :

أمـر أميـر المسلمين أبو يوسف بالغنائم فـبعـث بها مع ألف فـارس وألف راجل من المجاهدين المتطوعين إلى الجنوب بعـيدًا عن أرض المعركة ، وتأخـر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتـال النصارى، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه ، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، فكان فى آخر دعـائه ما دعى به النبى ﷺ يوم بـدر للصحـابة: (اللهم انصـر هذه العصـابة وأيدها وأعنها على جـهاد عدوك وعدوها) فأجـاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرعـه وابتهاله فلما فرغ من دعائه قـام فاستوى على جواده ، واستعد للقـتال وجلاده ، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادى على المسلمين فقال : يا معشر المسلمين ، وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الـذابون على حماه والمقاتلون عداه ، وهذا يوم عظيم ، ومشـهد جسيم ، له مـا بعده ، ألا وإن الجنة قد فتـحت لكم أبوابها ، وزينت حـورها وأترابها فـبادروا إليـها ، وجـدوا فى طلابها ، وابذلوا النفـوس فى أثمانهـا ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ، وإن الـله اشترى من المؤمنين أنفـسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاغـتنموا هذه التجارة الرابحة وسارعـوا إلى الجنة بالأعمال الصالحـة ، وشمروا عن ساعـد الجد فى جهاد أعـداء الله الكفرة ، وقتـال المشركين الفجـرة ، فمن مات منكم مـات شهيـدًا ومن عاش منكم رجع إلى أهله سـالمًا غانمًا

---

(١) انظر: المصدر السابق ص(٤٦).

مأجورًا حميدًا ، ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فلما سمعوا منه هذه المقالة ، تاقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضًا للوداع ، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، كلهم طابت نفسه بالموت ، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت ، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير ، وكلهم يقول : عباد الله إياكم والتقصير ، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحى القيوم [١] .

فالتقى الجمعان والتحم القتال ، واشتد النزال ، وعظمت الأهوال ، وقسم (دونونة) جيوشه إلى خمسة أجزاء ، ليظهروا جموعا متكاثرة ، فكانت تقبل بجموعها ، فيدفعهم المسلمون ، وتتلقاهم سيوف المجاهدين وحرابهم ، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى ، وسيوفهم تحصد رقاب الأسبان وقتل زعيم الإسبان (دونونة) كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه [٢].

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبى يوسف يعقوب أن تحقق نصرًا حاسمًا فى هذه المعركة التى أعادت ذكريات الزلاقة فى زمن المرابطين ، وذكريات معركة الأرك فى زمن أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى ، وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصورًا مظفرًا إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضى قشتالة ،وحاصر إشبيلية العاصمة التى طلبت الأمان والصلح فأجابهم . وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب فى أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى حوالى خمسة شهور فى الأندلس ،وبعد أن ترك فى الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين فى رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم [٣] .

لقد كانت المعركة التى انتصر فيها السلطان المرينى على الإسبان قرب إستاجة

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسى ص(٥٣٨)، نقلاً عن الذخيرة السنية ص(١٤٩، ١٥٠) .

(٢) انظر: مصرع غرناطة ص (٤٨).

(٣) انظر: التاريخ الأندلسى ص(٥٣٨) .

وظهرت ملكات أبى يوسف يعقوب المرينى القيادية فى النقاط التالية :

١- الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجؤه العدو ، ولذلك عقد لواء لابنه أبى يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على إثره .

٢- إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا ينشغل بها المجاهدون وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم ، وبذلك تحاشا الخطأ الذى وقع فيه المسلمون فى معركة بلاط الشهداء ، وهذا يدل على نظر عميق فى التاريخ ، واستخراج الدروس والعبر من صفحاته الماضية .

٣- صدق السلطان المرينى من خطبته لجنوده والتى ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء ، ورغبهم فى الشهادة ، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين فجاهدوا صابرين محتسبين ، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهرة فى الحروب وخططها .

٤- باشر الأمير المرينى فى هذه المعركة القتال بنفسه ، وقتل عددا من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدى ، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين .

٥- أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار (القرويين) ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم[١] .

لقد اهتز العالم الإسلامى فرحًا وسرورًا بهذه الأخبار السارة ، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم ، حيث أرسل ابن إشقيلولة كتابًا بالتهنئة إلى السلطان المرينى وفيه قصيدة من أبياتها :

---

(١) انظر: سقوط غرناطة ص(٥٠).

هبت بنصركم الرياح الأربع — وسرت بسعدكم النجوم الطُّلع
وأتت لنصركم الملائك سبقا — حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا — أن الأمور إلى مرادك ترجع [1]
وأمدك الرحمن بالفتح الذى — ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لم لا ؟ وأنت بذلت فى مرضاته — نفسا تفديها الخلائق أجمع
وأتيت تنصر دينه متوكلا — بعزيمة كالسيف بل هى أقطع
أين المفر ولا فرار لهارب — والأرض تنشر فى يديك وتجمع؟
فلقد كسوت الدين عزًا شامخًا — ولبست منه أنت ما لا يخلع
إن قيل من خير الملوك بأسرها — فإليك يا يعقوب تومى الأصبع[2]

ج- الغزوة الثانية :

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م ، وتوغل بجيشه فى أراضى قشتالة ، إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ، ودخل معهم في أحلاف ضرت المسلمين ، واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه ، واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة، وعقد تحالفًا مع ملك قشتالة فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال (طريف) مدخل الأندلس كلها ، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة ، فامتنع عن تسليمها ، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير فى الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفى مغاضبة

---

(١) إن الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى .

(٢) انظر : مصرع غرناطة ص (٥١) .

المرينيين حلفائه الطبيعيين ، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد ، فعاد يخطب ودهم من جديد [(١)] .

فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف ، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي -محمد الفقيه -في شعبان سنة ٧٠١هـ/ أيار (مايو) ١٣٠٢م بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة [(٢)] .

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨هـ-١٢٧٩م ، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء ، ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد .

عبر أبو يوسف المنصور -عبوره الرابع -في صفر سنة ٦٨٤هـ إلى الأندلس ، وجاهد في البر والبحر ، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم ، فأرسل شانجة وفدًا من الأحبار يفاوض السلطان المريني على ما يراه ،ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس [(٣)] .

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس .

نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عزوجل برحمته :

كان رحمه الله صوامًا قوامًا ، دائم الذكر ، كثير الفكر ، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرا ، وفي أكثر ليله قائمًا يصلي ، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته ، مكرمًا للصالحين ، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين ، متواضعًا في ذات الله تعالى

---

(١) انظر: المصدر السابق ص(٥٣) .

(٢) انظر: مصرع غرناطة ص(٥٣) .

(٣) انظر: التاريخ الأندلسي ص (٥٤٠) .

لأهل الدين ، متوقفًا فى سفك الدمـاء ، كريمًا جوادًا ، وكان مظفرًا منصور الراية ، ميمون النـقيبة ، لم تهزم له راية قط ، ولم يكسر له جـيش ، ولم يغز قط عدوًا إلا قهره ، ولا لقى جيشا إلا هزمه ودمره ، ولا قصد بلدًا إلا فتحه[1] .

ولا ننسى أنه كان خطيبًا يؤثر فى نفوس جنده ، شجاعًـا مقدامًا يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله .

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين ، وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى[2] .

قـال عنه ابن كـثيـر فى وفـيـات عام ٦٨٥هـ : (أبو يوسـف المرينى سلطان بلاد المغرب، خـرج على الواثق بالله أبى دبوس فـسلبه الملك بنظام مـراكش ، واستـحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء ، فى سنة ثمان وستين وسـتمائة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة ، وزالت على يديه دولة الموحدين بها) [3] :

د- مشيخة الغزاة:

نتيجـة للمصالح المشتركـة بين بنى مرين وبنى الأحمر ملوك غـرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعـاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصرانى القادم من مملكة قشتالة ، ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين فى الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الاستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مـسلمى الأندلس ، فظهر ما يعـرف فى تاريخ الأندلس بمشيخـة الغزاة، وهذا تعريف أطلق عـلى الجنود المرابطين للذود عن العقيـدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة .

وتزعم بنو العـلاء (من أقـارب السلطان المرينى) قـيـادة المشيـخـة ، وهو منصب عسكرى، تولى رياسة المشيـخة عبد الله بن أبى العلاء حتى اسـتشهد سنة ٦٩٣هـ ، فكانت لأخيه أبى سعيد عثمان بن العلاء [4].

(١ ، ٢) انظر: مصرع غرناطة ص(٥٥).

(٣) البداية والنهاية (١٣/٣٢٧) . .

(٤) انظر: التاريخ الأندلسى ص (٥٤٠).

عن هذه المشيخة يذكر المقرى فى نفح الطيب أنه (لم يزل ملوك بنى مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة فكانت لهم وقائع فى العدو مذكورة ، ومواقف مشهورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة ، عليهم رئيس من بيت ملك بنى مرين يسمونه شيخ الغزاة) (١) .

توفى محمد (الثانى) الفقيه سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد، الملقب بالمخلوع الذى خلع سنة ٧٠٨هـ ليتولى الحكم أخوه نصر، وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام ٧٠٨هـ .

وكان مجبولا على طلب الهدنة محبًا للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة ، ويصنع بيده الآلات الطريفة ، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء ، وطاغية أراغون فى ثغر المرية ، فهزم النصارى فى المرية ، وانتصروا عليه فى الجزيرة الخضراء، حيث سقط جبل طارق فى أيديهم بعد حصار طويل مُضْنٍ دام حتى آخر سنة ٧٠٩هـ .

وفى عهد أخيه ، ثم عهده حصل جفاء وعداء بينه وبين بنى مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين ، واستغل النصارى ذلك التنافر ، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق ، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب فى وجهه ، وكان أن خلع سنة ٧١٣هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه : أبا الوليد إسماعيل بن فرج ، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخى محمد يوسف رأس الأسرة النصرية ، ومؤسس دولتها(٢) .



(١) نفح الطيب (٤/ ٣٨٥) نقلاً عن التاريخ الأندلسى ص (٥٤٠).

(٢) انظر: الأعلام للزركلى (٨/ ٢٨) .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

امتاز عصر السلطان أبى الوليد إسماعيل بتوطيد الملك ، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد ، وحاول الاستنجاد ببنى مرين المغاربة على أعدائه النصارى ، لكنهم نكلوا عن معاونتهم ، بسبب سوء تصرفات سابقية ضدهم[١].

فى أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة ،وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع ، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة فى وادى فرتونة سنة ٧١٦هـ واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون[٢].

وفى سنة تسع عشرة وسبعمائة ألب ملوك النصارى على غرناطة وجاءها (دون بطرة) فى جيش لا يحصى كثرة ، وكان وصيًا على الملك الصبى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعه خمسة وعشرون ملكًا أو أميرًا بغرض استئصال ما بقى من المسلمين بالأندلس ، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسى (البابا) فى طليطلة[٣]، وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزى [٤] .

كان عدد الجيش الإسلامى حوالى ستة آلاف ، منهم ألف وخمسمائة فارس والباقى رجالة ،لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء[٥] ، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة ، لجؤوا إلى الله تعالى حينما رأوا التفاوت الكبير بين الجيشين ، وزاد عدد القتلى فى هذه المعركة على

---

(١) انظر: نهاية الأندلس ص(١١٧) .

(٢ ،٣) انظر: ابن جزى ومنهاجه فى التفسير لعلى الزبيرى (١/ ٥٦) .

(٤) التاريخ الأندلسى ص(٥٤١، ٥٤٢) .

(٥) التاريخ الأندلسى ص (٥٤٢) .

خمسين ألفا ، وبلغ جملة السبى فقط سبعة آلاف نفس ، وهلك الأمراء النصارى جميعهم ، واستمر البيع فى الأسرى والأسلاب والدواب ستة أشهر ، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه [١] وكان نصرًا عزيزًا ، ويومًا مشهودًا .

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بنى الأحمر وأصلحهم، فمما وصف به : (كان حسن الخلق ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقل ، ثبتًا فى المواقف ، عفيف الإزار، ناشئًا فى حجرة الطهارة بعيدًا عن الصبوة ، بريًا من المعاقرة)[٢]

وفى سنة ٧٢٤هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة ، وحاصر بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة ، ونزل أهلها على حكمه[٣] .

وفى رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التى تقع فى جنوب غربى جيان عنوة ، وكانت من أعظم غزواته ، وامتلأت أيدى المسلمين بالسبى والغنائم ، وعاد إلى غرناطة مكللا بالنصر [٤] .

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة من قبل ابن عم له تربص به ، وطعنه بخنجر له ، وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحًا ، وتوفى على إثر ذلك فى اليوم التالى رحمه الله وتقبل شهادته [٥] .

وفى عام ٧٣٣هـ استطاع الغرناطيون فى زمن السلطان محمد الرابع من تخليص جبل الفتح - أى جبل طارق - من أيدى النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام

(١)انظر: ابن جزى ومنهجه فى التفسير (١/ ٥٧) .

(٢) الإحاطة (١/ ٣٧٧) . بريًا من المعاقرة : أى بعيدًا عن شرب الخمر .

(٣ ، ٤) انظر: نهاية الأندلس ص (١٢٠).

(٥) المصدر السابق ص (١٢١) .

٧٠٩هـ ، وكان للسلطان أبى الحسن على بن عثمان المرينى سلطان المغرب دور يشكر عليه فى تخليص جبل طارق الذى كان ذا أهمية بـالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم فى العدوة المغربية [1] .

هـ- موقعة طريف :

وقد تجلى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى فى المعركة التى أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة فى معركة طريف سنة ٧٤١هـ من قبل النصارى .

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة ٧٣٣هـ بمساعدة بنى مرين - حكام المغرب - جبل طارق ،بعد أن ظل بأيدى النصارى أربعة وعشرين عاما - إذا سقط فى أيدى النصارى سنة ٧٠٩هـ - توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بنى الأحمر من جـهة وبنى مرين من جهة أخرى .

وكان الأندلسيون كلـما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سـارعوا إلى الاستنجاد بإخوانهم فى الدين فـى العدوة المغربيـة من بنى مرين ، وكانوا يقـومون بالدور الذى كـان يقـوم به المرابطون والموحـدون من الجهـاد فى أرض الأندلس ،وفى عـهـد أبى الحجاج يوسف (ولايته ٧٣٣-٧٥٥هـ) .

كثرت غزوات النصـارى لأراضى المسلمين وكان ألفونسو الحادى عـشر تحدوه نحو المملكة الإسلاميـة أطماع عظيمة ، فكان أن استنجد أبو الحـجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين ، الذى أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس ، فـاخترق سهول الجـزيرة الخضراء معـلنًا الجهـاد ، فاجـتاح أراضى النصـارى وحصل على غنائم لا تحـصى، غـير أن النصارى من قشـتالة وأراجون والبرتغال كونوا أسطولاً بحـريًا متحدًا ليستـقر بالمضيق فيمنع الإمدادات عن جيوش المغرب ،وسـارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين، وبارك البابا هـذه الحملة ، فبـاغتوا أبـا مالك عند عودته بالوادى الـذى كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين ،فكانت مـوقعة عظيمة قتل فـيها أبو مالك ، وهزم

---

(١) ابن جزى ومنهجه فى التفسير (٥٩/١) .

جيشه هزيمة منكرة ، وبلغ أبا الحسن المرينى الخبر ، فاحتسب عند الله ابنه وشرع فى الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة.

تجهَّز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة ،تناهز المائة فأخرج ،الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس ،فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوهم وخالطوهم فى أساطيلهم ،واستلحموهم هبرا بالسيوف وطعنا بالرماح ، وألقوا أشلاءهم فى اليم وقتلوا قائدهم ، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة [١] ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه ، استأنف إجازة العساكر، فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة ، ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس ، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات .

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر ،وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد،ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر،واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفا فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة ٧٤١هـ وإلى أول شهر جمادى الأولى من نفس العام ، ثم المكيدة التى دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم [٢] وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتى :

ولما قرب معسكرهم سرَّب الطاغية إلى طريف جيشًا من النصارى أكمنه بها، فدخلوه ليلا على حين غفلة من عسس المسلمين الذين أرصدوا لهم، غير أنهم

---

(١) انظر: ابن خلدون (٧/ ٢٦١) ، نقلا عن ابن جزى ومنهجه فى التفسير (١/ ٧٢) .

(٢) انظر: ابن جزى ومنهجه فى التفسير (١/٧٣) .

أحسوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عددا ولبَّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذرًا منه وتزاحفوا كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ،ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته ،فاستحملوهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن ، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا ، وأحس المسلمون بما وراءهم فى معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم فى طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم فى صفوفهم فأحاطوا به ، وتقبضوا عليه ،وولى السلطان متحيزًا إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم[1] .

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب [2] يقول المقرى فى وصف هذه الفاجعة :

(فقضى الله الذى لا مرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة،ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولا . . وقتل جمع من أهل الإسلام ولمة وافرة من الأعلام . . واشرأب العدو الكافر لأخذ ما بقى من الجزيرة ذات الظل الوريف ، وثبت قدمه إذ ذاك فى بلد طريف ، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهى المعضلة الداء ، والأرزاء ، التى تضعضع لها ركن الدين بالمغرب، وقرت بذلك عيون الأعداء) [3] .

ويرى الأستاذ نجيب زبيب اللبنانى أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل

---

(١) انظر: العبر لابن خلدون (٧/ ٢٦١-٢٦٢) نقلا عن ابن جزى (١/ ٧٤) .

(٢) انظر:نهاية الأندلس ص (١٢٨) .

(٣) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٤) نقلاً عن نفح الطيب (٦/ ٣١٧) .

الاستخباراتى الذى قامت به ممالك النصارى ، ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى : (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم فى جميع أنحاء المغرب . وفى المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة ، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية ، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التى كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كان يقدمونها إلى القشتاليين .

وكثيرا ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للإيقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها فى المكائد والشراك المنصوبة . .) [١] .

ولا شك أن العمل الاستخباراتى من الأعمال التى تدمر الأمم إذا لم يكن لها عمل مضاد مخططات الأعداء ، بل إن نجاح الدول فى تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم فى بنائها .

و-العلماء الذين سقطوا شهداء فى معركة طريف :

١- أبو محمد عبد الله بن سعيد السلمانى ، والد الوزير الغرناطى والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب .

٢- القاضى أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعرى المالقى ، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب «التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان» ، (كان حسن الخلق عطوفا على الطلبة ، محبا للعلم والعلماء ، مجلا لأهله مطَّرح التصنع عديم المبالاة بالملبس ، بادى الظاهر عزيز النفس ، نافذ الحكم ، صَوَّالة معروفًا بنصرة من أزر إليه تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظرًا فى أمور العقد والحل ومصالح الكافة، ثم ولى القضاء بها ،فأعز الخطة وترك الهوادة ،ملازمًا للقراءة والإقراء محافظًا للأوقات حريصًا على الإفادة . ثم ولى القضاء والخطابة بغرناطة) [٢] .

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، الأستاذ نجيب زبيب (٣/ ٨١) .

(٢) الإحاطة (٢/ ١٧٦، ١٧٧) .

(وتصدر لبثّ العلم بالحضارة يقرى فنونًا منه جمّة فنفع وخرّج ودرّس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحًا وسماعا على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمل وخفض الجناح . .) [1] .

(واستمر على عمله من الاجتهاد ، والرغبة فى الجهاد ، إلى أن فُقد رحمه الله فى مصاف المسلمين ، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف ، شهيدا محرضا يشحذ البصائر و(يدمى) الأبطال ، ويشير على الأمير أن يكثر من قول : (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

٣- أبو القاسم محمد بن جُزَىّ وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات ، كان (فقيهًا حافظًا قائمًا على التدريس ، مشاركا فى فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث ، حافظًا للتفسير ، مستوعبا للأقوال ، جمّاعة للكتب ، ملوكى الخزانة ، حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور صحيح الباطن ، تقدم خطيبًا بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه ، فاتفق على فضله ، وجرى على سنن أصالته) [2] .

(فقد - وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم - يوم الكائنة بطريف . .) [3] .

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذى كان همهم نصرة دين الله والموت فى سبيل الله تعالى .

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة فى مد وجزر ، واعتورتها حالات الحرب والهدنة ، والمسالمة والتحالف جنبًا مع قشتالة ضد بنى مرين ، ومع بنى مرين ضد قشتالة ، أو أراجون حينًا آخر ، ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم ، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلى مع الانغماس فى اللذات .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٧٧) .

(٢) نفح الطيب (٤/ ٥١٤) .

(٣) نفح الطيب (٤/ ٥١٤) نقلا عن التاريخ الأندلسى ص (٥٤٧) .

وفى نفس الوقت ضعفت دولة بنى مرين المغربية التى كانت عونًا فى كثير من الأحيان لمسلمى الأندلس ضد أعدائهم النصارى، وكان زمن سقوط دولة بنى مرين ٨٦٩هـ[1].

واندلعت الحرب الأهلية فى داخل غرناطة بسبب النساء ،حيث إن ملك غرناطة أصبح أسيرًا لحب امرأة رومية نصرانية تدعى (ثريا) وأصبح أداة سهلة فى يد زوجته الفتية الحسناء ، وكانت كثيرة الدهاء والأطماع ، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى وليًا للعهد ، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد ، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبى الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعًا ، وفى برج قمارش -أمنع أبراج الحمراء - زجت عائشة الحرة مع ولديها ، وشدد الحجر عليهم ، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة ،وانقسم المجتمع الغرناطى إلى فريقين :

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ .

وفريق آخر يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها) .

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم ، واتصلت سرًا بمؤيديها وأنصارها ، وفى مقدمتهم بنو سراج ، وتمكنت من الهرب من قصر الحمراء فى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين . وظهرت فى وادى آش حيث مجمع أنصار ولدها .

وقرر فرديناند وإيزابيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة ، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة فى صراعها الداخلى ،وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربى غرناطة وإلى مكان اسمه الحمة ، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة مالقة معًا ، وتم لهم ذلك ، ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها ، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال الحامة وعلى مقربة منها وأن يردا معا الإسبان فى جمادى الأولى ٨٨٧هـ/ تموز

---

(١) انظر: ابن جزى ومنهجه فى التفسير (١/ ٧٤) .

"يوليو" ١٤٨٢م .

وتعاطف الشعب الغرناطى مع الشرعية (عائشة الحرة) واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسى الملك وفر إلى مالقة ، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ،يدفع عنها جيشا جرارا سيره ملك قشتالة لافتتاحها ، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧ هـ وعمره ٢٥ سنة ،وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل فى الجهاد ، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصونًا وقلاعًا سنة ٨٨٨هـ نيسان (أبريل) سنة ١٤٨٣ م إلا أنه وقع أسيرا فى يد النصارى فى أحد النصارى فى إحدى المعارك .

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبى عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل ، ولذلك رفض الأموال الطائلة التى عرضت عليه من أجل فك أسره،واستغل النصارى قلة خبرة أبى عبد الله الصغير ، وانعدام حزمه ، وضعف إرادته ، وطموحه للحكم .

ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى ، إلا أن الكيد النصرانى الحاقد استخدم أسلوب تقوية الفتن الداخلية فى غرناطة ،وفى أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبى عبد الله الصغير، بعد أن وقّع على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان ، وأن تطبق فى جميع البلدان التى تدين بالطاعة لأبى عبد الله الصغير ، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير ، دعوته فى شرق الأندلس ، والحرب الأهلية قائمة فى غرناطة وزاد الأمر سوءا سقوط مدينة لوشة بيد النصارى فى أواخر جمادى الأولى ٨٩١هـ/ أيار مايو ١٤٨٦م ، وكان موقف أبى عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريبًا ، فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى .وبقى يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له .وأنه غدا آلة فى يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه ، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند .

ودعم فرديناند ، أبا عبد الله الصغير ضد عمه ،وانقسمت غرناطة إلى شطرين، وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه ، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضى بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى فى محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التى تخضع لأبى عبد الله الزغل ، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً فى جمادى الثانية ٨٩٢هـ / حزيران (يونيو) ١٤٨٧م، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادى آش ، خاف غدر ابن أخيه أبى عبد الله الصغير ، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباى ،ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة فسقطت فى أواخر شعبان ٨٩٢هـ / آب أغسطس ١٤٧٨م ، ونكث فرديناند بوعوده التى قطعها لأهل مالقة ، فغدر بهم واسترقهم جميعا ، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين .

كانت مصر فى تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة، إلا أن حاكمها المملوكى استعمل الضغط السياسى ، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية ، إلى البابا أنوصان الثامن ، وإلى ملوك النصرانية، ليبين لهم أن النصارى فى بلاد المسلمين فى منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية ، والمسلمون تسفك دماؤهم ، وتستحل حرمتهم ، وتُغزى أراضيهم فى الأندلس ،وتوعد سلطان المماليك فرديناند إما أن يغير خطته وسياسته تجاه غرناطة ، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى فى بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل ،استقبل فرديناند السفيرين ، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف ، ولم يغير خطته ،ولكنه كتب إليه فى أدب المجاملة : (إنها - فرديناند وزوجه إيزابيلا - لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية) [١] .

---

(١) نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ص(٣٦٩).

وفشلت المحـاولة الدبلوماسية وتركت غـرناطة تلاقى قضاءها المحتـوم ، ولم ينفذ السلطان تهديده ، فلم يضطهد أحدًا ، لأن الإسلام لا يجيز له ذلك ، وأخذت المدن تتساقـط تباعًا بيد فـرديناند ، فسقطت المرية فى عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م واسـتسلمت بشروط هى أنموذج لشروط سقوط باقى القواعد الإسلامية وأهمها :

١- أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم .

٢- تخفف عنهم أعباء الضرائب .

٣- ألا يولى عليهم يهودى .

٤- ألا يدخل نصرانى فى (الجماعة الإسلامية) .

٥- وأن يختـار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصـارى الدين الذي يريدون عند البلوغ . . وغيرها من الشروط ،إلا أن النصارى لا يلتزمون بشيء من ذلك بل يَسْبُون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال .وسقطت الثغور التى كانت تصل غرناطة بالمغرب حـيث تفد بعض المتطوعة ، وانقطعت الصلة نهـائيا بعدوة المغرب والـشمال الإفريقى [1] .

وتطور سـير الأحـداث وخضع أبو عـبد الله الزغل لملك قـشتـالة على الرغم من شجاعته وبسالته ، وبقى الزغل يحكم وادى آش تحت حماية ملك قشتالة ، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع اللعين ، فترك الأندلس مهاجرًا إلى المغرب ونزل وهران ، ثم استقر فى تلمسان حزينًا على ضياع الأندلس .

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغـير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى [2] .

فى سنة ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م ، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه إيزابيلا

---

(١) انظر، مصرع غرناطة ص (٧٢-٧٧) .

(٢) انظر،المصدر السابق ص(٧٧) .

وفدا يطلب تسليم غرناطة من أبى عبد الله الصغير ،فثارت نفس أبى عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر ومعاونته على بنى دينه وعقيدته ووطنه ، فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة، وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠-٨٠ ألفا مع مدافع وعدد ضخمة وذخائر وأقوات ، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة فى ١٢جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩١م وأتلف الزروع والحقول والقرى كى لا تمد غرناطة بأى طعام ، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب فى ذاكرة التاريخ السحيق، وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها .

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار ، بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره .

وظهر فى تلك المقاومة موسى بن أبى غسان ، والذى قرر الموت دون الاستسلام، ومن أقواله فى ذلك : (ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة فى المكان الذى أموت فيه مدافعًا عنه ، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين) (١) .

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين ، يعاونه نعيم بن رضوان ، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغرى حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون .

وحل الشتاء ،وقلت المؤن والذخائر ، ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة (أبو القاسم عبد الملك) مجلس أبى عبد الله الصغير ، وقال : إن المؤن الباقية لا تكفى إلا لأمد قصير ، وإن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة ، والدفاع عبث لا يجدى .

ولكن موسى بن أبى غسان قرر الدفاع ما أمكن ، فقال للفرسان : (لم يبق لنا

---

(١) انظر، مصرع غرناطة ص(٨١).

سوى الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن)[١] .

استمر الحصار سبعة أشهر ، واشتد الجوع والحرمان والمرض ، وأعيد تقويم الموقف فى بهو الحمراء ، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبى غسان الذى قال بحزم : (لم تنضب كل مواردنا بعد . . . ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها . .)[٢] .

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناسًا انهزموا فى داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم ، فقرروا المفاوضة والتسليم ، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك[٣] .

جاء فى نفح الطيب : (وفى ثانى ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفًا من الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال ،وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها :إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وألا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا، وألا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل أن يفك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نص عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء ، وألا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وألا يقهر

(١) انظر : المصدر السابق ص (٨٢).

(٢) انظر : المصدر السابق ص(٨٢ ، ٨٣).

(٣) انظر : المصدر السابق ص(٨٣).

من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله ،ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاقب من قتل نصرانيًا أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن [1] .

ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منهم يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده . ويقول المقرى بعد هذا : (وأمثال هذا مما تركنا ذكره من الشروط) [2] .

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان : (وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه فى مثل هذه المحنة ، لو أخلص النصارى فى عهودهم ، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم فى وفاء أعدائهم ، ولما أنس فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا فى يوم ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) مع قسم رسمى بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية فى العمل فى أراضيهم ، أو حيث شاؤوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب . ولكن سوف نرى أن الإيمان والعهود لم تكن عند ملكى النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نُقضت جميعا لأعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربى بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور) [3] وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبى

---

(١) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان .

(٢) نفح الطيب (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨) نقلا عن سقوط غرناطة ص(٨٣) .

(٣) نقلا عن مصرع غرناطة ص (٨٥).

غسان حينما اجتمع الزعماء فى بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال : (اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ،وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال: إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها) [١]

وساد سكون الموت فى ردهة قصر الحمراء ، واليأس مائل فى الوجوه ، وغاص كل عزم فى تلك القلوب الكسيرة ، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير : (الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كُتب لى أن أكون شقيًا، وأن يذهب الملك على يدى) [٢] وصاح من حوله على : (الله أكبر ولا راد لقضاء الله) وقرروا جميعًا التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبى غسان وصاح : (لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدها ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون ، والأنطاق والمحارق وهذا ما سوف نعانيه من مصائب الموت الشريف ،أما أنا فوالله لن أراه) [٣] ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى .

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبى غسان فقال :

(١ ـ٣) انظر: مصرع غرناطة ص(٨٦) .

أنا لن أقر وثيقة ... فرضت وأخضع للعدا

ما كان عذرى إن جبنت ... وخفت أسباب الردى

والموت حق فى الرقاب ... أطال أم قصر المدى

إنى رسمت نهايتى ... بيدى لن أترددا

كنت الحسام لأمتى ... واليوم للوطن الفدا

أنا لن أعيش العمر ... عبدًا بل سأقضى سيدا [١]

ثالثا : وصف حى لتسليم غرناطة :

وفى الثانى من ربيع الأول ٨٩٧هـ كانون الثانى (يناير) سنة ١٤٩٢م وفى وقت الصباح تم تسليم المدينة ، فما أن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار ، وقال للقائد القشتالى بصوت مسموع : (هيا يا سيدى فى هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور قصورى باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها ، لفضائلهما وزلات المسلمين) [٢] .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذى ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة ، وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف ،حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليبًا فضيًا وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن من فوق البرج ثلاثًا أن غرناطة أصبحت ملكًا للملكين الكاثوليكيين .

وأخذ رنين يتردد فى غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة فى حزم أمتعة الملك المخلوع فى ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه أهله

---

(١) سقوط الأندلس ، د. ناصر العمر ص (٦٥).

(٢) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٤) .

وصحبه القلائل ، وبعض الفرسان المخلصين ،وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطى صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور . وحين بلغ الباب الذى سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحـراس بـالبكاء [١] وتحرك الركب نحـو منطقة البشـرات وفى شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعًا لمدينته وملكه ، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة ، فصاحت به أمه عـائشة الحرة : (ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال) .

إن هذه الكلمة حرِىٌ بها أن تكـون إطارًا لمأساة غرناطة وقد جمعت فيـها كل العبر والأمثلة والحكم .

يقول الأستـاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة : (ولما حاولت التعليق عليـها ارتعشت يدى وتساقطت الدموع من عـينى أسى وخشوعًا وتهيـبًا من عظمتها ،لأنهـا أصبحت كلمة تاريخية ، لا بل وأعظم كلمة قيلت فى سقوط غرناطة)[٢] .

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها :

تذكـــر الله بـاكـيًــا هل يرد الـدمع ... مــجـــدًا ثوى وعـــارًا أقـــامـــا
هـدَّنى فـــــوق خطـبنـا أنـك ابنـى ... يا لام تُـســقى الـعــذاب تـوأمـــا
لم يصــن كـالـرجـال مـلكا فـأمــسى ... ركنـه اندك فـــابكـه كـــالأيـامى [٣]

يقول المؤرخ عنان : (وتحتل شخصية عائشة الحرة فى حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة ،وليس ثم فى تاريخ تلك الفتـرة شخصيـة تثير من الإعجـاب الاحترام ، ومن الأسى والشجى قدر ما يسير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية)[٤] .

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٥) .

(٢) نفس المصدر السابق (٣/ ١٢٦ ، ١٢٧) .

(٣) انظر: سقوط الأندلس ص (٧٠) .

(٤) نهاية الأندلس بتصرف ص (١٩) نقلا عن سقوط الأندلس ص(٦٩) .

إن لبعض النساء مواقف مشرفة فى تاريخ الأندلس الجهادى تصلح نبراسا لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا ، وما قصة عائشة الحرة مع ابنها إلا واحدة منها[(١)] .

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى المغرب مع أسرته وأمواله ، ونزل مدينة مليلة ثم استقر فى فاس [(٢)] ، مستجيرًا بالسلطان أبى عبد الله محمد الشيخ زعيم بنى وطاس ، معتذراً عما أصاب الإسلام فى الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعرًا أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، وقدمه على لسان أبى عبد الله الصغير لزعيم بنى وطاس فى رسالة ،ومنها فى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعيًا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلَبًا	وأفظع الحظ ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له	وهل مرد الحكم منه منحتم؟
وهى الليالى وقاك الله صولتها	تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكا لنا في أرضنا دول	نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب	يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا	وأى ملك يظل الملك لم ينم
يبكى عليه الذى قد كان يعرضه	بأدمع مزجت أمواهها بدم [(٣)]

ومرت سنون ، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئا فشيئا فى نفوس المسلمين ، وأسدل ستار من النسيان عليه ، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين (أو الموريسكيين) لم تقف ، وظهرت محاكم التفتيش التى هدفت إلى إبادة المسلمين فى الأندلس .

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب ، وعدو خائن

(١) سقوط الأندلس ص (٧٠).

(٢) نفح الطيب (٦/٢٧٨) نقلا عن سقوط غرناطة ص(٩٦).

(٣) انظر : نفح الطيب (٦/٢٨٦) .

نقض شروط المعاهدة بندًا بندًا ، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية فى الأندلس ، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها ، وحرق من بقى منهم ، وزاد الكردينال (كمينسس) على ذلك ، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداسا فى أكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تقدر بثمن ، بل هى خلاصة ما بقى من التفكير الإنسانى وأحرقها [1] ، لقد ظن رئيس الأثاقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضى على الإسلام فى إسبانيا ،وأنى هذا له ، وقد تركت حضارة الإسلام فى الأندلس من الآثار ما يكفى لتخليد ذكرها على مر الدهور وكرِّ العصور، وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التى سلبت من أيدينا ،وسيكون ذلك قريبا عندما يمكن الله بهذه الأمة، وإنها لتمر فى مرحلتها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١] .

رابعا : محاكم التفتيش :

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية ، وبأشد وسائل العنف ، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية ، التى أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع . ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه ، اعتبرهم النصارى الإسبان ثُوارًا وعملاء لجهات خارجية فى المغرب والقاهرة والقسطنطينية ، وبدأ القتل فيهم ، وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات ، فُمزِّقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة . وفى تموز (يوليو) ١٥٠١م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرًا خلاصته :(أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال).

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ، ومن بقى من المسلمين أخفى

---

(١) انظر: سقوط غرناطة ص(٩٨).

إسلامه وأظهر تنصره ، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشى المروع ، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفى إسلامه ، يُزجُّ به فى السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة تغص بالحشرات والجرذان ، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم ، لتدفع نفقات سجنهم . ومن أنواع التعذيب : إملاء البطن بالماء حتى الاختناق وربط يدى المتهم وراء ظهره وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقا ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ، والأسياخ المحمية ، وسحق العظام بآلات ضاغطة وتمزيق الأرجل وفسخ الفك . . ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم فى خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه [١] . وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ فى ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد ، أو مصادرة أموال وتهجير ، أو إعدام حرقًا ،وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق [٢] .

ومما يذكر . . أن هناك عذابا اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة فى مقبرة مهجور ويجلسونها على قبر من القبور ، ويضعون رأسها بين ركبتها ويشدون وثاقها ، وهى على هذه الحالة السيئة ، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ، ويرخون شعرها فيجللها ، وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هى جنية ،لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله ، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعًا ورعبًا [٣] .

(لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول فى دينهم ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول : لا إله الا الله ، محمد رسول الله . إلا من يقولها في قلبه ، وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان،

---

(١) انظر: محاكم التفتيش ص (٩١) نقلا عن سقوط غرناطة ص (١٠٠) .

(٢) انظر: سقوط غرناطة ص (١٠٠).

(٣)انظر: محاكم التفتيش ص(٩٣) نقلا عن سقوط غرناطة ص(١٠٩).

وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارًا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيعة ما أمرَّها ! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها [١] .

(وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان فى ذلك الكتاب مسطورا وكان أمر الله قدرًا مقدورًا) [٢] .

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل فى الظلم والقهر والتعذيب . كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان .

فإذا علم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة ،يصدر فى حقه حكم بالموت ، وإذا وجدوا رجلاً لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم، فيصدر فى حقه الإعدام .

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين ، حتى أنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم ،فإذا وجدوه مختونا أو كان أحد عائلته كذلك ،فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته [٣].

وكان دستور محاكم التفتيش فى ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام فى حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء . فتصادر أموالهم وتعمل

---

(١) انظر: نهاية الأندلس ص (٣٢١)نقلا عن سقوط الأندلس ص(٧٢).

(٢) انظر: سقوط الأندلس ص(٧٢).

(٣) انظر: سقوط الأندلس ص (١٠).

لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ،أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق فى موكب (الأوتودافى) ،وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ،فيقضى بحرمانهم من تولِّى الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة[1].

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحنى أمامه أية سلطة ، وتُحمى أشخاصهم وتُنفذ أوامرهم بكل وسيلة ، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع فى هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء . بل كثيرًا ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة ،وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ،وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد . هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة فى السجن جوعا .

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعًا لها ، لأنه كان يرى فيها فى الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته فى إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائما موضع البغض ، والريب ، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ،وترى فيهم دائما منافقين مارقين .

وإليك ما يقوله فى ذلك مؤرخ إسبانى كتب قريبًا من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حينا فى غرناطة : وكانوا يشعرون دائما بالحرج من الدين الجديد، فإذا ذهبوا إلى القداس فى أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف ، وفى يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة فى منازلهم ، وفى أيام الآحاد يحتجبون ويعملون . وإذا

(١) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى لمحمد عبد الله عنان ص(٢٤/ ٣٢) نقلا عن الموسوعة العامة للتاريخ (٣/ ٢٢٢) .

عمدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سرا بالماء الحار . ويسمون أولادهم بأسماء عربية، وفى حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقًا للتقاليد العربية [١] .

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقى ضوءًا أكبر على أحوال الموريسكيين فى ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم . كيف كانوا يتحايلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التى يمكن أن تبرز مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم [٢] .

خامسا : فتاوى هامة :

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير ، حيث قدم لهم بعض النصائح التى يعاون أتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة ، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة ٩١٠هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م .

وهذا نص الفتاوى :

(الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما) :

إخواننا القابضين على دينهم ، كالقابض على الجمر ، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا فى ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته ، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته ،وارثو سبيل السلف الصالح فى تحمل المشاق ،وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، بعد السلام عليكم من كتابه إليكم ، من عبيد الله أصغر عبيده

---

(١) أى : الأحكام الإسلامية .

(٢) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٣) .

وأحوجهم إلى عفوه ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد بن بو جمعة المغراوى ثم الوهرانى ، كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار ،والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ،ومؤكداً عليكم فى ملازمة دين الإسلام ، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى ، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع ، وأن الملك ملك الله ،ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله . فاعبدوه واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء ، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوما فى البحور، وإن منعتم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار ،وتسقط فى الحكم طهارة الماء ،وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدى للحيطان ، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء نقله ابن ناجى فى شرح الرسالة لقوله ﷺ : «فائتوا منه ما استطعتم » . وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله وإن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ، وإن أجبروكم على شرب الخمر ، فاشربوه لا بنية استعماله ،وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرم . وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه . وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ،ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقى ، إن تبتم لله تعالى ،وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين

لذلك ،وإن قالوا :اشتموا محمدًا فإنهم يقولون له: ممد ، فاشتموا ممدا ، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه ،إن قالوا : عيسى تُوفى بالصلب فانووا من التوفيه الكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به ، وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرًا بحول الله من غيره محنة ولا وجلة ... ونحن نشهدكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ،ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعا . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره (يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى)[١].

سادسا : القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية :

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية ، تضمنت طائفة من القواعد ،الأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق ، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة [٢].

(يعتبر الموريسكى [٣] أو العربى المتنصر قد عاد إلى الإسلام : إذا امتدح دين محمد، أو قال، إن يسوع المسيح ليس إلها وليس إلا رسولاً . أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك . ويجب عليه أيضا أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية . ومنها أن يأكل اللحم فى الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح . وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثيابا أنظف من ثيابه العادية . أو يستقبل المشرق قائلا:

---

(١) هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه فى مكتبة الفاتيكان بروما . انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١/ ٢٢٥) .

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٦) .

(٣) الموريسكي : يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية .

باسم الله ، أويوثق أرجل الماشـية قبل ذبحهـا ، أو يرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة . أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته فى اتباعـه هذه العادة ، أو يقول : أنه يجـب ألا يعتقـد إلا بالله وبرسوله محـمد ، أو يقسم بأيمان القرآن ، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمـر . أو يقوم بالوضوء والصـلاة . بأن يوجه وجهـه نحو الشرق ويركع ويسـجد ويتلو سورًا من القرآن . أو أن يتزوج طبقا لرسوم الشريعة الإسلامية أو ينشد الأغانى العربية ،أو يقيم حـفلات الرقص والموسيقى العربية . أو أن يستعـمل النساء الخضاب فى أيديهن أو شعورهن ، أو يتبع قواعد محمد الخمس ، أو يلمس بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذًا لهـذه القواعد . أو يغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة أو يدفنهم فى أرض بكر . أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضـراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعـتا إياه بالنبى ورسول الله . أو يقول: إن الكعبـة أول معابد الله، أو يقول :أنه لم ينصـر إيمانًا بالدين المقدس أو أن آباءه وأجداده قد غنمـوا رحمة الله ، لأنهم ماتوا مسلمين . .) [١] .

لقد استمرت محاكم التفتيـش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ فى الديار الإسـلامية والعـربية ، يمارسـون القهـر والظلم والجور بكل أنواعـه على أبناء المسلمين الذين يطالبـون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في جـميع أمور حيـاتهم ، إنها حلبة الـصراع بين الحق والباطل ، والـهدى والضلال ، والعـدل والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد استـمرت محاكم التفـتيش قرونا عدة وعندما احـتل نابليون إسبانيا بعـد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسومًا سنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش فى إسبانيا ، ولكن

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (٣/ ٢٢٦ ، ٢٢٧) .

رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة استمروا فى القتل والتعذيب ، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين ، فأرسل المريشال (سولت) الحاكم العسكرى الفرنسى لمدريد الكولونيل (ليمونكى) مع ألف جندى وأربعة مدافع ، وهاجم دير الديوان ، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء ، فقرر الكولونيل (ليمونكى) فحص الأرض ، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة ، أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة ، فرُفعت ، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة فى أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا .فإذا الماء يتسرب إلى أسفل فى إحدى الغرف ، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رِجْل مكتب الرئيس، وفتح الباب بقحوف البنادق ،واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة وظهر سلم يؤدى إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده . ويذكر هذا الإنسان فى مذكراته ما يلى [١] :

فإذا نحن فى غرفة كبيرة مربعة ، وهى عندهم قاعة المحكمة ، فى وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل ، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة ، وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) كما يسمونه ، وهو عبارة عن (دكة)عالية يجلس عليها رئيس الديوان [٢] ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعًا معدة لجلوس جماعة القضاة ، ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، وتمزيق الأجسام البشرية . وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض ، وقد رأيت بها ما يستفز نفسى ، ويدعونى إلى التقزز ما حييت ، رأينا غرفًا صغيرة فى حجم جسم الإنسان ، بعضها عمودى وبعضها أفقى ، فيبقى سجين الأفقية ممدًا بها حتى يموت . وتبقى الجثة فى السجن الضيق حتى تبلى ، ويتساقط اللحم عن العظم ، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج ، وقد عثرنا

---

(١) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، لمحمد الغزالى، نقلا عن مصرع غرناطة

(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش .

على عدة هياكل بشرية ما زالت فى أغلالها سجينة .

والسجناء كانوا رجالا ونساء تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين ، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء ، وتحطيم أغلالهم ، وهم على آخر رمق من الحياة ، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة ما لاقى من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة في النكايا بهم ، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفًا من النساء السجينات . وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات لتكسير العظام ، وسحق الجسم ،وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ، ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتى الآلة على البدن المهشم ، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة .

وعثرنا على صندوق فى حجم رأس الإنسان تمامًا ،يوضع فيه الرأس المعذب ، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل فى يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة ،وتقطر على رأسه من ثقب فى أعلى الصندوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام فى كل دقيقة نقطة . وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب ، قبل أن يحملوا به على الاعتراف ، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت [١] .

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة ، وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة . وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره ، فإذا أغلق مزق الشاب وتقطع إربًا إربًا .

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم .

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص(١١٢) .

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جن جنونهم وانطلقوا - كمن به مس - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه فى آلة التكسير ، فدقت عظامه دقا ، وسحقتها سحقا .

وأمسكوا أمين سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة ، وأطبقوا عليه الأبواب ، فمزقته السكاكين شر ممزق ثم أخرجوا الجثتين ، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك[1] .

قلت : ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ، ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا فى حزب الشيطان اللعين .

سابعًا : أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عمومًا :

١- تفتت كيان الشمال الإفريقى بعد سقوط دولة الموحدين: حيث تحملت دولة بنى مرين حمل الجهاد وحدها فى الأندلس ، إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية فى الدفاع عما تبقى للإسلام فى الأندلس .

٢- سعى ممالك إسبانيا نحو الاتحاد :

وتم ذلك فى الزواج السياسى الهام الذى تم بين (فرديناند) الذى أصبح ملكا لمملكة أرجون ، وإيزابيلا التى تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان ، وتعاونتا معا بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسى فى الأندلس [2] .

٣- الانغماس فى الشهوات والركون إلى الدعة: والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد. يقول المؤرخ النصرانى كوندى : (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التى جاؤوا بها ، و أصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات)[3] .

(١ ، ٢) انظر: المصدر السابق ص(٩٣) .

(٣) المصدر السابق ص(٩٤) .

أما شوقى أبو خليل فيقول : (والحقيقة تقول : إن الأندلسيين فى أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم فى أحضان النعيم ، وناموا فى ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة ، والمجون ، وما يرضى الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل ، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظافرهم ، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية ، وغدا التهتك والإغراق فى المجون ، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ .

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون ، وبحث الناس عن اللذة فى مختلف صورها ، فكانت الخمور والقيان والمتع ، وأقبلوا على الحياة يعبون فى بحرها ويسكرون بعطرها لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة ، والجوارى الشاديات ، فبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد ، أو يتكون منهم جيش قوى كفء للحرب والمصاولة) [١] .

لقد تنافس الولاة والحكام فى الجوارى حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال ، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سنة متبعة بينهم ، وقف عند هذه الحادثة : ذكر المؤرخون أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي ، بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود ، فدبر له مكيدة قتل بها .

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ [٢] .

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا سادتها عندما كان نشيد طارق فى العبور (الله أكبر) وبقينا فيها زمنا ، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قدم إليه خمر ليشرب قال : إنى محتاج لما يزيد فى عقلى لا ما ينقصه [٣] .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجى عن الفاتحين الأوائل للأندلس : (كانت غيرة

(١) المصدر السابق ص(٩٤) .

(٢) انظر : سقوط الأندلس ص(٢٩) .

(٣) المصدر السابق ص(٢٧).

هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم ، فدوه بالنفس وهى عندهم له رخيصة ، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حبه ، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم)(١) .

وضاعت ممالك الأندلس من أيدى المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين .

دوزن العود وهات القدحا ... راقت الخمرة والورد صحا (٢)

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التى قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ... حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببطرنة ما كانا (٣)

٤- الاختلاف والتفرق بين المسلمين :

ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بنى مرين وبنى عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمرًا فظيعًا ، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين ، بل أكثر من ذلك ،حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة ،وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف ، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف ، حتى قال ابن المرابط واصفًا حال المسلمين :

ما بال شمل المسلمين مبدد ... فيها وشمل الضد غير مبدد

ماذا اعتذاركم غدا لنبيكم ... وطريق هذا العذر غير ممهد

إن قال: لم فرطتم فى دينكم ... وتركتموه للعدو المعتدى

تالله لو أن العقوبة لم تخف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد (٤)

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسى ص(٢١١) .

(٢) انظر: النصر والهزيمة لشوقى أبو خليل ص(١٢٣).

(٣) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين ، لعلى محمد محمد الصلابى ص (٩٠).

(٤) انظر: سقوط الأندلس ص(٣٣) .

إن سنة الله تعالى ماضية فى الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل ، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف ، وقال ﷺ فى حديث أخرجه إمام المحدثين البخارى رحمة الله تعالى : (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفى رواية (فأهلكوا) [١] .

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود «فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»[٢]، قال ابن حجر العسقلانى : وفى الحديث والذى قبله : الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[٣]

وقال ابن تيمية رحمه الله :(وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف، ونهانا عن التفرق والاختلاف) [٤]

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم ، وهو الذى يؤدى إلى تفرقها وتشتتها ، وانعدام التناصر فيما بين المختلفين ، كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر ، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضا [٥] .

(وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء فى حديث رسول ﷺ ، لأن الاختلاف المذموم الذى ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقًا شتى مما يضعف الأمة ، لأن قوتها وهى مجتمعة أكبر من قوتها وهى متفرقة ، وهذا الضعف العام الذى يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها ، فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضيها ويستولى عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفى ذلك انقراضها وهلاكها) [٦] .

---

(١) صحيح البخارى بشرح ابن حجر (٩/١٠١ ، ١٠٢) .

(٢) المصدر السابق (٩/١٠٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (١٩ / ١١٦) .

(٥ ، ٦) انظر: السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان ص (١٣٩).

إن من الدروس المهمة فى هذه الدراسة التاريخية : أن نتوقى الهلاك بتوقى الاختلاف المذموم ، لأن الاختلاف كان سببا من الأسباب فى ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها، وإن أخطر ما نعانى منه الآن الخلاف فى صفوف الحركات الإسلامية التى تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى ، وهذا الخلاف قد يؤدى إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه .

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان : (والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التى تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ، ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقا شتى ، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال ، وتعتقد كل فرقة أنها هى التى تعمل لمصلحة الدعوة . وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم فى مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتى عن طريق التفرق ، ولكن الشيطان هو الذى يزين الفرقة والتفرق فى أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم فى مصلحة الدعوة .

والاختلاف فى الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة ، وإنما يضعف تأثيرها فى الناس ، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم فى الناس ويقولون : جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام ، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف ، وهى تخالفه إذ هى متفرقة مختلفة فيما بينها ، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعى أنها وحدها على الحق ، ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة فى المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها ، وقيام جماعات جديدة مكانها هى فرق المنفصلين عنها ، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول)[1] .

٥- موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم :

حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى ، إلى أن بلغ ذروة

---

(١) السنن الإلهية ص (١٤٠ ، ١٤١) .

رهيبة، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب فى الله والبغض فى الله، بل هذه المعانى كادت تندثر .

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفى أسباب نقمته .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٧] .

وقوله عز وجل : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة فى الولاء والبراء فقال : (أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله ، والحب فى الله والبغض فى الله) [١] .

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : «**من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب**»[٢] .

فإذا كان هذا كله مسطرًا فى كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه ، فلا بد أن ترى فيها سنة الله التى لا تتغير ولا تتبدل .

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال ، ونراه جاهدا فى حرب أمراء الطوائف ، واستئصالهم ، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفى ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجنى من الشوك العنب .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٨٦) .

(٢) البخارى مع الفتح ، كتاب الرقائق رقم (٦٥٠١) .

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهودا يصرفون أمور دولة الإسلام، فهل يؤمن الذئب على الغنم ؟!! (١) .

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالته إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل فى إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح ، ولما سقطت مالقة وحول مسجدها الأعظم إلى كنيسة رده الله إلى أصله ، أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه فى ذلك ، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت مُعْقلا لمنافسة عِّمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب ، دون أن يجد النصارى فى ذلك عناء يذكر ! .

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه ؟ لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفى ذلك يقول المقرى رحمه الله: (ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس - حرسها الله - وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤَّال ، بعد الملك الطويل العريض ، فسبحان المعز المذل ، المانح المانع لا إله إلا هو) (٢) .

٦- التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة :

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ فى تلك المرحلة معطلة، كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**» (٣) .

وقوله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» (٤) .

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقى عن نصرة ما تبقى من الإسلام والمسلمين فى

(١) سقوط الأندلس ص (٢٤) .

(٢) انظر: سقوط الأندلس (٦٧ ، ٦٨) .

(٣) البخارى مع الفتح ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٢) ،(٥/١١٦).

(٤) المصدر السابق ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٦) ، (٥/١١٧) .

الأندلس ،بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم ،وانشغالهم ببعضهم ، وأنهكت قواهم فى حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام .

لقد كان التخاذل فى الأندلس من زمن ملوك الطوائف ،حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث فى طليطلة :

قال د. عبد الرحمن الحجى عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف :

وقام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة فى محنتها، التى لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير ، ولحموها وحموا أنفسهم ،كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته ،وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسى حكم ، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد [١] .

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية فى الفترة الزمنية بين عامى ٦٢٧-٦٥٥هـ وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية فى الأندلس فى أقل من ثلاثين عامًا لتنقلب خارطة الأندلس ، ويتمكن منها عباد الصليب ، وتصبح معظم الأندلس أرضًا نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحوه من الوجود .

يقول المقرى فى نفح الطيب واصفًا استعداد النصارى لإحدى المعارك :(وجاء الطاغية دون بطء فى جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرين ملكًا ، وذهب إلى طليطلة ، ودخل على مرجعهم البابا ، وسجد له وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين فى الأندلس ، وأكد عزمه على ذلك)[٢] .

ويقول جوستاف لوبون فى (حضارة العرب) : إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم،

---

(١) انظر : التاريخ الأندلسى ص(٣٣٢).

(٢) نفح الطيب (٤٤٩/١ ، ٤٥٠) نقلا عن سقوط الأندلس ص(٤٥).

حينما كانت متجهة إلى إفريقية [١] .

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر :

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فاهلك عليه أسى ولا تتجلد

أسفا عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد

كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغى الفداء فما فُدى

كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تود لو أنها فى ملحد

كم من تَقِىّ بالسلاسل موثق ... يبكى لآخر فى الكبول مقيد

ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد

أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردى [٢]

أفلا تراعون الأزمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد

أكذا يعيث الروم فى إخوانكم ... وسيوفكم للثأر تتقلد

يا حسرتى لحمية الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذلك توقد [٣]

٧- غدر النصارى ونقضهم للعهود :

لم يكن النصارى عباد الصليب محلا للعهود وأهلا للوفاء إلا القليل النادر ، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهى التى تحكم وفاءهم ونقضهم [٤] .

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة : ١٤] .

لقد سطر النصارى فى الأندلس تاريخًا مليئًا بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس

(١) انظر : عوامل النصر والهزيمة ص (١٢١) .

(٢) انظر : سقوط الأندلس ص(٤٦).

(٣) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣) .

(٤) سقوط الأندلس ص ٤٠ .

وسبى النساء .

قال تعالى : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

لقد استماتت النصارى فى حروبهم مع المسلمين، فمارسوا كل الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية .

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عمومًا ، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذى أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرديناند ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصًا فى مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس .

٨- إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف :

لا شك أن بداية الانهيار الفعلى فى الأندلس كان بزوال الخلافة الأموية ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب . كانت كلمة الأمة واحدة ،وخليفتهم واحد وأصبحت الأمة كما قال الشاعر :

مما يزهدني فى أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد [١]

ولم يكن حكام الأندلس أهلا لقيادة الأمة فى عمومهم ، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام : (والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه...) [٢] .

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة أصبحت أسر الطوائف سبعًا وعشرين طائفة أو

---

(١) سقوط الأندلس ص (٣١).

(٢) مجموع رسائل ابن حزم (١٧٦/٣) .

إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها .

يقول د. عبد الرحمن الحجى عن هؤلاء الحكام : (وهكذا وجدت فى الأندلس أوضاع يحكمها أمراء ، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر ، هانت لديهم مصالح الأمة وتركت دون مصالحهم الذاتية ، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمنا لبقائهم فى السلطة ،ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخلقى المسلم، انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف الذى به كانت الأندلس وحضارته) [١] .

٩- عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء :

لقد بذل مجموعة من العلماء جهدًا مشكورًا لتوحيد صفوف المسلمين ،وتصدى أبو الوليد الباجى لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامى ،فرفع صوته بالاحتساب ،ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعًا واعية ، لأنه نفخ فى عظام نخرة وعطف على أطلال دائرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم فى ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه فى التنافس والتقريب ، وهو فى الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته ،وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم لكنه كان يرجو حالا تثوب، ومذنبا يتوب [٢] .

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ،ودخلوا فى معارك فرعية وبالغوا فيها ،فحين كانت الأمة تغرق فى الأندلس بسبب الاجتياح النصرانى المتلاطم ، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة [٣] بالفقه المذهبى وفروعه ، ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها ، وبعض هؤلاء هم من من قال فيهم ابن حزم - رحمه الله : (ولا يغرنك الفساق والمنتسبون إلى

---

(١) التاريخ الأندلسى ص(٣٢٥).

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثانى ص (٩٥، ٩٦) .

(٣) سقوط الأندلس ص (٣٥) .

الفـقه ، اللابسـون جلود الضـأن على قلوب السـباع ، المزيـنون لأهل الشر شـرهم الناصرون لهم على فسقهم) [١] .

١٠- الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم :

(ففى عام ٦٤٣هـ تم الاتفـاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضـيه باسم ملك قشتالة وفى طاعته ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب ،وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ،فيقدم إليه عددًا من الجند أينما طلب منه ذلك ،وأن يشهد اجتماع مجلس قشـتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وسلم ابن الأحمر جيان ، وأرجونة وبركونة ، وبيغ ، والحجاز، وقلعة جابر للنصارى) [٢]

ولما حاصر النصارى إشـبيلية فى جمادى الأولى عام ٦٤٥هـ قـدم ابن الأحمر قوة من الفرسـان للمعـاونة فى حصـار الحاضـرة الإسلاميـة والاستـيلاء عليـها ،وأبدى المسلمون آيات من البسـالة والجلد فى الدفاع عن إشبيلية ، وطال الحصـار زهاء ثمانية عشر شهرا، فاضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم، وفى أوائل رمـضان ٦٤٦هـ دخل فـرديناندو الثـالث مـدينة إشبـيليـة ، وفى الحال حـول مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة [٣] .

ونتيـجة لتصـرفات هؤلاء الولاة هاجـر كثيـر من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فرارًا بدينهم وأرواحهم ، مع أن بلادهم يحكمهـا المسلمون ، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال :

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣) .

(٢) نهاية الأندلس ص (٤٣) نقلا عن سقوط الأندلس ص(٢٢) .

(٣) انظر: سقوط الأندلس ص(٢٢).

حثوا رواحلكم يا أهل الأندلس ... فيما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينشر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منشوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف النجاة مع الحيات فى سفط [(١)]

١١- سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات :

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة فى الأندلس ،منها :تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ، ومنها :الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين ، وتأمين الخؤون ، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور ، وتمثل ذلك فى صور عدة منها : إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان .

يقول الدكتور الحجى : (ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة، وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم ، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة ،وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التى اتبعها القادر، إرضاء لأنانيته ورغبة فى البقاء بمركزه ، ولو كان فى ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس ، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر ،) [(٢)] .

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة ، والمظالم المتعدية ، والجور المنتشر اضطرابات وفتن وصراعات كثيرة ،فمثلا مملكة غرناطة حكمت بين عام ٦٣٥هـ وعام ٨٩٣هـ من قبل تسعة وعشرين حاكمًا ، حتى إن بعضهم لم يستمر فى الحكم أكثر من عدة أشهر ،وبعضهم سنة أو سنتين، لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدمًا عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين ، ولذلك غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادئ والمثل والقيم[(٣)] .

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٣٥٢) نقلا عن سقوط الأندلس ص (٤٩) .

(٢) التاريخ الأندلسى ص (٣٦٨) .

(٣) انظر سقوط الأندلس ص (٥١) .

١٢- الثورات الداخلية فى الأندلس :

وكانت لهــا أسباب متـعددة منها ظلم الولاة ومنهــا قيام بعض النصارى الذين أخـفوا مسيـحيتهم وأظهـروا الإسلام فاستطاعـوا أن يتصلوا بممالك النصارى ويـقوموا بدور تخريبى واسـتخبـاراتى ضد دولة الإسلام فى الأندلس ، وظهـرت ثورات عديدة فى الأندلس تنادى وتطالب بالاستقلال الذاتى ،ومن أشـهر هذه الثورات تلك التى قادها عمر بن حفصون ،والذى استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين فى الـعراق والأغالبة فى إفريقية ، ولما يئس من الـوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصـرانية عام ٨٩٩م ،واتخذ اسم صمـوئيل وهو اسم فى المعمودية وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين ،وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد .حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين ،إلى أن جاء الخليفة الأمـوى عبد الرحمن الثالث – الناصر – وكان شجاعًـا حازمًا فواصل الـفتوحات وطالت مـدته فى الحكم (نصف قرن) فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ،ثم لحقت بها مدينة البيرة ، كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت (أرخدونة) أن تدفع الجـزية ورضخت إشبيلية لقوات عـبد الرحمن فى ٩١٣م وأخضع (رية) التى كـانت ملاذًا لعاصمـة ابن حفصون الذى قـاد حركة عدائيـة ضد الإسـلام فى الأندلس ٣٧ عامـًا وحاصـر طليطلة سنة ٩٣٤م واسـتسلمت له وكـان الأعداء يتربصـون بالإسلام فى الأندلس ،فملوك النصارى فى الـشمال لا يكلُّون ولا يملون فى زرع الجـواسيس وتفـجـير الـثورات ودعم المنشـقين من أجل القضـاء على الإسلام ،والدولة العـبيدية الرافضـية فى إفريقيـة تحالفت مع ابن حفصـون النصرانى المرتد ضد مسلمى الأندلس ،وأرسلت الدعاة وأسسوا حزبًا عبيديًا رافضيًا فى الأندلس وتستـروا بالطرق الصوفيـة ، وقاومهم عبـد الرحمن الثالث واسـتطاع أن يقضى على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقـضاء على الإسلام فى الأندلس ،وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضى على ممالك النصارى فى الأندلس،ولكن لله فى خلقه شؤون[١] .

---

(١) انظر: ابن عذارى (١/ ٤٧) نقـلا عن الموسوعة العامة لتـاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٦٢ – ٢٦٧) .

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التى فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التى أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها .

ولقد اكتشفت مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التى كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين ، والذين يتجسسون على حكام الإسلام فى الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى ،فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء ،فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية فى غرناطة التى كانت بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية ، وواصل ابنه الأمير على بن يوسف مقاومة الأعمال التخريبية ، فألقى القبض -بعد ثبوت التهم- على عملاء النصارى فأعمل فى بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب ،لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالى وغيره من ملوك القوط، ولم تعط مخابرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين[1] .

ثامنا : آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمى الأندلس :

١- إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكا فى الدنيا وهلاكًا وعذابًا فى الآخرة . وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة فى وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] .

٢- لقد كان فى ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة، فتجد الإنسان المنغمس فى حياة المادة والجاهلية مصابًا بالقلق والحيرة والخوف

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٣٤٦) لقد نقلت من الكتب الآتية فى تحليل أسباب سقوط الأندلس ، سقوط الأندلس د. ناصر العمر ، مصرع غرناطة ، شوقى أبو خليل ، عوامل النصر والهزيمة ، شوقى أبو خليل ، السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان ، التاريخ الأندلسى ، د. عبد الرحمن الحجى وغيرها من الكتب .

والجبن ، يحسب كل صيحة عليه ، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع فى معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصى على قلبه ، وأصبح فى ضنك من العيش: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤] .

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ، ومات ضميرها الروحى فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهى عن منكر تنهى عنه ، وأصابهم ما أصاب بنى إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] .

فإن أى أمة لا تعظم شرع الله أمرًا ونهيًا فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل . قال رسول الله ﷺ :(**كلا والله ،لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا ، ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم**) [1] .

٣- إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣] .

كما أن المجتمعات التى ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله ، وتطلب العون من إخوانهم فى العقيدة لإرجاع حكم الله فى مجتمعاتهم .

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله ، وفرط أهل الأندلس فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وانعكس ذلك فى حركة الفتوحات

(١) أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم (٤٦٧٠)

الإسلامية التى توقفت ، ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها فى الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين ، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله ، وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق ، وفضحهم الله بذلك وحُرموا التوفيق والرجوع للصواب ، وخف دينهم وضعف إيمانهم ، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله .

٤- لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم ،ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالها .

٥- وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى فى الأندلس ،فأصبحت شوكتهم تقوى ،وتحصَّلوا على مكاسب كثيرة ، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس ، وحرموا من التمكين وأصبحوا فى خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم ، وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم .

٦- إن الابتعاد عن شرع الله فى الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالى المصائب .

٧- إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ :أنه إذا عصى الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه ، ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين فى الأندلس ، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم فى الدين فى زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ،ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين .

٨- إن الذنوب التى يُهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان :

* معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به .

* كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق ، واحتقار الناس ، وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور ، والغرور بالغنى والثروة ، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها فى غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام .

والنوع الثانى من الذنوب هو الذى مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقانا عجيبًا .

يقول الشاعر البسطى الأندلسى :

تقوى الإله ودان بالعصيان ... هذا جزاء مخالف مثلى أبى

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر :

سودت وجهك بالمعاصى فالتمس ... وجها للقيا الله غير مسود

من ذاب يتوب لربه من ذنبه ... أو يقتدى بنبيه أو يهتدى [١]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لألفونسو ملك النصارى :

(أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أى مصاب أذقناك)[٢] .



(١) انظر : سقوط الأندلس ص (٦١) .

(٢) التاريخ الأندلسى ، د. عبد الرحمن الحجى ، ص (٣٣٧) نقلا عن الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المركشية ص (٢٠-٢٣)كذلك الطوائف ، محمد عبد الله ، ص (٩٠-٩١) .


المبحث الثاني
دولة بني مرين
في المغرب

دولة بنى مرين فى المغرب :

استطاعت قبيلة بنى مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٨٨هـ / ١٢٦٩م. وهم يتفرعون من قبائل (زناتة) مثل (مغراوة) وبنى (يفرن) ، وكانت مضاربهم فى الصحراء الكبرى، وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة ، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقى وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومرتية المنحرفة .

أولاً: أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة :

عبد الحق بن محيو المرينى :

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بنى مرين ضد الدولة الموحدية ، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بنى مرين ، وكان قد اشتهر بالورع والتقى ، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع والأفكار الغريبة ، والتزم بالمذهب المالكى فى سيرته [١] ، وقد مات عبد الحق سنة ٦١٤ هـ فخلفه بعده أبناؤه الأربعة : أبو سعيد عثمان ، مات سنة (٦٤٢هـ) ، وأبو بكر بن عبد الحق ، مات سنة (٦٥٦ هـ) ، ويعقوب بن عبد الحق، وهو الذى استطاع أن يقضى على الموحدين وصار أمير المغرب سنة (٦٦٨هـ-١٢٦٩م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية فى الأندلس [٢] .

---

(١) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٥٥) .

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٠) .

ثانيًا : المنهج الذى قامت عليه الدولة :

لا تستطيع أي حركة فى المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام ، ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بنى مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين ، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة فى وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك ،إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين [١] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية ،وبأنهم لم يكن لهم مذهب يدعون له كالمرابطين والموحدين، وكانت شعاراتهم المرفوعة فى حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية ، ومن هنا كسبوا محبة الناس، إلا أن إقدام زعماء بنى مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب ، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي .

واتخذ زعماء بنى مرين أسلوبًا عسكريًا وسياسيًا للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين ، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوبًا سياسيًا بارعًا ، تمثل فى الاعتراف بالخلافة الحفصية فى تونس وطلب العون منهم ، وبذلك حققوا مكاسب متعددة ، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم ، وتضعيف التحالف بين بنى زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوى فى النزاع [٢] ، وقام بنو حفص بمساعدة بنى مرين وتدمير تحالف بنى زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بنى زيان عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م . ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبنى حفص [٣] .

---

(١) من أمثال عبد الفتاح الغنيمى، والدكتور أحمد مختار العبادى .

(٢ ، ٣) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٠٧) .

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين . وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد ، وفرض سيطرتها وقوتها على جميع الأقاليم ، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة ، فاستطاع أن يضبط الأمن ، ويرعى مصالح العباد ، وعمل على توحيد المغرب الأقصى ،وضم كل المدن التى كانت منفصلة عن دولة الموحدين . ووضع خطوطًا دفاعية ضد الخطر الزيانى القادم من الشرق ، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة ، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه ، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سجلماسة للدولة فى صفر ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م ، وبذلك أصبحت كل أراضى المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية ، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة . وفى عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م أمر السلطان المارينى ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزًا للتجارة والعلم [١].

ثالثا : حركة التوحيد للشمال الإفريقي :

حاولت دولة بنى مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ،ودخلت فى معارك عنيفة مع بنى عبد الواد والحفصيين فى المغرب الأوسط والأدنى .

واستطاع المرينيون فى عصر أبى الحسن المريني (٧٣١/ ٧٥٢هـ-١٣٣١ - ١٣٥١م) وولده أبى عنان فارس (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة ، وأزال السلطان أبو الحسن بنى زيان عن تلمسان فى سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد فى الأندلس ، وعادت حركة التوسع فى الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى فى الأندلس ،ودخل تونس فى عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م ، لتمتد مملكته من مسراته فى ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس .

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢١٩-٢٢١) .

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها ، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان .

وفى هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه ، واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة فى سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م ، ثم مات بعد شهور .

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي وأزال دولة بنى زيان سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م . وتابع سيره إلى إفريقية ودخل تونس فى سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م ، إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله ،خصوصًا فى فاس ، وطمع بعض أقربائه فى السلطة جعله يعود إلى عاصمته ، فوافاه الأجل فى العام التالى [١] .

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي، وتقلص النفوذ المرينى فى المغربين الأوسط والأدنى ، ثم زال النفوذ المرينى من جهة الشرق ، فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة فى الأقاليم .

وبدأ التدهور فى الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط ، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين ، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م . واقتصرت الدولة المرينية على فاس [٢] .

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس ، وتسلط على الأمور رجال لا همَّ لهم إلا مصالحهم الشخصية ،وفى عهد آخر سلاطين بنى مرين عبد الحق بن أبى سعيد بن أبى العباس (٨٢٣-٨٦٩هـ/ ١٤٢٠-١٤٦٥م) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالى ، فانفجرت الثورة التى عمت أحياء

---

(١) انظر : المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ، د . عباده كحيلة ص(١٤١).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر ص (١٤٢).

فاس كلها ، واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد وهو الشريف أبى عبد الله محمد بن على الإدريسى نقيب الأشراف بفاس فى رمضان (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م) وبذلك انتهت دولة بنى مرين [١]

رابعًا : أسباب سقوط دولة بنى مرين :

١- دسائس ملوك الإسبان ضدها ، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بنى مرين ساهم فى إضعافهم وتقويض دولتهم ، ودخول حكام غرناطة فى تحالفات مع بنى عبد الواد والحفصيين ضد بنى مرين ضيق الخناق على دولة بنى مرين .

٢- دخول بنى مرين فى صراع عنيف مع دويلات المغرب الأوسط والأدنى ، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات ، وكان قتال بنى العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم فى إضعاف الشمال الإفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بنى مرين .

٣- ضعف الأمراء والسلاطين فى آخر عهد الدولة، مما ساهم فى إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب فى شؤونها ، وتنازعت الأهواء والمصالح ، فتولدت انفجارات داخلية ونزاع بين الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة .

٤- المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى ،الذين شنوا حربا على هذه الدولة التى شكلت خطرًا على حركة الاسترداد فى الأندلس ، ولذلك هاجم البرتغاليون بنى مرين واحتلوا سبتة عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م ، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار [٢]

٥- تولى اليهود مناصب فى دولة بني مرين ، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالى المغرب ، فكان ذلك سببا فى قيام الشعب بثورة ضد دولة بنى مرين وإزالتها من الوجود .

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٣٣٦ ، ٣٣٧) .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس فى القرن السادس الهجرى حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين ص (١٤٢).

٦- أجل الله فى هذه الدولة ، لأن الدول لهـا آجال لا تتعداها. وغـير ذلك من الأسباب .

خامسًا : الدولة الوطاسية :

ترجع الدولة الوطاسـية فى نسـبتهـا إلى بنى وطاس ،وهم فرع من بـنى مرين ، وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة فى الدولة المرينية ،وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان للدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم أشد تنكيل ،واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التى نزلت بقومه .

وبعد أن تولى حكم المغـرب الشريف محمـد بن على الإدريسى فى عام ٨٦٨هـ، استطاع مـحمد الشيخ أن يجـهِّز جيشًـا لنزع السلطة والحكم من الإدريسى ودخل فى حروب طاحنة ، واحتل فاس عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م ،وكلفـه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده ،حيث استغل البـرتغاليون الحرب الأهلية القائمة فى المغـرب وانصراف أمير أصيلا لمحـاصرة فاس ،فأرسلوا ٤٧٧ سـفينة محملة بـ (٣٠ ألف مـقاتل) فى زمن ملك البرتغال ألفونس الخامس ، ووقـعت أسرة الشيخ الوطاسى فى الأسر ، فاضطر للمـفاوضـة مـعهم ،وترتب علـى تلك المفاوضـات تنازل الوطاسـيين عن أراضٍ من المغرب، واحـتل البرتغاليـون مدينة العـرائش إلى جانب أصيـلا ، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته [1] .

وكانت الفتن فى المغرب على أشـدها عندما تولى الحكم محمـد الشيخ، واستطاع البرتغاليـون النصارى أن يتوسعـوا للاستيلاء على مـوانئ المغرب ،مثل سبـتة وطنجة وأصيـلا، وتوغلت سـراياهم وبعوثهم فى الأطراف المجـاورة التى احتلوهـا ، وكان سقوط غرناطة فى فترة الوطاسيين (١٤٩٢م) وقدم أهالى الأندلس فى هجرات عظيمة نحو المغرب ، واستـمر النفوذ الإسباني والبرتغالي فى التـوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقـاط الإستراتيجـية ،التى امتـدت على سواحل المحيط الأطلسى والبـحر

---

(١) انظر : موسوعة المغرب (٣/ ٢٣، ٢٤) .

المتوسط ، وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية فى طريقها إلى الهند والشرق الأقصى ، كما كانت هذه المراكز نقاطا للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب ، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالى ،الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية فى الخضوع لهم .

قامت إمارات عديدة فى المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبى فى البلاد .

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية ، لكنها رفعت لواء الجهاد ، ودعت إلى الوحدة المغربية ، وتدرجت فى تحقيق أهدافها ،واستطاعت أن تكسب ود الطرق الصوفية وزعماء القبائل ، وتخوض حربًا جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين، وحرروا الأراضى المحتلة ،وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي فى تلك المعارك، واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام ٩٥٦هـ [١] .

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذى فر من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين فى فاس عام ٩٦١هـ، وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية فى نفس العام ٩٦١هـ .

سادسًا : أسباب سقوط الدولة الوطاسية :

١- دخولهم فى معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم .

٢- عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمى الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم .

٣- ظهور الحركة الجهادية التى جعلت أهداف الشعب المغربي فى أولوياتها ، وقد تزعم تلك الحركة السعوديون .

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربى (٣/ ٥٣) .

٤- الضعف الاقتصادي الذى أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية فى الموانئ .

٥- التفكك السياسى بسبب الحروب الداخلية الطاحنة ، بين المغاربة .

سابعًا : السعديون :

يرجع أصل السعديين إلى الجزيرة العربية ،ويرجعون فى نسبهم إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه [(١)] ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هى الدولة العلوية الثانية فى المغرب بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن فى نسبها [(٢)] . وهى لم تعتمد فى قيامها إلى (مهدوية) كاذبة ، أو عصبية وقومية .

وأما تسميتهم بالسعديين ، فيرى الأستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم فى القديم ولم تظهر فى سجلاتهم ورسائلهم ، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية ، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح فى نسبهم ، ويطعن فى شرفهم ، ويزعم أنهم من بنى سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر [(٣)] رسول الله ﷺ .

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم [(٤)] ،ثم استدل بقول أبى العباس الناصرى السلاوى : (وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة ، فصار كالعلم الصرف المرتجل ، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف) [(٥)] أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح

---

(١) انظر : وادى المخازن لشوقى أبي خليل ص(٣١).

(٢) قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٢) .

(٣) الظئر : المرضعة والعاطفة على غير ولدها .

(٤) انظر : وادى المخازن لشوقى أبي خليل ص(٣٢)

(٥) المصدر السابق ص(٣٢) نقلا عن الاستقصا (٥/ ٦) .

الغنيمى فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال : هو محمد بن عبد الرحمن بن على بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبى عرفة بن الحسن بن أبى بكر بن على بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم [١].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل فى حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين ، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم فى حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال ، فأرشدوا إلى الشريف أبى عبد الله محمد القائم بأمر الله ،وكان مقيمًا فى درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه ، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية ، وشرع فى حركة الجهاد ووفقه الله فى معارك ضارية ، وحقق انتصارات رائعة على النصارى ،وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضى المغرب ، وأصاب هيبتهم ، فتيمن المسلمون بقيادته ، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة ، وظل فى جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣هـ ، وخلف ولدين ، وكان أبو العباس أحمد الأعرج أكبرهم ، فبايعه الناس بعد والده ، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم ، وفى سنة (٩٣٠هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين . وفى سنة ٩٤٠هـ اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب ،على أن يكون نصيب الأشراف السعديين من (تادلة) [٢] إلى (السوس)، وللوطاسيين من (تادلة) إلى المغرب الأوسط .

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ -الأخ الأصغر- الملك من أخيه والقى القبض

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ١١٤، ١١٥) .

(٢) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤) .

عليه، واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (٩٦١هـ) ودخل مدينة فاس فصفى له ملك المغرب ، ولكنه قتل سنة (٩٦٤هـ) وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفى سنة (٩٨١هـ) [١] ، فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظًا غليظًا مستبًا ظالمًا ، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم ، وأمر بسجن آخر فكرهته الرعية [٢] . وصفه السلاوى بقوله : (وكان السلطان المذكور فقيهًا أديبًا مشاركًا مجيدًا قوى العارضة فى النظم والنثر ، وكان مع ذلك متكبرا تياها غير مبال بأحد ، ولا متوقف فى الدماء، عسوفًا على الرعية، ومن شعر قوله :

فقم نصطبح صهباء صافية ... فى وجهها عسجد فى وجهه نقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقا ... فإن تأخير أوقات الصبا غلط

ومن شعره أيضا :

ساروا فسار فؤادى إثر ظعنهمُ ... وخلَّفونى نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعدَ بيْنِهمُ ... ولا سقى هاطلٌ وردًا وريحانا [٣]

إلا أن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه ،حيث استطاع عمَّية أبو مروان عبد الملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفا مع الأتراك فى الجزائر ، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته، إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان ، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا ، واستطاعت أن تحرر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني ،وكان أبو مروان عبد الملك فى تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسنا ، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر : وادى المخازن ص(٢٣).

(٣) الاستقصا (٥/ ٥٨) نقلا عن وادى المخازن ص(٣٤).

والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب فى الحكم [١].

وما أن وصل جيش عبد الملك -المدعوم من قبل ،الخلافة العثمانية- فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله ، واستطاع عبد الملك أن يستميل القواد والوزراء ،فانقادوا إليه جميعًا ،وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة (٩٨٣هـ) .

ثامنا : من إصلاحات عبد الملك وأعماله :

١- أمر بتجديد السفن ، وبصنع المراكب الجديدة ،فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

٢- اهتم بالتجارة البحرية ،وكان للأموال التى غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب فى انتعاش ونمو الميزان الاقتصادى للدولة .

٣- أسس جيشًا نظاميًا متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية ،وتشبه بهم فى التسليح والرتب .

٤- استطاع أن يبنى علاقات متينة مع العثمانيين ،وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين فى المغرب .

٥-فرض احترامه على عصره ، حتى الأوربيون احترموه وأجلُّوه .

قال الشاعر الفرنسي أكبريا دو بينى المعاصر لأحداث هذه الفترة : (كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه ،وكان فكره نيرًا بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية ، وكان شاعرًا مجيدًا فى اللغة العربية ، وباختصار ، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا : إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل ، فأحرى لملك) [٢] .

٦- اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها ، واستطاع أن يشكل جهازًا

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤) .

(٢) انظر : وادى المخازن ص(٣٧).

شوريًا للدولة ،أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية ، وأحوال السكان عامة ، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية ، وخاصة الدول التى لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب فى كتب التاريخ بالذهبى ساعده الأيمن فى كل شؤون الدولة [١] .

تاسعا : معركة وادى المخازن :

إن من الأعمال العظيمة التى قامت بها الدولة السعدية فى زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال فى معركة الملوك الثلاثة ، والتى تسمى فى كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادى المخازن، بتاريخ ٣٠ جمادى الثانية ٩٨٦هـ الموافق ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨م .

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها :

١- أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزى الذى لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة ،والتى جعلتهم ينسحبون من أسفى وأمور وأصيلا وغيرها فى زمن يوحنا الثالث آب (١٥٢١-١٥٥٧م) .

٢- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حربًا مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا ، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة ،أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي، يدفعه فى ذلك حقده على الإسلام وأهله عمومًا ، وعلى المغرب خصوصًا ، ولقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التى ترى أن يدها مطلقة ، فى كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أى خطر خارجى من جهة أخرى ، فخطط لغزو واحتلال المغرب[٢] .

(١) المصدر السابق ص(٣٩، ٤٠) .

(٢) انظر: وادى المخازن ص(٤٥، ٤٦) .

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عمَّيه عبد الملك المعتصم بالله ، وأحمد المنصور ، مقابل أن يتنازل له عن موانئ وشواطئ المغرب (فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك)[1] .

١- حشود النصارى :

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطليان والألمان ، وجهز هذه الألوف بكل الأسلحة الممكنة فى زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[2] .

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا فى عام ١٥٧٨م .

٢-الجيش المغربي :

كانت الصيحة فى جنبات المغرب الأقصى : (أن اقصدوا وادى المخازن للجهاد فى سبيل الله) .

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله ، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم ، فكتب إلى أهل المغرب :(ما استصرخت بالنصارى[3] حتى عدمت النصرة من المسلمين ، وقد قال العلماء : إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه) وتهددهم قائلا : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] [4] .

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته ، برسالة دحضت أباطيله ، وفضحت زوره

---

(١) انظر: الاستقصا (٥/ ٦٩) نقلا عن وادى المخازن ص(٤٦) .

(٢) انظر: وادى المخازن ص(٤٩).

(٣) سمى النصارى أهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصارى .

(٤) انظر: وادى المخازن ص(٥١).

وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها : (الحمد لله كما يجب لجلاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضا عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر ، فما نصروه، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله .

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب: لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب ، لعلمت أنك المحجوج والمصاب . .

وأما قولك فى النصارى : فإنك رجعت إلى أهل العدوة ،واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذى لا يخفى ، وقولك : رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله ، أحدهما : كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله ، والثانى : أنك استعنت بالكفار على المسلمين . . قال ﷺ: « إنى لا أستعين بمشرك » . . الاستعانة بهم-بالمشركين- على المسلمين لا تخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه وقد قيل قديمًا : لسان العاقل من وراء قلبه . . وقولك ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، إيه أنت مع الله ورسوله . .

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا ، حملتهم الغيرة الإسلامية ، والحميَّة الإيمانية ، وتجدَّد لهم نور الإيمان ، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ ومن قائل يقول : سترون ما أصنع عند اللقاء ،ومن قائل يقول : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١١] .

وقد افتخرت فى كتابك بجموع الروم وقيامهم معك ، وعوَّلت على بلوغ الملك بحشودهم ، وأنَّى لك هذا مع قول الله تعالى : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢] (١) .

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطؤوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا

(١) الاستقصا (٥/ ٧٩) نقلاً عن وادى المخازن ص(٥٣).

الفرار والتحصن فى الجبال ، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى بتثبيت الناس .

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان : «إن سطوتك قد ظهرت فى خروجك من أرضك ،وجوازك العدوة ، فإن ثبتّ إلى أن نتقدم عليك ، فأنت نصرانى حقيقى شجاع ، وإلا فأنت كلب ابن كلب»(١) . فليس من الشجاعة ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل ولا ينتظر مقابلة المحاربين ، وكان لذلك الخطاب أثر فى غضب سبستيان ،وقرر أخيرًا التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر[٢].

وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله ، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها ،وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير .

٣- قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي) :

- **الجيش البرتغالي :**

١٢٥٠٠٠، وما يلزمهم من المعدات ، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشه ، وتضخم عدد جيش المغرب ، فهي تتحدث عن ١٤٠٠٠ راجل و٢٠٠٠ فارس ،و ٣٦ مدفعًا ، مقابل : ٥٠٠٠٠ راجل فى الجيش المغربي و٢٢٠٠٠ فارس، و١٥٠٠ من الرماة ، و ٢٠ مدفعًا .

ذكر أبو القاضى فى المنتقى المقصور : عدد الجيش البرتغالى مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا[٣] .

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسى فى (مرآة المحاسن) :

إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا ، وأقل ما قيل فى عددهم :ثمانون ألف مقاتل[٤] .

---

(١) انظر : وادى المخازن ص (٥٣).

(٢) انظر : المصدر السابق ص(٥٤) .

(٣، ٤) انظر : الاستقصا (٥/ ٦٩) نقلا عن وادى المخازن ص(٥٦).

كان مع الجيش البرتغالي ٢٠٠٠٠ إسباني ، ٣٠٠٠ ألماني ، ٧٠٠٠ إيطالي وغيرهم عدد كبير ، مع ألوف الخيل ، وأكثر من أربعين مدفعًا .. وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان . وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرزمة تتراوح ما بين : ٣٠٠-٦٠٠ رجل على الأكثر[1] .

• **الجيش المغربي**

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠٠٠٠ مجاهد ، يملكون تفوقًا فى الخيل ، ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعا فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جدًا بسبب :

١- ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغورا كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية ، والحصون المنيعة ، والخنادق العميقة .

٢- التفاف الشعب حول القيادة ، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن ،لأن المعركة كانت حاسمة فى تاريخ الإسلام وفاصلة فى تاريخ المغرب ، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسى زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكلٌ ولا يملٌ فى شحذ الهمم ورفع المعنويات ، وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسى) أحد جناحى الجيش المغربى وأبلى بلاء حسنًا رائعًا، وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، وتَوَرَّع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم ، وعفّ عنها ، ولم يأخذ منها شيئا [2] .

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة فى المعركة ، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي .

(لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله ، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة ، وخطة مدروسة حكيمة ، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده

(١) انظر : وادي المخازن ص (٥٦) .

(٢) انظر : وادى المخازن ص(٥٨) .

عبد الملك ميدانا للمعركة ،وكان عزله عن أسطوله محكما عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم، ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها) [١] .

لقد جعل عبد الملك المدفعية فى المقدمة ، ثم صفوف الرماة المشاة ، وجعل قيادته فى القلب ، وعلى المجنبتين رماة فرسان ، والقوى الإسلامية المتطوعة ،وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض فى الوقت المناسب وهي فى غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر[٢] .

كان صباح الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م يومًا مشهودًا فى تاريخ المغرب ، ويومًا خالدًا فى تاريخ الإسلام . وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً فى جيشه مذكرا بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر[٣] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠]

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٠]

كما ذكر بوجوب الثبات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥].

وبضرورة الانتظام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

وذكر أيضا حقيقة لا مراء فيها : إن انتصرت الصليبية اليوم ، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة .

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز ، فاشتاقت النفوس للشهادة [٤]

(١ ـ ٣) انظر : المصدر السابق ، ص(٦٢) .

(٤) انظر : المصدر السابق ص(٦٤) .

ولم يأل القسس والرهبان جهدًا فى إثارة حماس جند أوروبة الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم فى هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية .

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذانا ببدء المعركة .

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقًا كالسهم شاهرًا سيفه، يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى ، وغالبه المرض الذى سايره من مراكش، ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه فى ساحة الفدى ، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلا : ومتى كان المرض يثنى المسلمين عن الجهاد فى سبيل الله ، وأمْر هذا القائد المجاهد عجيب فى الحزم والشجاعة ، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه، مشيرًا أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر ، ولا يضطربوا ،وكان ذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العلج ، وصار حاجبه يقول للجند : (السلطان يأمر فلانًا أن يذهب إلى موضع كذا ، وفلانًا يلزم الراية ، وفلانا يتقدم ، وفلانًا يتأخر) [١] .

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي ، وأوقدت النار فى برود النصارى ، وصدم المسلمون رماتهم ، فتهالك قسم منهم صرعى ، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادى المخازن ، وكانت تلك القنطرة أثرًا بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم ، فارتموا بالنهر ، فغرق من غرق ، وأُسر من أُسر ، وقُتل من قُتل ، وصُرع سبستيان ، وألوف من حوله ،ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقا فى نهر وادى المخازن .

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة ، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[٢]

---

(١) الاستقصا (٥/ ٨٠) نقلاً عن وادى المخازن ص(٦٦).

(٢) انظر : وادى المخازن، ص(٦٦، ٦٧) .

جاء فى (درة السلوك)لأحمد بن القاضى ، وهو معاصر لأحداث المعركة(مخطوطة بدار الوثائق بالرباط ،د٤٢٨، ص١٤)[١] .

وابن أخيه[٢] بالنصارى اعتصما ... وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان[٣] ... بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذى جمعا ... ينيف عن مائة ألف سمعا
فقيض الله له المنصورا[٤] ... ملكا شجّاعا أسدًا هصورًا
فخلص الإسلام من اللعين ... بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير ... فى ساعة من الزمان[٥] ذا شهير
مات بها بستيان اللعين ... فما له عن الردى معين
ثم محمد[٦] الذى أتى به ... مات غريقا[٧] يومه فانتبه
لحكمة الله العظيم القاهر ... أفادهم وزيّن المنابر
بذكر عمه أبي العباس ... الحازم الرأي شديد الباس
نجل الرسول المصطفى المختار ... به زها المغرب على الأقطار[٨]

(١) دعوة الحق السنة ١٩ ، العدد ٨ رمضان ١٣٩٨هـ ، ص(٥٦)نقلاً عن وادى المخازن ص(٦٧).

(٢) إشارة إلى المتوكل .

(٣) بستيان (لضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان .

(٤) أحمد المنصور ، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه، وكان جديرا بالشكر أن يذكر عبد الملك الذى هيأ وخطط للمعركة .

(٥) إشارة إلى قصر مدة المعركة .

(٦) محمد المتوكل المسلوخ .

(٧) فى نهر وادى المخازن .

(٨) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر فى معركة وادى المخازن .

عاشراً : أسباب نصر وادى المخازن :

١- القيادة الحكيمة التى تمثلت فى زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبى العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال : أبى علي القوري ، والحسين العلج ، ومحمد أبى طيبة ، وعلى بن موسى الذى كان عاملاً على العرائش .

٢-التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية .

٣- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم ، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة ، وضياع الأندلس ، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين الذين تحت حكمهم في الأندلس .

٤- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة فى الرمي بالمدفعية ، وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة ،مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية .

٥- الخطة المحكمة التى رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه ، حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول ، مع قطع طرق تموينه وإمداده ،ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادى المخازن .

٦- القدوة والأسوة المثالية التى ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور ،حيث شاركوا بالفعل والسنان فى القتال، فكان حالهما له أثر أشد فى أتباعهم من قولهم .

٧- تفوق القوات المغربية بالخيل، حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ، ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أى فرصة فى الفرار.

٨- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته، مما جعل القلوب تتنافر .

٩- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي، وقناعته بأنه جهاد فى سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد [١] .

١٠- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم، وغير ذلك من الأسباب .

الحادي عشر: نتائج المعركة:

١- أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي ، وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة ، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة .

٢- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية ، فى زمن السلطان مراد خان الثالث ، والي سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب ، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد فى ديارهم ، ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم .

٣- ارتفع نجم الدولة السعدية فى أفق العالم وأصبحت دول أوروبة تخطب ودها، واضطر ملك البرتغال الجديد (الريكي) أن يرسل وفدًا إلى المغرب، وكذلك ملك الإسبان ،محملة وفودهم بالهدايا الثمينة . ثم قَدِمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة [٢] .

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور)[٣].

٤- سقط نجم نصارى البرتغال فى بحار المغرب واضطربت دولتهم ، وضعفت

---

(١) انظر: وادي المخازن ص(٧٢ـ ٧٥).

(٢) انظر: وادي المخازن ص(٧٠) .

(٣) الاستقصا (٥/ ٩٢) نقلاً عن وادى المخازن ص(٧٠).

شوكتهم ، وتهاوت قوتهم .

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي -واصفًا نتائج المعركة :

وقد كان مخبوءًا لنا في مستقبل الأعصار ، العصر الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين - لقلت : هو العصر النحس البالغ في النحوسة ، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النخوة والقوة منهم ، وخلفها الفشل ، وانقطع الرجاء ، واضمحل إبان الغنى والربح ،وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب، [١].

٥- مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك : صليبي حاقد هو سبستيان ملك البرتغال ، ملك مخلوع خائن هو محمد المتوكل ، مجاهد شهيد هو عبد الملك المعتصم بالله .

٦- سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالا طائلة للدولة السعدية.

٧- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب .

٨- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين ، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب [٢] .

الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي :

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م أبوه محمد المهدي

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٨٥، ٨٦) نقلا عن وادي المخازن ص(٧١) .

(٢) انظر: وادي المخازن ص(٧٦) .

وأمه بربرية الأصل ،لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة [١] .

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز : فاس ، ومراكش ، بتارودانت . .) ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير .

أ- من أشهر شيوخه :

١- أبو العباس أحمد بن علي المنجور ، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون ، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام .

٢ -شقروان بن هبة الله الوهراني ، درس عليه الفقه والتفسير وغيرهما من العلوم .

٣ - أبو زكريا يحيى السراج .

٤-محمد بن يوسف الدرعي .

٥- سليمان بن إبراهيم .

٦-موسى الروداني [٢] .

ب - من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

١- (المعارف في كل ما تحتاج الخلائق) يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها، ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة ، وبناء نقاط للدفاع ، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الإستراتيجي القتالي .

٢- مؤلفه في دراسة الحديث النبوي : **« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة »** [٣] .

---

(١) انظر: الاستقصا (٥/ ١٣٦) نقلا عن وادي المخازن ص(٣٧) .

(٢) انظر وادي المخازن ص(٣٨) .

(٣) اول أن يزيح بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه .

٣- كتابات أدبية وشعرية متميزة ، تظهر فيها المحسنات البديعية أحيانا [١] .

وصفه السلاوى فقال : (نشأ المنصور فى عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة[٢] لأهله عليه ، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره [٣] . كان طويل القامة ممتلئ الخدين ، واسع المنكبين ، تعلوه صفرة رقيقة ، أسود الشعر، أدعج أكحل ،ضيق البلج [٤] براق الثنايا، حسن الشكل ، جميل الوجه ، ظريف المنزع ، لطيف الشمائل[٥].

جـ- إدارته للدولة :

استمر على منهج أخيه فى بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليها الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش ، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة .

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه، ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية ، أو التأخير فى الرد على المراسلات الإدارية والسياسية .

وأحدث حروفًا لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية ،حتى لا يُعرفِ فحواها إذا وقعت فى يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التى تُحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية .

واهتم بالجهاز القضائي ، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تمامًا ، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية .

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي فى القرنين

---

(١) انظر: وادي المخازن ص(٣٨) .

(٢) ثافن الرجل: لازمه حتى عرف باطن أمره .

(٣) طفولته .

(٤) البلج : تباعد ما بين الحاجبين .

(٥) انظر: وادي المخازن ص(٣٩).

١٠١١، ١٢هـ(١٦، ١٧م) : فى الوقت الذى كانت أوروبة فى العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم فى عدد من القضايا ، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا فى القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة ، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم [١].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله فى جامع القصبة فى مراكش ، بجوار قصره ، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء فى الأقاليم ،ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية، واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه .

وعمل على إقامة محطات فى أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلو مترًا بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام .

وطوَّر عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية ، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية ، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله .

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق ،بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلي المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع[٢].

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته ،واقتدى بالنظام العثماني فى التسليح والرتب واللباس ، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية ، وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك ،ومن أهم هذه القيادات إبراهيم بن محمد السفياني قائد الجبهة الأمامية فى وادى المخازن ، وأحمد بن بركة ، وأحمد الحداد العمري المعقلي .

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية

---

(١) انظر: دعوة الحق نقلا عن وادى المخازن ص(٤١) .

(٢) انظر: وادى المخازن ص(٤٢، ٤٣) .

تستقبل الجرحى والمرضى فى الحرب ، واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين فى جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول خصوصا فى مينائي العرائش وسلا [١] ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ، ودخل فى لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك ، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة ، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده [٢] .

الثالث عشر :انهيار الدولة السعدية :

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي فى عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م دخل المغرب فى حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية ، وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها :

١-الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التى عجلت بنهاية الأسرة سريعا وانهيارها .

٢- ساهم ذلك الصراع فى قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية فى المغرب الأقصى ، وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي .

٣- دخلت الولايات والإمارات المنفصلة فى نزاع عسكري فيما بينها ،من أجل الحدود والتوسع لكل إمارة على حساب الأخرى، ولم تكن هذه الإمارات فى وئام فيما بينها .

٤- ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب .

٥- تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد ،وكانت قد وصلت الدولة فى عهده

(١) المصدر السابق ص(٤٤) .

(٢) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، د. نور الدين حسام ص(٤٥٦-٤٥٨) .

إلى حالة من التردي والضعف والانهيار ،حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع الوصول للحكم، انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م،وأزالوا نهائيًا معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور فى البلاد ، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة ، وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة : لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي فى هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية ،وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي عام ١٠٧٥هـ-١٦٦٤م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين فى حكم البلاد إلى يومنا هذا [١] .



(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٣٤٨) .



المبحث الثالث

بنو عبد الواد
[بنو زيان]

بنو عبد الواد (بنو زيان):

كـان بنو زيان ولاة للجزائر من قـبل الموحـدين ، وعندما ضـعف أمر الموحـدين انفصلوا بالمغـرب الأوسط ،وجعلوا مدينة تلمـسان عاصمـة لهم وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا فى كتب التاريخ ببنى عبد الواد [1] .

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبـائل الرحل التى تنتقل فى الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعى ،ثم سـاعدتهم الـظروف والأحوال التى مـرت بها المغـرب على الاستقـرار وتكوين دولة استمرت ما يقـرب من ثلاثمائة سنة تقريبًا . وكان اسـتقرار قبائل عـبد الواد فى سواحل المغرب الأوسط ،واسـتطاعوا أن يفرضوا أنفـسهم بالقوة على أهالى هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط .

انفصل زعيم بنـى عبد الواد يغمر اسن بن زيان عن دولة الموحـدين وأبقى الطاعة الشكلية لهـا إلى أن سقطت فعليا ، وحكم زعـيم بنى عبد الواد ما يقـارب الخمسين سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م-٦٨١/ ١٢٨٢م) كـان يغمـر اسن يدرك صعـوبة الموقف الذى أصبح فيه ، لكون دولته أصغـر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة ، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقـصى بعد صعود نجم قبائل بني مـرين ، لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين ،إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بنى مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين .

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حـدودها الشرقية ،ودخلت فى صـراع عنيف وقتال

---

(١) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤)

مرير مع بنى عبد الواد الذين هُزموا فى عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م أمام الضربات المرينية قرب وجدة، ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كامل ، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى[١] .

وكان من سعد بنى عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد فى بلاد الأندلس . وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بنى مرين وبنى الأحمر، بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني .

وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية ،فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بنى عبد الواد وألحقوا بهم هزائم فى عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م .

وكان بنو عبد الواد يجدون فى الصحراء الواسعة ملاذًا لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم ، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين ، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم فى المغرب الأوسط .

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المرينى ، فيناصرون فريقًا على حساب آخر ، كما كانوا يدخلون فى أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين ، الذين رأوا فى بقاء بنى عبد الواد درعًا حصينًا بينهم وبين بنى مرين ، إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً ،حيث دخلت الدولتان فى صراع عنيف ضد بعضهم البعض، وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين .

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزيانى والحفصى، وتوحد المغرب كله فى زمن أبى الحسن المريني فى عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م ،إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بنى عبد الواد للانهيار أكثر من عشرين مرة، ومع ذلك استطاعت أن تبقى فى حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون،ويرجع ذلك إلى أسباب منها[٢] :

---

(١) انظر: المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ص(١٣٤).

(٢) انظر: المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ص(١٣٦) .

١-ظهور الزعيم يـغمر اسن بن زيان ،والذي استمـر في الحكم لمدة نصف قرن . يقـول ابن خلدون عنه : (كـان يغـمر اســن بن زيان من أشد بـنى عبـد الواد بأسًـا وأعظمهم فى النفـوس مهابة وإجلالاً، وأعرفـهم بمصالح قبيلتـه وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعـا بالتدبير والرياسـة ،شهدت له بذلك آثاره قـبل الملك وبعده، وكان مـرموقًا بـعين التجلة، مؤمـلاً للأمر عند المشـيخة ، تعظمـه من أمره الخـاصة وتضرع إليه فى نوائبها العامة ،فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام ،واضطلع بأعبائه ،وظهـر على الخارجين وأصهارهم فى جملته وتحت سلطانه ،وأحـسن السيرة فى الرعـية بحـسن السـياسـة والاصطناع وكـرم الجوار ، واتخـذ الآلة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء)[1].

٢-حصـانة مدينتـهم وموقعـها الوعـر ، وخصوبة الإقليم المحـيط بها،وصـبرهم ومصابرتهم فى القتال وتحملهم للحصار .

٣-حسن سـياستـهم مع القبـائل العربية الهـلالية ، فمنـحوهم إقطاعات واسـعة وأكرموهم بالأموال والعطاء ،فكانوا من الأسباب الظاهرة فى حماية الدولة .

٤- إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسـيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسـبان وجورهم وتعسـفهم ،فاستفـادت الدولة من خبرتهم فى الوزارة وفى الحيـاة المعمارية والحياة الثقافية .

٥- اهتمامها بالتجارة ،واستفـادوا من موقع تلمسان ،الذي كان محطة بين إفريقيا المدارية وأوروبا، فكان يتم التـبادل بين التجـار، بين ما يحملونـه من إفريقيـا من تبر ورقيق وجلود وعـاج وبين ما يحمله التـجار من أوروبا ،وأخصـها السلاح ،فهـيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضـرائب ، واكتفت بما تحصله من رسوم، فكان للتجارة سبب فى ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة .

---

(١) ابن خلدون فى تاريخه (٧/ ٧٩) .

٦- اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء ،حتى أن يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠هـ) وهو أخو المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة فى زمن الأمير أبى حمو موسى الثانى (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م -٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) وكان هذا الأمير محبًا للعلماء والأدباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه (نظم السلوك في سياسة الملوك) ووقف مع غرناطة فى جهادها بالمال والرجال [١] .

وفى عهد بنى زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين ، ولعل فى قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان ، والمقري مؤلف نفح الطيب ، كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي ،وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق [٢] .

التنظيم الإداري فى عهد بنى عبد الواد :

قسمت السلطات فى الدولة إلى :

١- السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف .

٢- السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم .

٣- السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاة .

٤- السلطة المالية ويتولاها صاحب المال .

ويتابع مسؤولي السلطات السابقة شخص يطلق عليه (مزاول) وله حق الإشراف على كل هؤلاء ،وهو ما يعرف فى زماننا رئيس الوزراء ،وفى كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي ،وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة ،والقاضي، وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب [٣] .

---

(١) المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ص(١٣٦) .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي (٤/ ٢٥٢) .

(٣) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي (٢٥٢،٢٥٣)

أسباب السقوط لبني عبد الواد :

١- النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم .

٢- قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها .

٣- ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان .

٤- مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م ثم استيلاؤهم على وهران ٩١٤هـ ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر، وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية [١] ، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم .

٥- ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية ، وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذى استطاع أن يضع حدًا لعدوان الإسبان، وانتهى الأمر بزوال دولة بني زيان في عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الإسبان [٢] ، وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيمًا، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذى أخلد إليه بنو عبد الواد، فكان ذلك التخاذل والتواكل سببًا في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران ،واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال، وارتكبوا الفواحش ، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة ،وفي أواخر رمضان سنة ٩١٥هـ/ ١٥١١ اقتحم النصارى الإسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيرا من معالم المدينة[٣] .

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين الذين جاؤوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي .

(١ ، ٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥) .

(٣) انظر: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٢٣٥).



المبحث الرابع

الدولة الحفصية

الدولة الحفصية :

اختلف علماء التاريخ فى نسب أمراء بنى حفص ،فمنهم من أرجعهم إلى عمر بن الخطاب كابن نخيل ،الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية [١] ،ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة التى تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص ومن أكبر قبائل البربر فى المغرب على وجه العموم .

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش ،ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة، وهو من خواص ابن تومرت ، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده فى مناصرته ،وكان يأتي بعد عبد المؤمن فى المنزلة عند الموحدين ، من غير منازع ،ويشترك معه فى الألقاب الرئاسية ، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالإمام وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ [٢] . وبلغ من احترام عبد المؤمن له وحسن تقديره إياه أنه كان يأخذ برأيه فى كل مشاكل الحكم ، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة فى الأندلس وإفريقية .

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور [٣] أسند إلى أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى أمر إفريقية ، وأعطاه مطلق التصرف فى إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ،ويقضى على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بنى غانية

(١) ابن خلدون ، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (١/ ٣٧٤) .

(٢) انظر: بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص(٢٢٠) .

(٣) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص(١٢١).

وأحلافهم من العرب .

وكان من شروط أبى محمد الحفصى على الخليفة الموحدى ، أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بنى غانية عنها ، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية ، وألا يتعقب أمره فى ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه ، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية [١].

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبى زكريا ابن عبد الواحد الحفصي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م [٢] .

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا عبد الواحد الحفصى على الانفصال منها :

١- انيهار دولة عبد المؤمن فى المغرب والأندلس عقب الهزيمة التى حاقت بجيوشها فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م .

٢- رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون فى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م لتعاليم ابن تومرت، ثم أزال اسمه من السكة والخطبة.

٣- قتل الخليفة الموحدى إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاتة ، قبيلة الحفصيين .

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون ، اتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته ، واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت ، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت ،وذكروا اسمه فى

(١) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص(١٢١).

(٢) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص(١٨٠) .

الخطبة والسكة ، كما سبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة، وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان(١).

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس ،وقضى على البقية الباقية من بنى غانية ، واستولى على قسنطينة وبجاية ودخل تلمسان ،وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة ، كما أتته بيعة بنى مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين فى المغرب الأقصى ، وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرنيين (٢) ، ودعا له عدد من ولاة الأندلس ،وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية، وإلى الأمير أبى زكريا عبد الواحد وجَّه أمير بلنسية وفدًا برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية ،فقام ابن الأبار القضاعى بين يدي أمير الحفصيين منشدا قصيدته السينية الفريدة ،التي قال عنها المقرى أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جاراها (٣) وهى:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاشى مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أصبح أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذرا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

---

(١) انظر : المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر : المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ص(١٢٧) .

(٣) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠) .

مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان،وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها القوادى العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما

فمن دساكر كانت دونها حرسا ... أنسا ومن كنائس كانت قبلها كنسا

يا للمساجد عادت للعدى بيعا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفى عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثانى أصبحت درسا

وأربعا نمنمت أيدى الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا

كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسى

وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا ... غيث الدبا فى مغانيها التى كسبا

وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضارى لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا؟ ... وأين عصر جليناه بها سلسا ؟

محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا

ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا

خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

واكثر الزعم بالتثليث منفردا ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صل حبالها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا

إلى أن قال:

طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا

وانصر عبدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعا تهمى زكا وخسا

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء ما لم تباشر حسمه انتكسا

فاملأ هنئا لك التأييد ساحتها ... جردا سلاهب أو خطية دعسا

واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى (1)

(١) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠-١٢٢) .

ولقد لبى السلطان الحفصى النداء ،وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة ، إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى ،مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين [١] .

وفتح أبو زكريا أبواب إفريقية للهجرة الأندلسية ،وبلغ التأثير الأندلسي فى الدولة الحفصية ذروته فى عهد أبى عبد الله المستنصر خليفة أبى زكريا يحيى ، وكان من أعظم حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره، إن مناورة أبى زكريا عبد الواحد السياسية قد حققت أهدافها ،حيث استطاع أن يمكن لبنى حفص الحكم فى إفريقية، وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقا إلى مدينة الجزائر غربًا ،وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب [٢].

ولاية العهد :

سلك الحفصيون فى ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة . وفى عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م عين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وحول له معظم الصلاحيات فى سائر أعمالها ،وتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل ، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد ،وكانت وصية أبى زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ،ومما جعل فى وصيته قبل موته فى عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م:

١- المحافظة على إقامة شعائر الإسلام فى اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه

٢- تفقده للجيش وحسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم ،فلا يلحق السفيه بالكبير فيجرؤ السفيه عليه ويفسد نية الكبير، فيكون إحسانه مفسدة له فى كلا الوجهين .

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٢٢) .

(٢) انظر: المغرب فى تاريخ الأندلس و المغرب ص(١٢٨) .

٣- أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات ،لأن الجزع يؤدى إلى القلق والاضطراب ،وبالتالي إلى الفشل فى معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء وذوى التجارب من قادة الجيش .

٤- أن يحسن اختيار مستشاريه ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص فى العمل، وألا يقتصر فى استشارتهم على أحد منهم دون الآخر ،بل يأخذ بآرائهم جميعًا ،فإن فى تعدد الآراء هداية لمعرفة الصواب .

٥- عليه أن يتفقد أحوال رعيته ويراقب العمال والولاه فى أعمالهم ،ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم ، ومهما دعى للكشف عن ملمة فليكشفها ، ولا يراعى في حكمه أحدًا إذا زاغ عن الصواب ، ولا يقتصر على شخص واحد فقط فى رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته .

٦- أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لأنهما أنجح الطرق فى معالجة الأمور.

٧- أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث فى طرقات المسلمين وأموالهم متماد فى غيه فى فساد صلاحهم وأحوالهم ، ومثل هذا ليس له إلا السيف، أما الحسود فعليه ألا يقيل عثرته ، لأن فى إقالته ما يشجعه على القول والقول ،يدفعه إلى العمل ، ووبال عمله يضر غيره فليحسم داءه قبل انتشاره ،ويتدارك أمره قبل إظهاره .

٨- عليه أن يزهد فى الدنيا فلا ينشغل بلهوها وزينتها ،بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التى تخلد ذكراه فى الدنيا وينال بها مرضاة الله فى الآخرة[١] .

وبعد موت أبى زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذى تسمى بالمستنصر بالله ،الذى أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦هـ، وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م وبايعه شريف مكة بالخلافة [٢] وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة فى باب الخلافة

(١) ابن خلدون تاريخ الدولة (٦/١ ٤٠٨-٤٠٨) .

(٢) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص(١٢٣).

كالأصل العربي ، والنسب النبوي ، إلى جانب قرابتهم للموحدين، فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب [١]

وعمر رضى الله عنه كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة فى الجاهلية، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة، فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي وهذا النسب النبوي ، وبحكم قرابتهم للموحدين وجدوا فى أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة [٢].

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل وإعلانه فى كل حفل ومناسبة، وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية ،وذكر نسبهم الذى يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول :

قوم أبو حفص أب لهم وما أدراك والفاروق هو أول [٣]

ودعم موقف الحفصيين فى إعلان خلافة سقوط بغداد بيد المغول واعترف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية ، وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين ،وكذلك المرينيون فى المغرب الأقصى، يقول السلاوي الناصري : (ولما بلغ بنو مرين بالمغرب ، وغلبوا على الكثير من ضواحيه ، كانوا يدعون إلى أبى زكريا الحفصى تأليفًا لأهل المغرب، واستجلابًا لمرضاتهم وإتيانًا لهم من ناحية أهوائهم ،إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم . .)[٤] واعترف بنو زيان فى تلمسان فى المغرب الأوسط بهذه الخلافة .

وبذلك ظهرت خلافة قوية فى الشمال الإفريقي عاصمتها تونس، وبسطت نفوذها فى بلاد الأندلس والمغرب والحجاز ، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة

(١ ـ ٣) نفس المصدر السابق (١٢٤)

(٤) انظر: السلاوى الاستقصا (٣/٢٨-٢٩) نقلاً عن العبادى دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس .

الحفصية ، وكانت السياسة المصرية فى عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية ، ومن أهم تلك الأهداف: السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها ، كالطولونيين ، والإخشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ، ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون ، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب (خدام الحرمين) [(١)] .

وكان يحكم مصر فى تلك الفترة (٦٥٨-٦٧٦هـ) السلطان الظاهر بيبرس، وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر ،واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، والصليبيين فى الشام حتى صارت سيرته مضربا للأمثال ، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته ، لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٩هـ-١٢٦١م ، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة فى احتفال كبير بالقاهرة ولقبه بالمستنصر بالله . وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز وما يغزوه من بلاد الأعداء .

وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذًا أدبيًا وروحيًا وسياسيًا ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية، وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف، وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت الطيب ... إلخ ، ثم أدى بيبرس فريضة الحج، وظهر منه خشوع وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين ، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ، ووضع مندوبا تابعا له بجانب شريف مكة، إلا أنه بعد مضى وقت قصير ، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها فى المنطقة التى تعيش فيها[(٢)] .

(١ ، ٢) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٧ .

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى أن يطور الدولة ويجعلها مقصدًا للعلماء والأدباء ، وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولى فى زمانه ، وجاءته سفارات من دول متعددة ، بعضها من السودان ، وبعض آخر من أوروبا ، واهتم بعاصمة الدولة ، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة فى أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية .

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا فى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر ، إلا إنها أخفقت بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه[١] .

مات المستنصر الموحدى عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجرى، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها فى المغرب والأندلس ، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية ، واستقلت بجاية عن تونس ، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة ، وأخذوا يتدخلون فى شؤون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات [٢] ، وأصبح الشمال الإفريقي فى دوامة الصراع .

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية ، لدى انسحاب المرينيين ، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي فى ولاية أبى العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م-٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، واستطاع أن يقف أمام هجوم من النصارى على المهدية سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م ،فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئًا من هيبتها ، وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان ، وضم بعض الإمارات التي استقلت فى حياة أبيه ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م ، وعلى بسكرة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م ثم نجح فى الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م .

---

(١) المغرب فى تاريخ المغرب ص(١٢٨) .

(٢) عام (١٣٤٦/ ١٣٥٠/ ١٣٥٧م) نقلاً عن العبادى دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص(١٢٩).

وفى عهد أبى فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر . وتوفى أبو فارس سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهراً ومات ، وفى عهد أخيه أبى عمروعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان ،إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضى على هذه الثورات سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م ويهزم عمه أبا الحسن [١] .

وتقدمت تونس فى مجال الحضارة فى عهده ، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا وسلاطين مصر والأندلس ، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته ، وهاجم الإسبان سواحل تونس ، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها ، وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها فى بيت شعر قال فيه :

وكنا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشى الأرانب [٢]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه ، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه ، ثم قام الإسبان بمذبحة فى تونس سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م فكانت نهاية الحفصيين ، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان . واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان، وبذلك دخلت تونس فى حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م [٣] .

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م [٤] .

---

(١) المغرب الكبير (٢/ ٨٧٠) .

(٢ ، ٣) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٠٥)

(٤) انظر: المغرب فى تاريخ الأندلس و المغرب ص (١٣٢) .

طرابلس والدولة الحفصية :

اتخـذ بنو حفص تونس مـركـزًا لسلطانهم وأرسلوا الأمـراء على طرابلس ، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عـبد الرحمن يعـقوب الهرغى ، وعـبد الله بن إبراهيم بن جامع ، ومـحمد بن عـيسى الهنتـاتى ، ويوسف بن طاهر اليربوعى ، وقـد حاول الأول الاستقـلال بطرابلس ،ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابـلس ضده فقبضـوا عليه وقتلوه ، ولم تظهر حركـات انفصالية فى عهد الوالى الثانى، أمـا الوالى الثالث فقد انفـصل بطرابـلس عن أمـراء بنى حـفص فى أثناء إمـارة أبـى عـبـد الله مـحـمـد (٦٤٧/ ٦٦٥هـ) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته ، وجاء يوسف بن طاهر اليربوع فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر .

لقد كانت حركة انفـصال المدن عن الدولة الحفصية كثيـرة ،وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير ، وكان ذلك مما سبب الضـعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة ، وفى مطلع القرن الثامن الهجرى كان الاضطراب قد بلغ أشده ،وكان زكريا بن أحمد اللحيانى أحـد أمراء بنى حفص قد عـاد حديثًا من الحج إلى طرابلس فاجـتمع حوله الناس واختاروه أميرًا لهم سنة ٧١١هـ ، ورأى اضطراب الأحـوال بتونس فعقد العزم على غزوها ،واحتل تونس وجعل ابنه أبا ضربة عليها ،ثم سار شرقًا حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس [(١)] .

وأصبـحت طرابلس عاصمـة النشاط السيـاسي بإفريقيـة حوالى ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركـة أمام القوات التي قادها يحـيى أبو بكر سنة ٧١٨هـ الذي استطاع أن يحرر تونس ،ولكنه فشل فى ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر [(٢)].

طرابلس بين بنى ثابت وبنى مكي وبنى حفص :

بنو ثابت عرب وشاحيـون من بنى سليم ،آل إليهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤هـ

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي (٣٤٢).

(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٨) .

وظلوا يحكمونها - بدون استقرار- حتى قبيل غزو الإسبان لها [١] ومن ولاة بني ثابت :

* ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤ هـ.

* محمد بن ثابت ٧٣٠هـ :

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨هـ [٢] .

* ثابت بن محمد بن ثابت (الثاني) ٧٥٠هـ .

استطاع تجار جنوة أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة فى عام ٧٥٥ هـ ، وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع ،وغلبوا على أمرهم، فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع وأسروا الرجال وسبوا النساء ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوة، فتدخَّل بنو مكى وهم من البربر ، ونسبهم فى لواتة بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكما لقابس،وتفاوض مع الجنويين،وطلبوا أن يدفع لهم ٥٠٠٠٠ مثقال من الذهب العين ، فقبل وأرسل إلى السلطان أبى عنان فى تونس يستنهض همته فى دفع المبلغ ،فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد ، وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس بعدما مكث الجنويين حوالي خمسة أشهر .

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذى دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه فى العقيدة [٣] .

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها ،وجعلها دار إمارته ،وبقي أميرًا عليها إلى أن توفى عام ٧٦٦هـ، وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه، فكان سيئ المعاملة عاجز الرأي

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٧٩) .

(٢) انظر: تاريخ الفتح العربي فى ليبيا ص(٣٥٢) .

مستبدًا في الأمر ،كرهه الناس وسئموا حكمه ،واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر ،وقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي ،وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء [١] .

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة ٧٩٢هـ ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران ابن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين ،وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا أنه قاوم ذلك ،واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر، واستطاعوا أن يتملكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران ،وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر، ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجلاً من قبله يثق فيه، وأصبحت طرابلس تابعة له، وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس وإمارتهم عليها [٢] بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة [٣] .

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٨٣٣هـ .

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروطا :

١- أن يبقى واليا على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي

٢- أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء .

٣- أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد .

٤ - وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط ،وأظهر عبد الواحد بن حفص حزمًا ورأيًا وإرادة ،ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس

---

(١) المصدر السابق ص(٣٥٣).

(٢) المصدر السابق ص(٣٥٥) .

(٣) المصدر السابق ص(٣٤٦) .

على أموالهم وأرواحهم ،ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات وكثرت الأموال، وبقي واليًا إلى أن توفى عام ٨٥٨هـ وكانت مدة حكمه ٢٥سنة كانت أيام رغد وهنأ على أهل طرابلس [١] .

ثورة بنى غراب :

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبى بكر بن عثمان، وألقوا القبض عليه، وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان فى تونس فسجنه ثم قتله، ودخلت البلاد فى الانقسامات والتحزب ،وقام رجل يقال له: منصور، أصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة واختار الطرابلسيون الشيخ منصور ،وهو الذي سعى فى الإصلاح واليا عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبى بكر ،وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكمًا على المدينة ،فجاءته البيعة من غريان وترهونة ومسلاتة وبنى وليد وخلفه رجل يقال له : يوسف مات بالطاعون عام ٨٨٥هـ وخلفه فى الحكم مامي ،وبقي فى الحكم نحو اثنتي عشرة سنة وتوفى عام ٨٩٨هـ ،واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكمًا عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد فى الدنيا حتى لُقِّب بالمرابط وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة، ولم يكن أهلاً للولاية ف، أهمل تحصين البلاد ، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة ، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء، ولم تكن ثورة بنى غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ،ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة توسع أهالى طرابلس فى التجارة وجمع الأموال والثروات [٢] .

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس -منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة ٨٣٣هـ إلى أن احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ -كانت فى رخاء مستمر وأمن شامل،

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي فى ليبيا ص(٣٥٧).

(٢) المصدر السابق ص (٣٥٩).

واستطاع الأهالي أن يـجمعـوا ثروة هائلة كانت مضـرب المثل فى الشمـال الإفريقي، وانغمس أهلهـا فى متع الحـياة ووقعوا فـى الترف الذي أفسـد عزائمهم وأخـلاقهم، وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال فى نفوسهم ،فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم .

وحانت الفرصة للإسبـان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحـرية وانضمت إليها سفن أخرى من مـالطة و شحنت بخمسـة عشر ألف جندي من الإسـبان وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين ، وفى ٨ من ربيع سنـة٩١٦ هـ تحركت قواتهم نحـو طرابلس، ووصلت أساطيلهم ليلة الثـامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ الخـامس والعشرين من يوليو سنـة ١٥١٠م ،وبدأ القتال بين النصـارى الإسبان والطليـان والمالطيين وبين أهالي طرابلس ،ولم تكن القـوات متكافئـة ،وسقطت المدينة فى يد الأعداء فـهتكت الأعراض سُبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات ،واستمر الإفساد الإسباني فى البلاد ما يقرب من ٢٠ سنة ،ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة،ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القـديس يوحنا فى عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م واستمر فـرسان القديس يوحنا حتى ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م حـيث استطاع الأبطال العثـمانيون السنيـون أن يحكموا الحصـار ويحرروا أسر مـدينتنا الحبيـبة من قبـضة فرسـان القديس يوحنا وسنتـعرض للتفاصيل فى الكتاب السادس من سلسلة صـفحات من التاريخ الإسلامي فى الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندمـا نتحدث عن الدولة السنية العثمـانية العلية ودورها فى العالم الإسلامي عموما والشمال الإفريقي خصوصًا .





أسباب سقوط الدولة الحفصية

أسباب سقوط الدولة الحفصية:

١- اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظَّر له ابن تومرت ،وحرصها على تبنى عقائده الفاسدة ،بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي ،فأصبح الولاء ضعيفا للفكر التومرتي ،حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبنى منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين .

٢- الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي ،وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي .

٣- استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين ،فتضطر أحيانًا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن ولسلطانها ،فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال ،وأحيانًا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية .

٤- استُهدفت مدن إفريقيا من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عمومًا، فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة فى صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين .

٥- ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة فى السلطنة العثمانية، والتي استطاعت أن تهزم النصارى فى ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية فى صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد فى سبيل رب العالمين .

٦- تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية، تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا فى العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم، وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين .

٧- كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى .



الخلاصة

الخلاصة :

١- يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، لأنه وضع الخطوط العريضة التى قامت عليها الدولة .

٢- يعتبر منهج ابن تومرت خليطا من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج .

٣- لم يتورع ابن تومرت فى سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين ، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه .

٤- يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة فى الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفه لكتب فى مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السنة بالابتداع .

٥- أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة إصلاحية ، لأنها فى الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح التى جاءت فى الكتاب والسنة ، بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة فى ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الإفريقي .

٦- كان لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكل الوسائل والأساليب لتحقيقها .

٧- ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة فى أوساطه .

٨- تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروبًا ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الإفريقي .

٩- ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي، تمثلت فى إبعاده لقبائل

المصامدة عن الحكم ، وتقريبه لقبائل بنى هلال وبنى سليم منه ، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية ، وتدرج فى القضاء على تنظيم ابن تومرت فى الطبقات ، وجعل الحكم وراثيًا في أسرته .

١٠- لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتى حرفيا ،وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ، ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة ، كما حدث عندما ألغى نظام الطبقات ،وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده فى عصمة ابن تومرت ، وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى جميع الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها . ويعتبر ذلك تكتيكًا من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت .

١١- تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٥٨هـ بعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين فى ٥٦٣هـ وكان أبو يعقوب مولعا بحب الفلاسفة، ولذلك قرب إليه ابن طفيل .

١٢- عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة ،واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة ، واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم ، وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به ، وشقوا عصا الطاعة، ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام ٥٦٧هـ .

١٣- اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام ٥٥٩هـ وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم، إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام ٥٦٣هـ .

١٤- قامت فى المغرب في قفصة فى عام ٥٧٥هـ ثورة ضد الموحدين بقيادة علي ابن المعز بن المعتز الرندى ،واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم

الموحدين، إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها فى عام ٥٧٦هـ .

١٥- عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصرًا حازمًا على النصارى فى الأندلس، لعدة أسباب منها : نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف ، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق ، وميولاته الفكرية التى طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية ،حتى عند حصاره لأعدائه ، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا ، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصًا على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين .

١٦- توفى السلطان يوسف فى سنة ٥٨٠هـ ودفن فى تينمل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ،وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام فى تاريخ المغرب الإسلامي .

١٧- تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه ، فقام بالأمر أحسن قيام ، أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها فى سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال فى أيامه وعظمت الفتوحات .

١٨- صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت ، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين .

١٩- عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بنى غانية والأعراب ، واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الإفريقي كله .

٢٠- عمل على استنفار المسلمين فى بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى ، واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعدادًا للجهاد ضد النصارى فى الأندلس .

٢١- استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصرًا حاسمًا على النصارى فى الأندلس

فى معركة الأرك عام ٥٩١هـ ،وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقي ، من أهمها : ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقوط هيبة ملوك النصارى .

٢٢- نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية والحسية، حيث شرع فى تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها ، ووحد القيادة ، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة ، وأسند المهام إلى أهلها ... إلى آخره .

٢٣- طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد النصارى فى المشرق، إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية، ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ،ولم يمتنع المغاربة من المساهمة فى جهاد المسلمين ضد النصارى فى المشرق تحت قيادة صلاح الدين .

٢٤- توفي السلطان يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ بعد أن جاهد بالسيف، وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السنة والجماعة .

٢٥- تولى أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام ٥٩٥هـ، واستطاع أن يقضى على ثورة بنى غانية وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ،وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصدًا جهاد النصارى فى الأندلس،وانهزم فى معركة العقاب عام ٦٠٩هـ أمام الجحافل النصرانية، ثم رجع إلى المغرب، وانهمك فى الشهوات والملذات حتى قُتل مسمومًا عام ٦١٠هـ .

٢٦- بعد هزيمة العقاب توغل النصارى فى مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية ،من قتل وهتك الأعراض وسبي النساء ،ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس .

٢٧- تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين، ولقد كان لصغر سن الخليفة وقلة خبرته وإعجابه بنفسه وتسلط الوزير ابن جامع عليه دور فى هزيمة العقاب .

٢٨- لقد ساهمت عوامل عديدة فى سقوط دولة الموحدين ،ومن أهمها: هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين ،والثورات المتتالية فى الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط ،والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي ،والانهيار العسكري الذي أصاب القوات الموحدية وانكماش العقيدة التومرتية فى نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثة .

٢٩- بعد زوال دولة الموحدين فى عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات ،من أهمها : دولة بنى الأحمر فى غرناطة وبنى مرين فى المغرب الأقصى ،وبنى عبد الواد فى المغرب الأوسط، وبنى حفص فى المغرب الأدنى.

٣٠- كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها :موقعها الجغرافي المتميز ،ووقوف دولة بنى مرين معها بكل ما تملك ،هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التى سقطت إليها ،قانون التحدي عند الشعور بالخطر ،حب أهالى غرناطة للجهاد فى سبيل الله ، براعة حكام غرناطة فى إدارة الصراع العسكري والسياسي .

٣١- ظهر فى ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى الذي استطاع أن يحقق نصرًا حاسمًا على النصارى فى معركة قرب إستاجة، وظهرت ملكات قيادية للسلطان المرينى تمثلت فى أمور منها : اهتمامه بعنصر الاستطلاع إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة ،خطبته المؤثرة فى جنوده دخوله فى المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

٣٢- كانت العلاقة بين بنى مرين وبنى الأحمر يعتريها الذبول والشك: بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بنى الأحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارى ،إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

٣٣- كان لمشيخة الغزاة دور عظيم فى الدفاع عن غرناطة ،ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى ،وكانت أعداد مشيخة الغزاه قليلة أمام قوات النصارى ،إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلى الله، فأنزل الله نصره عليهم ،وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم فى عام ٧١٩هـ وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين، والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفًا .

٣٤- كانت موقعة طريف فى عام ٧٤١هـ والتى انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم أمام النصارى لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب ،ولقد استشهد فى هذه المعركة مجموعة من العلماء ،من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي ووالد لسان الدين بن الخطيب .

٣٥- اندلعت الحرب الداخلية فى غرناطة بسبب النساء ،واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من أجل احتلال غرناطة فى عام ٨٨٧هـ ،واستطاع أبو عبد الله الصغير أن يستولى على عرش غرناطة ،بعد أن أزاح والده عنه وباشر الحروب بنفسه ضد النصارى، إلا أنه وقع أسيرًا بيد النصارى عام ٨٨٨هـ .

٣٦- استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبى عبد الله الصغير ، وأطلق سراحه فى الوقت الحرج الذي زاد من الصراع الداخلي فى غرناطة، بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة .

٣٧- فى عام ٨٩٧هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ،ونقضوا كل العهد والمواثيق ،وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها ، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين .

٣٨- كانت محاكم التفتيش مضرب المثل فى الظلم والقهر والتعذيب ، ولقد ارتكبت فى حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان .

٣٩- حاول المستضعفون من المسلمين أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم ،وراسلوا

العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى ، وقد دونت فى هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة .

٤٠- كانت هناك أسباب عديدة ساهمت فى سقوط الأندلس ،من أهمها: تفكك وحدة الشمال الإفريقي ، الانغماس فى الشهوات والركون إلى الدعة والترف ، الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم ، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة ،غدر النصارى ونقدهم للعهود ، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف ،عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب ، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم ، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات .

٤١- لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكيم شرع الله ، فترتب على ذلك ضنك فى الحياة الاجتماعية والسياسة والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين .

٤٢- زالت دولة الموحدين من الوجود عام ٦٦٨هـ واستولى على مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى بنو مرين .

٤٣- حاولت دولة بنى مرين أن توحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ، ونجحت فى فترات قصيرة فى هذا الهدف ، إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام ٨٦٩هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى فى الأندلس .

٤٤- من أهم أسباب سقوط دولة بنى مرين : دسائس ملوك الإسبان ،وتحالف غرناطة معهم ضد بنى مرين ، ودخولهم فى صراع مرير مع دويلات المغرب ، وتولى الحكم بعض الأمراء الضعاف ، الخطر الخارجي من البرتغال على موانى الدولة ، وغير ذلك من الأسباب .

٤٥- بعد سنتين من تولى أبى عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي ،واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية ، وكان دخوله لفاس عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م .

٤٦- استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية فى عام ٩٥٦هـ وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها : دخول الوطاسيين فى معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين ،عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها ، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي ، فالتف الشعب حولهم .

٤٧- استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين، فساعدوه على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام ٩٨٣هـ .

٤٨- كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط، وله من بعد النظر حظ وافر ، فأقام دولته على أسس علمية ، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية .

٤٩- حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصارًا حاسما على النصارى فى معركة وادى المخازن فى علم ٩٨٦هـ ،وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية فى وضعه خطة محكمة وشرع فى تنفيذها بنفسه .

٥٠- استشهد السلطان عبد الملك فى وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب .

٥١- كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحرًا فى العلم وترك مؤلفات فى فنون متعددة ،منها : أدبية وشعرية وحديثية ،ومن أشهر كتبه :المعارف فى كل ما تحتاج الخلائق .

٥٢- استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطًا نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة فى جميع مجالات الدولة .

٥٣- بعد وفاة السلطان أحمد المنصور فى عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م ضعفت الدولة السعدية ودخلت فى حالة من التفكك والصراع الداخلي ،وانفصلت عن كيانها مجموعة من الإمارات والولايات، وانتهت فعليا على يد قبيلة الشبانات العربية فى

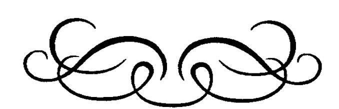
عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م وأزالوا نهائيًا الأسرة السعدية .

٥٤- لم تستطع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي فى المغرب ، فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين ،الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي فى عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م ، وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش، ولا تزال أسرة الأشراف العلويين إلى يومنا هذا فى حكم المغرب الأقصى .

٥٥- حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زوال دولة الموحدين، واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون ،وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية فى عام ٩١٥هـ/ ١٥١١م ،وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م على يد الفاتحين العثمانيين .

٥٦- حكم إفريقية فى فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص ، وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود فى عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م على يد العثمانيين .

٥٧- سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان فى عام ٩١٦هـ ثم سلمت إلى فرسان القديس يوحنا فى عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ، واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م ، حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا .



أهم مراجع البحث

١- ابن جزى ومنهجه فى التفسير ، علي محمد الزبيرى ، دار القلم الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

٢- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسه جمال ، بيروت - لبنان .

٣- أعز ما يطلب لابن تومرت ، تقديم وتحقيق عمار الطالبى ، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥ .

٤- ابن ماجه للإمام أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ، حققه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار التراث العربي .

٥- أشراط الساعة للوابل ، يوسف عبد الله الوابل ، الطبعة الثالثة ،١٤١١هـ ، ١٩٩١م، دار ابن الجوزى .

٦-إلجام العوام عن علم الكلام ، لأبى حامد محمد الغزالى الطوسى .

٧-البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، لابن عذارى المراكشي ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٣م .

٨-المغرب الكبير ، د ،السيد عبد العزيز سالم ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨١م .

٩-البيذق أخبار المهدى ابن تومرت ، أبو بكر الصنهاجى ، تحقيق ليفى بروفنسال باريس ١٩٢٨م .

١٠-الدعوة الموحدية بالمغرب ، عبد الله علي علام ، دار المعرفة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٤م .

١١- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣م.

١٢- النهاية ، الفتن والملاحم ، للحافظ إسماعيل بن كثير ، تحقيق د ،طه زينى ، دار النصر للطباعة ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٣٩٩م .

١٣- المنار المنيف لابن القيم ، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ١٣٩٠هـ .

١٤- النبوة والأنبياء ،لمحمد علي الصابوني .

١٥ - الملل والنحل للشهرستاني ، للعلامة أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ .

١٦- الحموية ، لشيخ الإسلام أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .

١٧- أخبار المهدى تحقيق عبد الحميد حاجيات ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ .

١٨- الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، لعز الدين أبى الحسن علي بن أبى المكارم، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٩م .

١٩- الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، مؤلف مجهول ، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتى ، تونس ١٣٢٩هـ .

٢٠- ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجى .

٢١- المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، دار الأندلس بيروت -الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

٢٢- الدور الفكرى للأندلس والمغاربة فى المشرق د. علي أحمد ، دار شمال دمشق ، ١٩٩٥م .

٢٣- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ليوسف بن تغرى الآتابكى ،وزارة الثقافة والإرشاد القومي فى مصر .

٢٤- المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب . د. عبادة كحيلة ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

٢٥- التكملة لكتاب الصلة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى بن الأبّار .

٢٦- العقاب ، شوقى أبو خليل ، دار الفكر ، تصوير ١٤٠٥هـ ،١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م .

٢٧- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، نجيب زبيب ، دار الأمير ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .

٢٨- السنن الإلاهية .د. عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ،١٩٩٣م .

٢٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق صلاح الدين منجد .

٣٠- الذخيرة لمحاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام أبى الحسن علي الشنتريني .

٣١- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٣٢- الإمام مالك بن أنس ، عبد الغنى الدقر ، دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٣٣- الأرك .د. شوقي أبو خليل دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م .

٣٤- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد

الناصري .

٣٥- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ .

٣٦- الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ، سليمان بن عبد الله البارونى النفوسى، مطبعة الأزهار البارونية .

٣٧- الإبانة عن أصول الديانة ، لأبى الحسن الأشعري نشر دار البيان ، دمشق، سنة ١٤٠١هـ .

٣٨- بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، مجموعة من البحوث التي ألقيت فى ندوة الحضارة الإسلامية فى ذكرى الأستاذ .د. أحمد فكرى ١٦-٢٠ أكتوبر ١٩٧٦م شباب الجامعة .

٣٩-تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم حسن دار الجيل ، بيروت الطبعة الثالثة عشرة ١٤١١هـ . ١٩٩١م .

٤٠-تاريخ الفتح العربي فى ليبيا ، الطاهر أحمد الزاوى ، دار التراث العربي ، الطبعة الثالثة .

٤١- تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، د. نور الدين حسام ، دار الفكر ، طبعة ١٩٦٨م .

٤٢- تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري ، تأليف مجموعة من الأساتذة دار الأمل للنشر والتوزيع .

٤٣- تاريخ الأندلس ، عبد الرحمن الحجى ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م .

٤٤- تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين ، د. حمدى عبد المنعم محمد حسين مؤسسة شباب الجامعة ، طبعة ١٩٨٦م .

٤٥-تجربة الإصلاح فى حركة ابن تومرت ،د. عبد المجيد النجار ، المعهد العالمى للفكر الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٤٦- تفسير الرازى للإمام الفخر الرازى .

٤٧- تفسير القرطبى لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

٤٨- تفسير الآلوسى ، روح المعانى للإمام الآلوسى .

٤٩- البداية والنهاية لأبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، دار الريان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٩م .

٥٠- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ،د. عبد الحليم عويس ، دار الوفاء ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٠هـ . ١٩٨٩م .

٥١- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد مختار العبادى ، مؤسسة شباب الجامعة .

٥٢- دعوة الحق ، السنة ١٩ ، العدد ٨ ، رمضان ١٣٩٨هـ .

٥٣- ديوان التحقيق والمحاكمات لمحمد عبد الله عنان .

٥٤- دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين عمر أحمد موسى دار الشروق الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

٥٥- دولة المرابطين ، سلامة محمد سلمان الهرفى ، دار الندوة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٥٦- دائرة معارف القرن العشرين ، لمحمد فريد وجدى ، مطابع دائرة معارف القرن العشرين ، الطبعة الثالثة ١٣٤٣هـ .

٥٧-رحلة ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤م.

٥٨- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

٥٩- تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست .

٦٠- درء تعارض العقل والنقل ، الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .

٦١- سقوط الأندلس ، د. ناصر العمر ، مؤسسة المؤتمن ، دار الوطن ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

٦٢- سقوط غرناطة ، شوقي أبو خليل دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٨١م .

٦٣- سقوط دولة الموحدين ، د. إمراجع عقيلة الغناكى ، ١٤٠٩هـ .١٩٨٨م منشورات جامعة قاريونس .

٦٤- سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ،الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ .

٦٥- سنن أبى داود للإمام أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى .

٦٦- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي المسمى ابن العماد (ت: ١٠٨٩هـ) .

٦٧- صحيح البخاري للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦هـ .

٦٨- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيرى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث .

٦٩- صحيح الجامع للألباني ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨هـ .

٧٠- صلاح الأمة فى علوم الهمة د. سيد بن حسين العفانى ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٧١- صلاح الدين بطل حطين ، عبد الله علوان ، دار السلام ، القاهرة الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٧٢- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٦٤م .

٧٣- عقيدة أهل السنة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر ، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد ، مطابع الرشيد المدينة المنورة الطبعة الأولى .

٧٤- عقد بيعة ولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حسين مؤنس .

٧٥- عقائد الإمامية لمحمد رضا ظافر .

٧٦- عوامل النصر والهزيمة ، لشوقي أبي خليل ، دار الفكر ، دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

٧٧- غرناطة في ظل بني الأحمر ، د. يوسف شكرى فرحات ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ ،١٩٨٢م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

٧٨- فقه التمكين عند دولة المرابطين ، علي محمد محمد الصلابى ، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي .

٧٩- فتح البارى ، شرح صحيح البخاري ، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلانى ، المطبعة السلفية ، ومكتبتها ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .

٨٠- فتاوى ابن تيمية ، لأبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد قاسم .

٨١- قيام دولة المرابطين ، لحسن أحمد محمود، القاهرة ١٩٥٧م .

٨٢- قادة فتح بلاد المغرب ، محمود شيت خطاب ، دار الفكر الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

٨٣- موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبى ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥م .

٨٤- مجموعة رسائل ابن حزم .

٨٥- موسوعة المغرب العربي للغنيمى ، عبد الفتاح مقلد الغنيمى، الناشر ، مكتبة مدبولى الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٨٦- مسكوكات المرابطين والموحدين فى شمال إفريقية، رسالة ماجستير فى الحضارة والنظم الإسلامية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز، مكة ١٩٧٩م لم تطبع .

٨٧- معالم تاريخ المغرب والأندلس ، د. حسين مؤنس الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م .

٨٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، شرح وتحقيق أحمد شاكر ، أتمه د. عبد الحسين عبد المجيد هاشم ، دار المعارف بمصر الطبعة الأولى .

٨٩- مجلة المنار لمحمد رشيد رضا .

٩٠- الأغالبة . . سياستهم الخارجية ، محمود إسماعيل .

٩١- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م مجلة محكمة .

٩٢- نظم الجمان فى أخبار الزمان لابن القطان ، أبي الحسن علي بن محمد الفاسي .

٩٣- نظم المتناثر فى الحديث المتواتر ، للشيخ جعفر الحسنى الإدريسي الكتانى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٠هـ .

٩٤- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ،المقرى تحقيق ، د. إحسان عباس .

٩٥- وادى المخازن لشوقى أبي خليل دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م .

٩٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان ،شمس الدين أبي العباس بن خلكان دار صادر بيروت ، حققه إحسان عباس .

الفهرس